المكتبة الجامعية

التلفزيون والتغير الاجتماعي

في الدول النامية

د. سعيد مبارك آل زعير



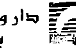


دار ومكتبة الهلال
بيروت

التلفزيون والتغير الاجتماعي في الدول النامية

د. سعيد بن مبارك آل زعير





دار ومكتبة الهلال
بيروت

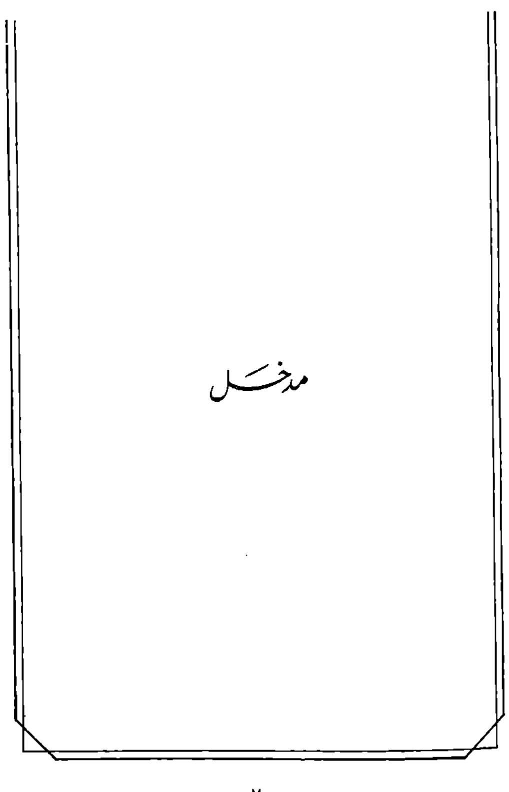
ISBN 9953 - 75 - 334 - 2

المتعهد الوحيد لتوزيع منشوراتنا:



دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر
جادة هادي نصر الله - بناية برج الفلحية - ملك دار ومكتبة الهلال
تلفون: 00961 1 540891 - فاكس 00961 1 540892
ص.ب: 15/5003 الرمز البريدي: 1101-2010 البسطا-بيروت-لبنان
http:\\www.darelhilal.com E-mail:info@darelhilal.com

فهـــرس



مدخل

مدخـــل:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلّل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّداً عبده ورسوله.... أمّا بعد، فإن الله تعالى بعث محمّداً «ﷺ» بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه، وحدّد بذلك الهدف النهائي لبعثة الرسول ﷺ وهدف العاملين من بعده على طريقته بتحقيق إعلاء كلمة الله، وقد قضى الله أن يكون القرآن مهيمناً على ما سبقه من كتب سماوية وينبثق من هذه الحقيقة معنى هيمنة الثقافة الإسلامية على ثقافات أهل الكتب السماوية، وعلى ثقافات الوضعيين، وأجهزة الإعلام الحديثة هي منابر الظهور والهيمنة والتفوق[1] والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح على المهتمين بقضايا الإسلام بعامة ورجال الدعوة والإعلام بخاصة، هل ثقافة الإسلام هي الثقافة الظاهرة على الثقافات كلّها الآن؟

ولا نقصد بطرحنا لهذا السؤال الإجابة عليه، ولكننا نضعه محدّداً للهدف الذي ينبغي أن يعمل رجال الإعلام لتحقيقه حتى لا تضيع الجهود في أهداف

---

(١) زين العابدين الركابي. النظرية الإسلامية في الإعلام والعلاقات الإنسانية ضمن أبحاث وقائع اللقاء الثالث لمنظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامي المنعقد في الرياض بتاريخ: ٢٣ شوال عام ١٣٩٦ هـ.

جزئية تحجب الرؤية عن الأهداف النهائية، وليتّضح لنا المنهج عندما نعمل لتحقيق بعض الأهداف الصحيحة بأنها ـ في نفس الوقت ـ وسائل لتحقيق الهدف الأكبر بظهور الدين كلّه. حتى لا نجمد عند تلك الأهداف الصغيرة فتصبح هي منتهى قصدنا. فدعوتنا إلى العناية بالدراسة الإعلامية الجادّة، والعمل على إيجاد الكفايات الإعلامية المتفوقة، وإيجاد المواد البرامجية المنضبطة بمقاييس الإسلام في القبول والرفض، وتوظيف المال والفكر والكفاءة الفنية لتحقيق ذلك هي أهداف قريبة تحقّق الهدف البعيد بظهور الإسلام على الدين كلّه، وثقافة الإسلام على سائر الثقافات والذي طرح هذا التساؤل أن البعض من طلبة العلم الشرعي اليوم لا يزال يرى أن الانشغال بهذه التخصُّصات الإعلامية عمل مفضول وأن دراسة علوم الشريعة أولى.

إن دراسة علوم الشريعة هي الأساس وإن أي علم حديث لا يقوم على أساس من شرع الله مصيره الضلال، لكن هل التخصُّص الشرعي يكفي وحده لإيصال عقيدتنا وفكرنا وإظهارها على سائر الثقافات الأخرى؟.

إن الهجمة الفكرية الشرسة على الإسلام تستدعي منّا وقفة تأمُّل ودراسة واعية لأحوال الأمم وظروفها وأساليب تأثُّرها وتأثيرها والتعامل معها بمنطق الحكمة، واستخدام كل ما يمكّنا من تحقيق البلاغ المبين ومخاطبة الأجيال المعاصرة بلغتها التي تفهمها وبالأسلوب الذي يؤثّر فيها، إن التلفزيون مثلاً ينقل فيما ينقل الجرائم والضلال، ويقدم القدوة السيئة في كل المجالات، مما يهدم نفسيّات الأفراد والجماعات وينقل التخلُّف والبوار، وإن إدراك ذلك الواقع يوقد في العزم الرغبة في تحويله إلى وسيلة بناء تساهم في إنقاذ البشرية مما هي فيه من ضلال، وأول خطوة نحو ذلك هي أن يتجه عدد من أبناء الأمة المسلمة إلى الدراسة الجادّة الواعية للتعرُّف على خصائصه وإمكاناته والاستفادة منها لتحقيق أهدافنا، والله الهادي إلى سواء السبيل.

أهم الدراسات السابقة في موضوع البحث:

إن موضوع التغيُّر الاجتماعي الذي هو شق الدراسة الأول من

الموضوعات الهامة التي تناولها علماء الاجتماع بالدراسة والبحث، وتوصّلوا إلى نظريات علمية هامة تفسّر هذه الظاهرة، لذا فإن الباحث لا يدعي أن دراسته هذه ستضيف جديداً في هذا الجانب، اللهم إلا فيما يتعلّق بإظهار عامل الثقافة الأصيلة كسبب من أسباب التوازن في المجتمع بين الثوابت والمتغيّرات وهذا جانب لم أجد في الدراسات السابقة عناية كافية به، وهو جانب يهمُّنا في دراسة التغيُّر من المنظور الإسلامي الذي يعتني بأصالة القيم.

أما موضوع تأثير التلفزيون، فإن الدراسات التي تناولته أظهرت كثيراً من النتائج المتفاوتة ـ بل والمتعارضة أحياناً ـ فبينما نجد الدراسات المبكّرة تؤكّد قوة تأثير وسائل الاتصال، حيث (ساد الخوف في الولايات المتحدة الأمريكية من قوة ونفوذ وسائل الإعلام والتهديد الذي يكمن في استخدام الدعاية وتأثير الثقافة الجماهيرية التي تضعف القدرات النقدية للجماهير وتجعلها تقبل ـ بلا مقاومة ـ ما يقدم إليها وتستلم بلا تفكير)(١). إلا أن هذه النظرة تغيّرت بناء على دراسات تالية. وفي محيط العالم الإسلامي قامت دراسات متعدّدة حول تأثير التلفزيون، لكنها دراسات جزئية محدّدة من الطرفين غالباً، فهي تدرس تأثير برامج محدّدة على سلوك معيّن للجماهير، أو تدرس رأي الجماهير في نوع من البرامج، أو تدرس تأثير برامج محو الأمية، أو دور برامج التلفزيون في محو الأميّة في منطقة معيّنة، أو دور البرامج التعليمية في تطوير التعليم وهكذا. لذا فإن هذه الدراسات على أهميتها ودقّة بعضها لم تتعرّض للتغيُّر الاجتماعي بعمومه في علاقاته مع تأثير التلفزيون وهذا أحد الأسباب الرئيسية التي دفعت بالباحث إلى اختيار دراسته الواسعة والاستفادة من نتائج هذه الدراسات الوافرة، وللبعد عن التكرار والإطالة نكتفي بعرض هذه الدراسات في مراجع البحث حيث استفاد الباحث منها فيرجع إليها.

وقد فتحت تلك الدراسات الباب أمام الباحثين للاستمرار في البحث

---

(١) د. جيهان رشتي. الأسس العلمية لنظرية الأعلام. دار الفكر العربي. ص (٥٦٧).

العلمي نحو إثبات صحة النتائج في مناطق أخرى بالمقارنات أو بدراسة مناطق جديدة للمقارنة بين ما يتوصّل إليه من نتائج، وبين النتائج السابقة، خاصة وأن المتغيِّرات المؤثِّرة في عملية الاتصال تتنوع وتتجدَّد بناءً على التطوُّر المستمر في أنواع البرامج وأساليب العرض والمتغيِّرات الأخرى في مختلف المجالات، فالنظرة إلى الاتصال ينبغي أن تتسم (باعتباره قوة مؤثِّرة في العديد من أوجه النشاط الأخرى الاجتماعية والثقافية والتربوية والسياسية وغيرها، وقوة متفاعلة تؤثِّر وتتأثَّر بهذه الأنشطة والقضايا المختلفة، وبهذا يجب ألا ننظر إلى الاتصال باعتباره مجالاً محدَّداً فحسب. بل أيضاً باعتباره عنصراً لا ينفصم عن الكيان الاجتماعي والثقافي والاقتصادي)[1].

وعلى هذا فإن هذه المتغيِّرات كلُّها تدخل وتؤثِّر في نتائج الدراسات، مما يجعل تجديد الدراسات والمعلومات أمراً ضرورياً للحصول على نتائج دقيقة.

لكن هذا لا يعني الشك في نتائج دراسات سابقة أو إلغاؤها إلاَّ أن الاختلاف النسبي في معدَّلات التأثير أمر وارد واحتمال منطقي نظراً للتغيُّر في العوامل المؤثِّرة.

تعريف موضوع البحث وأهميته:

وللتعريف بموضوع البحث وما يمكن أن يسهم به في المعرفة العلمية نقول: إنه إذا كانت الفترات التاريخية تسمى بأبرز ما فيها فإن عصرنا الحالي جدير بتسميته بعصر الإعلام، فالإعلام اليوم نال من الانتشار والسيطرة على أوقات الناس وعقولهم وأموالهم حظَّاً كبيراً، ولعلَّ هذا يبرِّر الاستثمارات العالمية الهائلة في مجالات الاتصال المختلفة، وهذه الاستثمارات الضخمة تفسِّر بدورها التأثير الكبير الذي يحدثه الإعلام في عقول الناس ومداركهم، ولا

---

(١) د. سمير حسين. الإعلام والاتصال بالجماهير والرأي العام. ط ١ عام ١٩٨٤ م ـ عالم الكتب. (ص (٣١).

غرابة أن يحقّق الإعلام ما حقّق وهو ينال من الاهتمام هذا القدر الكبير.

ومع هذه الأهمية المتنامية للإعلام في بلاد العالم المتقدمة إلّا أن غالب البلاد النامية، ومنها البلاد الإسلامية لم ينل فيها الإعلام الأهمية المتناسبة مع حجمه وقوة تأثيره، وذلك نتيجة لعدم إدراك خطورة الإعلام.

ونتيجة لذلك أصبحت الأمة الإسلامية ضحيّة سهلة للغزو الفكري عبر برامج الإعلام القوية الموجّهة من خارج الحدود، وإذا كان اختراق الجيوش للحدود يعتبر عدواناً يجد من يقاومه فإن اختراق الوسائل الإعلامية لهذه الحدود ذاتها أو للضمائر نفسها، لا يعتبر - حتى الآن - عدواناً ولا يجد من يتصدى له، لأن التصدّي له يحتاج إلى مهارة هائلة وتقدُّم تقني ليس متاحاً للدول التي يغزوها الاستعمار الثقافي.

ومن هذه الأهمية لوسائل الإعلام تأتي أهمية هذا البحث الذي يتصدّى لواحدة من أهم تلك الوسائل ليدرس طبيعتها، وقدرتها، أو إمكانياتها، وواقع استعمالها، وما يمكن أن تسخّر فيه من مجالات الدعوة الإسلامية والإعلام، أو على الأقل بيان مداخل الخطر الذي دخل علينا في عقر دارنا، لعل شباب الأمة يتصدّى لهذا الغزو الجديد بنفس السلاح بعد إتقانه. ولن يتحقّق ذلك إلا بنفس المنهج، أعني الدراسة والمعرفة أولاً، ثم الانطلاق على ضوء ما نصل إليه من نتائج بعد الاستعانة بالله وإخلاص النيّة له سبحانه.

وإذا كنّا نطالب بالاستفادة مما حصّله الآخرون والاقتداء بهم فيما سبقونا إليه من علوم مادية، فإنه مطلب قريب بحكم تأخّرنا الحاضر في هذا المجال، وإلا فإن مسؤولية المسلمين - في هذا الجانب الإعلامي خاصة - أكبر من مسؤولية غيرهم من الأمم الأخرى لسببين:

---

(١) د. محمد عبده يماني. أقمار الفضاء غزو جديد. تلفزيون الخليج. سلسلة بحوث ودراسات تلفزيونية. رقم (٩) عام ١٤٠٤ هـ. ص (٤٩).

أحدهما : إن مسؤوليتنا ليست مسئولية وطنية أو اقتصادية فقط أو مسابقة على بسط نفوذ ـ بل هي مسؤولية أمام الله الذي أوجب علينا إعلاء كلمته وإعزاز دينه.

﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾(١). وإذا كان تحقيق العزّة لدين الله واجب، فإن وسائل تحقيق ذلك داخله في الوجوب كما قرّر فقهاء الأصول.

وثانيهما : إن تأثير التلفزيون يزداد بين الأميين والأطفال بشكل أكبر، نظراً لانبهار أفراد هاتين الفئتين من الجمهور بشكل أكبر نظراً لعدم تكون معايير القبول والرفض لديهم بحكم قلّة المعرفة، وهاتان الفئتان تشكّلان في العالم الإسلامي نسب عالية جداً، حيث تصل الأمية في بعض البلاد الإسلامية إلى ٩٥ ٪)(٢). مما يجعل مسؤولية إنقاذ هذه الأعداد الكبيرة من المسلمين من أثر مضامين المواد البرامجية الضّالة تقع على مجموع الأمة ما لم يقم من أبنائها من يرفع عنها تلك التبعة.

فالمقارنة بين أحوال الأمة بغيرها من أحوال الأمم الأخرى من حيث القدرة على البلاغ، وتوصيل الفكر، والتأثير به في حياة المجتمعات، يبيّن أن المسؤولية كبيرة، وأن على القادرين من شباب الأمة المبادرة إلى التشمير عن سواعد الجدّ، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

بين يدي المنهج :

قبل الحديث عن المنهج الذي سار عليه البحث يحسن تحديد بعض الملامح العامة التي ينبغي ألا تغيب عن الذهن عند الحديث عن المنهجية.

---

(١) سورة المنافقون ـ الآية : (٨).

(٢) زين العابدين الركابي. النظرية الإسلامية في الإعلام والعلاقات الإنسانية. مرجع سابق. ص (٣٠٧).

فالمنهج الذي يعرف بأنه عبارة عن (عمليات فحص وتقصي دقيقة يهدف الوصول إلى حقائق أو قواعد عامة، ثم التحقق منها)[1]. والـذي يؤكِّد رجـال البحث العلمي ـ التجريبي والنظري ـ أنهم يسيرون من خلاله بهدف الـوصول إلى الحقائق العلمية المحدَّدة، وبموضوعية تامة، وتجرُّد من كل أهواء الذات، تكتنفه أحياناً عوائق تبعده عن الموضوعية أو تحول بينه وبين الحقيقة.

وما لم يكن المستفيد من نتائج البحوث العلمية على علم بهذه الظروف والعوائق، فإنه قد ينخدع بتلك النتائج التي يحسبها علمية لا تقبل الشك.

لذا حسن في ذهن الباحث أن يضع هذه النقط بين يدي الحديث عن المنهج الذي سار عليه في بحثه.

أولاً : **الفرق بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية:**

مع التسليم بأن مناهج البحث العلمي في العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية تستخدم المنهج العلمي الحديث الذي حددها جون ديوي بخمس مراحل هي «الإحساس بالمشكلة، حصر المشكلة وتحديدها، اقتراح الحلول للمشكلة، استنباط نتائج للحلول المقترحة، الاختبار العملي للفروض». إلا أن طبيعة الموضوعات المختلفة في مجالي العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية تجعل الاختلاف ظاهراً وبيِّناً، وإن النتائج الدقيقة التي لا تقبل الشك ـ إلى حدٍّ ما ـ في العلوم الطبيعية ـ لا تتحقق في العلوم الإنسانية، وذلك لسبب رئيسي هو عدم القدرة على الإحاطة التامة بالمشكلة البحثية في العلوم الإنسانية، في أغلب الأحيان. فالحوادث الاجتماعية التي تحت سمعنا وبصرنا، مما يمكن مشاهدته وجمعه ودراسته ووصفه وتصنيفه واستخراج سننه المطردة، يمكن أن يكون منهجنا فيها علمياً إلى حدٍّ كبير، وإن كانت درجة هذه العلمية لا تبلغ ما تبلغه البحوث في الحوادث الطبيعية، لتعقُّد الحوادث الاجتماعية واستحالة إخضاعها لما تخضع له الحوادث الطبيعية من طرائق ومناهج وتجارب؛ ولذلك

---

(١) د. صلاح القوال. مناهج البحث في العلوم الاجتماعية مكتبة غريب، ص (٣٢).

كان من الصعب الوصول إلى قوانين ثابتة يقينية، وإلى تنبؤات علمية لا تتخلّف[1]. لذا فإن النتائج العلمية للبحوث في مجال العلوم الإنسانية ينبغي أن تكون في إطار من التواضع العلمي الذي يتناسب معها.

ثانياً: إن الخلفية العقيدية المشتركة بين فروع المعرفة والثقافة الغربية، هي أن الوجود كلُّه منحصر في الإنسان والطبيعة، وهو جزء منها ونوع من أنواعها، والطبيعة وجدت بنفسها، وكذلك قوانينها، وأن العقل هو وحده طريق المعرفة، وليس ثمة طريق آخر، وإن القيم والأخلاق حوادث ناشئة ليس لها ثبات، والإنسان نفسه حيوان اجتماعي مفكِّر فحسب، وليست النفس الإنسانية إلا مجموعة غرائز. هذه هي جذور العقائد الغربية سواء عند العقلانيين، أم الماديِّين، وليس في هذا التصوُّر الوجودي مكان للإله وصلته بالكون، ونظامه السببي وبالإنسان ولا الوحي والنبوات، ولا المثل العليا الأخلاقية، ولا سيما ما كان مصدره الدين، ولا لسائر الغيبيات (ما وراء الطبيعة) وهذه العقيدة الغربية المبرِّر المنطقي الذي جعل الغرب في بحوثه العلمية التي يسلكها للكشف عن المجهول يتبع مناهج متماثلة متساوية في تناولها لجميع القضايا ما دام الوجود كله هو الطبيعة والإنسان فقط.

أمَّا الفكر الإسلامي والذي يفرق منذ البداية، بين العالم المشهود الذي يستطيع الإنسان إدراكه، وتطوير معارفه عنه من خلال المشاهدة والبحث والتجربة ـ بل إن عقيدة المسلم تدعوه إلى التفكير والتأمُّل في سنن هذا الكون ـ وبين عالم الغيب، الذي لا يستطيع العقل البشري بما أوتي من قدرة على البحث أن يكشف مكنوناته الغيبية؛ لذا كان الاعتماد على أخبار الرسول ﷺ بشأنه حدّاً فاصلاً بين الكفر والإيمان.

---

(١) محمد المبارك. نحو صياغة إسلامية لعلم الاجتماع. بحث مقدَّم إلى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي. منشور في مجلة المسلم المعاصر. العدد (١٢) في شوال وذو القعدة، وذو الحجة عام ١٣٩٧ هـ.

فطريق المعرفة ليس واحداً، بل هو طريقان اثنان، واستعمال أحدهما محل الآخر دليل على عدم المنهجية. والجمع بين المنهجين ضروري لتحصيل المعرفة (وبه تكونت العقلية الإسلامية التي تجمع بين الاعتقاد بالغيب المكنون الذي لا يعلم مفاتيحه إلاَّ الله وبين الاعتقاد بالسنن التي لا تتبدَّل والتي يمكن معرفة الجوانب اللازمة منها لحياة الإنسان في الأرض والتعامل معها على قواعد ثابتة)[1]. ومن الأمثلة التي يختلط فيها المنهج عند الغرب أو يعجز عن كشفها لأنها لا تخضع للمنهج العلمي المعروف بعض عوامل التغيُّر سلباً وإيجاباً في البناء الاجتماعي وعوامل تماسك المجتمع وهدمه مثل الطاعة لله وأثرها في صلاح الأفراد ومن ثم المجتمعات مثل: صلة الرحم، برّ الوالدين، التكافل الاجتماعي، دفع الزكاة وعكسها من قطيعة الرحم، والظلم والشُّح حيث تكرَّر ذكر هذه الحوادث في القرآن، وربطها بهلاك الأمم التي تظهر فيها تلك الجرائم ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾[2] فالظلم عاقبته الأخذ الشديد. وقال تعالى: ﴿ **وإن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً** ﴾[3]. والاستقامة على طريق الرسل، سبب لنزول الماء من السماء، وهو سبب الحياة والخير، وقال تعالى: ﴿ **وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد** ﴾[4] فربط الله سبحانه في هذه الآية الاستقرار الاقتصادي بالشكر، والعذاب العاجل والآجل بعدم الشكر.

فهذه الأمور المؤثِّرة في بناء المجتمع وصلاحه واستقراره. أو هدمه وفساده واضطرابه، لا يمكن أن تدرك بالمنهج العلمي التجريبي - بل إن هذا المنهج ينكر وجودها ولا يؤمن بمصدرها، لأنها من الأمور الغيبية التي تنافي الموضوعية والعلمية عندهم.

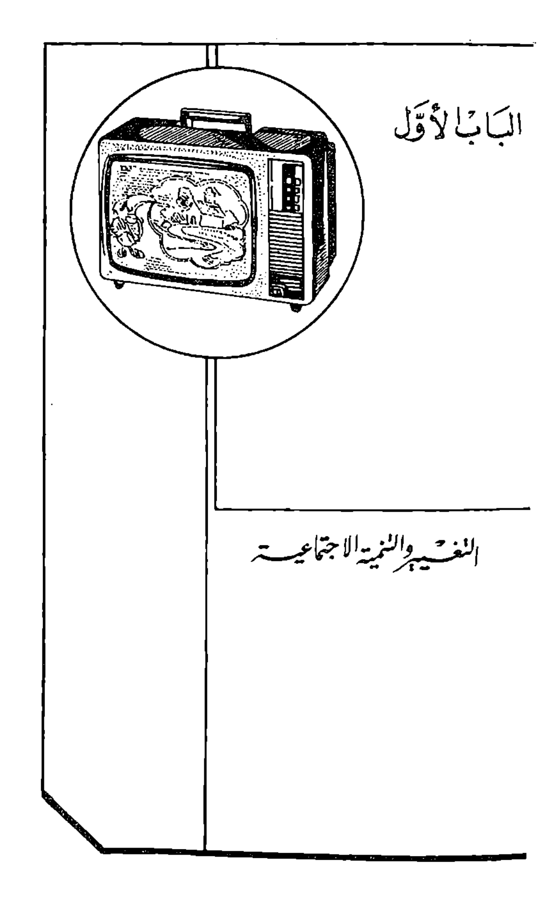
---

(١) سيد قطب. في ظلال القرآن. مجلد (٣)، ص: (٣٥٤).
(٢) سورة هود. آية: (١٠٢).
(٣) سورة الجن. آية: (١٦).
(٤) سورة إبراهيم. آية: (٧).

فالباحث المسلم ينبغي له أن يدرك هذا الفرق الجوهري في المنهج، وحصر الاستفادة من مناهج التجريب في الأمور التي يمكن إدراكها، والاستفادة من مناهج الإسلام في تفسير الأحداث وربط الأسباب بمسبَّباتها سواء كانت تلك الأسباب أمور مدركة أو غيبية أخبرنا عنها عن طريق الوحي الثابت، الذي يعتبر عندنا ـ معشر المسلمين ـ مصدراً حقيقياً للمعرفة اليقينية فوق كل المصادر.

فالعلوم الإنسانية اليوم في جامعات الغرب أصبحت مزيجاً من علوم مفيدة، ومناهج للبحث والتحقيق، مضافاً إليها نظريات متفاوتة في صدقها، ويتخلَّل ذلك كلَّه عقائد باطلة، ومفاهيم منحرفة، وقيم زائفة، تخالف كل المخالفة حقائق نؤمن بها وقيم نعتقد أنها صالحة للتمسُّك بها، يجمعها الإسلام.

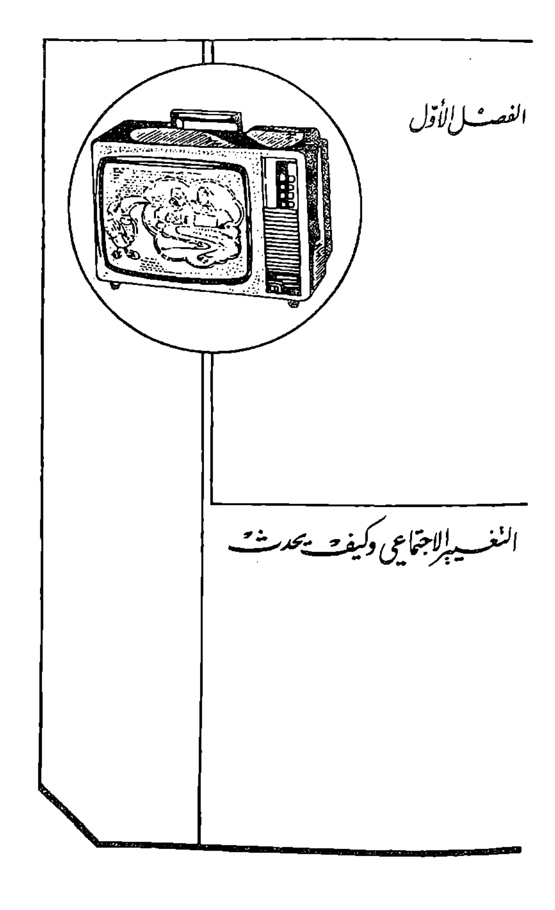
لذا كان لا بد من التفريق بين المفيد وغير المفيد، بل الحق، والباطل في تلك المناهج، لأخذ الحق وترك الباطل لأهله.



البَابُ الأوّل

التغير والتنمية الاجتماعية





الفصل الأول

التغير الاجتماعي وكيف يحدث

الفصـــل الأول

التغير الاجتماعي وكيف يحدث

إن الملاحظ لأحوال المجتمعات الإنسانية في القديم والحديث يلاحظ عليها صفة مشتركة لا تختلف في مجتمع عنها في المجتمعات الأخرى مهما كانت ظروف ذلك المجتمع متميـزة عن غيره، تلك الصفة هي التغير الـذي يصيبه من خلال سلوك أفراده وأحوالهم بين فتـرة زمنية وأخـرى فما يـستقـر في المجتمع في وقت من الأوقات لا تجده في نفس المجتمع في فترة زمنية لاحقة أو سابقة هذه الظاهرة هي ما سماها علماء الاجتماع بالتغير الاجتماعي.

وقد اختلف تفسـير المفكرين قديماً وحديثاً لهذه الـظاهرة اختـلافاً كبـيراً (فلقد كان الرأي الـسائد في التفكير الصيني في القرن الـسادس قبل الميلاد مثلاً وكذلك في الفكر الهندي القديم، هو أن التغير نوع من التدهور والانحـطاط والتأخر من حالة الكمال وذلك على زعم أن الإنسان كان يعيش حين خلق في حـالة من الـسعـادة الكاملة ثم لم يلبـث الفـــاد أن بدأ يـدب إلى تلك الحيـاة الـسعيدة ومر الإنـسان خلال عدة مراحل من التدهور والانحلال)[1].

في حين أن أرسطو في تفسـيره لعملية التغير (يقارن المجتمع بكائن حي يخضـع لقانـون المولـد والنمـو والمـوت ويعتبـر أن التغيـر هـو أسـاس حيـاة المجتمعات ذلك لأن تلك المجتمعات تتكون من عناصر متعارضة ينشـأ عنها

---

(١) د. محمود حجازي: التغير الاجتماعي، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية ص ١٩.

تسلسل المكانات والحكومة وتقسيم العمل وبذلك يحدث التوازن)[١]

وفي القرن التاسع عشر بدأ الباحثون في إخضاع عملية التغير للدراسة الأنثروبولوجية، وجمعت المعلومات الحقلية عن طبائع الشعوب وخصائص التغير فيها، والمراحل التي مرت بها أثناء تغيرها والمؤثرات المختلفة في تلك المجتمعات.

وطرح الباحثون كثيراً من النظريات لتفسير هذه الظاهرة المتفق على حدوثها لكن وجهات النظر في التفسير اتسمت بالاختلاف الكبير البين إلا أن الصفة البارزة في معظم تلك النظريات الحديثة هي الميل إلى أن التطور[٢] والرقي هو الاتجاه الغالب في عملية التغير الاجتماعي الذي مرت به الشعوب.

ونشير هنا إلى ما قام به العلامة ابن خلدون ـ يرحمه الله ـ في محاولاته الجادة لدراسة علم الاجتماع والذي سماه العمران البشري وهو يقرر أن الاجتماع البشري له طبيعة خاصة خاضع لقوانين محكمة يتحرك وفقاً لها، وبذلك يكون قد سبق علماء العصر الحديث في هذه الدراسات الاجتماعية وإن كان لهم فضل تحويلها إلى دراسات حقلية ميدانية تكون نتائجها أقرب إلى الواقع إذا التزمت الموضوعية في التفسير لتلك الظواهر.

(ورغم كل ما يقال فإننا نستطيع أن نسجل اليوم بوضوح أن الاعتقاد بحتمية التقدم الاجتماعي أصبح اليوم أضعف مما كان عليه منذ بضعة عقود مضت. ذلك أن المآسي الرهيبة والمذابح البشعة التي ارتكبها النازيون خلال الحرب العالمية الثانية. وتلك التي ارتكبتها وترتكبها إسرائيل منذ إنشائها، قد ألقت ظلالاً كثيفاً من الشك على العلاقة بين التقدم التكنولوجي والتقدم الأخلاقي والروحي، وهي علاقة كانت موضع تسليم أغلب المفكرين

---

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) مع التحفظ على لفظ التطور إلاّ إذا أريد به الجانب المادي من حياة المجتمعات، أما إذا أطلق التطور وترك على عمومه فإن بعض المجتمعات في العصر الحديث مني بنكسات فكرية كبيرة.

الاجتماعيين في الغرب منذ عصر النهضة وحتى العقد الأول من القرن العشرين (قبل نشوب الحرب العالمية الأولى). فحتى جيلين فقط مضيا كان كافة مثقفي الغرب يؤمنون إيماناً راسخاً أن حركة التغير الاجتماعي ليست سوى ارتقاء وتقدم متصل من مراحل بربرية إلى آفاق حضارية أرقى وأرقى باستمرار. غير أن الأحداث العسكرية والسياسية التي شهدها القرن العشرون قد أضعفت كثيراً هذا الإيمان الراسخ بحتمية التقدم الاجتماعي)[1].

كيف يحدث التغيـر؟

لقد كانت الأفكار السائدة لدى الكثيرين من علماء الاجتماع أن المجتمعات البدائية تتميز بحياة ثابتة مستقرة لا تكاد تتغير بحكم العزلة التي تعيشها وعدم اتصالها بغيرها من الشعوب الأخرى خاصة وأن الاتصال كان شبه منعدم، وهذا يظهر في دراسات علماء الاجتماع الذين تعرضوا لدراسة البناء الاجتماعي في حالة الاستقرار وأهملوا ديناميكية المجتمعات ولا شك أن المجتمعات البدائية تتميز بنوع من الاستقرار لكنه لا يعني الثبات البنائي التام فلقد (ظهرت دراسات علمية دقيقة عن الشعوب المتخلفة أو التقليدية، بحيث أصبح علماء الاجتماع، والأنثروبولوجيا بخاصة يؤمنون بأن ما يسمى بالمجتمعات والثقافات «البدائية» خضعت في واقع الأمر - ولا تزال تخضع - لكثير من التأثيرات الخارجية التي ترتبت عليها كثير من التعديلات والتغيرات المتواصلة المستمرة، وإن كانت هذه التغيرات تحدث في أغلب الأحوال ببطء شديد. إن هي قورنت بسرعة التغيرات التي تحدث في المجتمعات المتقدمة وبخاصة في أوروبا وأمريكا. وربما كان الاختلاف في سرعة التغير هو المسؤول الأول الذي جعل الأنثروبولوجيين الأوائل يظنون أن المجتمعات والثقافات «البدائية» استاتيكية أو ثابتة»[2].

---

(١) د. محمد الجوهري وآخرون. التغير الاجتماعي، دار المعارف بمصر: الطبعة الأولى ص ٨.

(٢) د. أحمد أبو زيد البناء الاجتماعي. اللجنة المصرية العامة للكتاب. الطبعة السابعة. ص ٢٤٤.

وقد نحتاج في الإجابة على تساؤلنا عن كيف يحدث التغير؟ إلى طرح سؤال آخر يحدد البحث وهو ما الذي يتغير في المجتمع؟.

وهذه التساؤلات في واقع الأمر تدفعنا للتعرض إلى ظاهرة التغير الاجتماعي بالتفصيل من جميع جوانبها للتعرف على التغير في مصطلح علماء الاجتماع والأسس النفسية والاجتماعية التي ينبني عليها بل والمراحل التي يمر بها المجتمع قبل وأثناء عملية التغير، والتوجيه الذي قد يتدخل في بعض مراحل التغير للاستفادة منها، والمعوقات التي قد توضع أيضاً للحد من آثاره إن كان يتجه وجهة غير مرغوب فيها أو يخشى من خطرها على البناء الاجتماعي بكامله أو من بعض التفاعلات المصاحبة لتلك العملية، وكذلك التسهيلات التي يمكن أن تقدم للإسراع بعملية التغير لما يظن أنه يحقق مصالح للمجتمع إذا تحقق.

هذه أمور لا بد من التعرض لها في هذا الفصل لتتجلى لنا ظاهرة التغير الاجتماعي بعمومها وهي إحدى المتغيرات الأساسية في هذا البحث.

معنى التغير:

ذكر في لسان العرب «تغير الشيء عن حاله: تحول. وغيره: حوله وبدله كأنه جعله غير ما كان. وفي التنزيل العزيز: ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ . قال ثعلب: معناه حتى يبدلوا ما أمرهم الله . . . إلى أن قال: وغير الدهر: أحواله المتغيرة وورد في حديث الاستسقاء: من يكفر الله يلق الغِيَر أي تغير الحال وانتقالها من الصلاح إلى الفساد والغير الاسم من قولك غيرت الشيء فتغير[1].

هذا في أصل مادة التغير في اللغة. وقد استخدمت هذه اللفظة في البحوث الاجتماعية للدلالة على الاختلافات التي تطرأ على أي ظاهرة من

---

(١) ابن منظور. لسان العرب: الناشر دار لسان العرب، الجزء الثاني ص ١٠٣٥.

الظواهر الاجتماعية خلال فترة معينة من الزمن والتي يمكن ملاحظتها وتقديرها، وإن كان بعض التغيرات تمر بغير ملاحظة ويقبلها الناس على أنها أمور عادية. ويقول آخر فإن «التغير الاجتماعي» يؤخذ في العادة على أنه هو التعديلات التي تحدث في أنماط الحياة في مجتمع معين أو في شعب من الشعوب وتنتج هذه التعديلات من عوامل كثيرة متعددة داخلية أو خارجية، فقد تنشأ مثلاً وبخاصة في المجتمعات المتخلفة، عن اكتشاف بعض موارد الثروة التي لم تكن معروفة من قبل، واستغلال هذه المواد مما يترتب عليه ظهور آثار واضحة في حياة الناس، أو قد تنشأ عن هجرة الأوروبيين واستيطانهم في بعض المناطق التي توجد فيها مجتمعات قبلية تحيا حياتها التقليدية البسيطة، كما قد تنشأ عن محاولة نشر التعليم وتعميمه في بعض الجماعات التي ظلت لا تعرف القراءة والكتابة أجيالاً طويلة من الزمن، أو حتى نتيجة لفرض الضرائب على الجماعات القبلية التي لم يكن لها عهد بالضرائب من قبل، أو قد تنشأ عن هبوط أسعار المواد الخام التي تنتجها إحدى الدول في الأسواق العالمية، أو عن ظهور دعوة دينية جديدة قوية تفلح في جذب عدد كبير من الأنصار في مجتمع كان يؤمن بعقيدة أخرى وما إلى ذلك. فكأن الأسباب التي تؤدي أو قد تؤدي إلى حدوث التغير في الحياة الاجتماعية أسباب كثيرة مختلفة، كما أن التغير نفسه قد يتخذ أكثر من شكل واحد. فقد يكون تغيراً في السلوك الاجتماعي الصادر عن الأشخاص الذين يعيشون في ذلك المجتمع أو قد يكون تغيراً في المجتمع نفسه. وقد تنشأ عن ذلك التفرقة العامة التي تجدها في كل كتب الاجتماع والأنثروبولوجيا التي تعرضت لهذا الموضوع بين ما يسمى بالتغير الثقافي والتغير الاجتماعي[1].

وقد كان موضوع التغير يمثل في وقت ما مشكلة من أصعب المشكلات في علم الاجتماع، فقد حاول (أوجست كونت) وبعض علماء القرن التاسع

---

(١) د. أحمد أبو زيد. البناء الاجتماعي مرجع سابق ص: ٢٥٢.

عشر تحديد عوامل التغير الاجتماعي واتجاهاته وخاصة بعد النتائج التي طرحتها الثورة السياسية في فرنسا والثورة الصناعية في إنجلترا وأصبح البحث عن نظرية للتغير الاجتماعي، أو الدينامية الاجتماعية التي تكشف عن قوانين الحركة والتغير في المجتمعات، يمثل النقاط المحورية في اهتمام علم اجتماع القرن التاسع عشر، كما كان ظهور المجتمع الرأسمالي والحركات الثورية الاجتماعية التي صاحبته بما في ذلك النمو الحضري وتطور الاتجاه الصناعي وتنقل الأفراد والأفكار والجماعات هو الدافع الأساسي للتحليل السوسيولوجي للتغير. واستمرت جهود علماء الاجتماع في القرن التاسع عشر للتنظير وإعطاء التصورات النظرية المفسرة لظاهرة التغير ومع بداية القرن العشرين ابتعدت محاولات التنظير على النطاق الواسع عن مجال علم الاجتماع وتركزت الجهود حول الدراسات الأكثر تفصيلاً لمجتمعات محلية خاصة بل ولنظم معينة باستخدام طرق علمية دقيقة للملاحظة والمسح والقياس. ولا توجد الآن نظرية واحدة في التغير الاجتماعي بل توجد نظريات عديدة، تهتم كل منها بمظاهر ونتائج معينة ومحددة للتغير، وينظر علماء الاجتماع اليوم إلى التغير الاجتماعي على أنه ظرف أو شرط عادي للمجتمع.

ولعل من الدراسات الوثيقة الصلة بالتغير الاجتماعي دراسات التغير الثقافي كموضوع متمايز عن التغير الاجتماعي، له مادته ومناهجه، بل ذهب بعض علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية وبخاصة الأمريكيون مذاهب تباعد بين دراسة التغير الاجتماعي والتغير الثقافي. فبعضهم ذهب إلى أن دراسات التغير الاجتماعي ما هي إلا دراسات التغير الثقافي. فنجد أن ميرل ويقول: (ليس التغير الاجتماعي والتغير الثقافي نفس الشيء، فكثير من النظريات التي تحاول شرح التغير الاجتماعي هي واقعياً تتعامل مع التغير الثقافي). فهو إذن يجعل من دراسة التغير الاجتماعي دراسة للتغير الثقافي، وكأنه لا تغير عنده إلا التغير الثقافي.

ويرجع ذلك إلى الاهتمامات التي وجه إليها علماء الأنثروبولوجيا

الاجتماعية عنايتهم، وتعبر روث بندكت عن هذا الاهتمام بقولها (الأنثروبولوجيا هي دراسة الجنس البشري كصانع للمجتمع وهي تركز على تلك الصفات الفيزيقية والتكنيك الصناعي والتقاليد التي تميز مجتمعاً ما عن غيره، والتي تنتمي إلى معتقدات أخرى، فهي تهتم بهذا العدد الوفير من العادات التي توجد في مختلف الثقافات وتهدف إلى فهم الطريقة التي بها تتغير هذه الثقافات ومختلف الأشكال التي من خلالها تعبر عن نفسها وهكذا نرى أن ذلك الفريق من علماء التغير الاجتماعي اتجهوا إلى إثبات أن التغيرات الاجتماعية المتعلقة بالتأثير الاجتماعي المتبادل توجد في محتوى ثقافي. وأنها لذلك لا تفهم إلا في مصطلحات من هذه العوامل الثقافية[1].

وهذا التفريق بين التغير الثقافي والتغير الاجتماعي هو في الأصل ناشيء عن التفرقة بين الثقافة نفسها والمجتمع وتحديد موضوع الدراسات الأنثروبولوجية وهل موضوعها العلاقات الاجتماعية أو الثقافة، ولا شك أنّ توسيع تعريف الثقافة لتشمل المعارف والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل المقدسات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من مجتمعه هو الذي أوقع في هذا التداخل ولا شك في أن الثقافة أمر معقد من هذا الجانب مما يجعل دراسة التغيرات الثقافية من الأمور الصعبة بل يتعذر شمولها بالمتابعة والتسجيل لكل مفرداتها ولا شك أن العلماء الذين يقومون بهذه الدراسات يضعون ذلك في اعتبارهم أثناء جمع المعلومات أو تحليلها.

ومهما يكن من شيء فالذي لا شك فيه هو أن الأنثروبولوجيين الاجتماعيين البنائين يعتبرون (المجتمع) هو الحقيقة النهائية التي تجعل من الممكن فهم طبيعة الإنسان والنظم الاجتماعية التي تحكم ذلك المجتمع، بينما يرى العلماء الثقافيون أن (الثقافة) هي تلك الحقيقة النهائية المتمايزة بذاتها وأن المجتمع ليس سوى أداة ووسيلة لقيام الثقافة ووجودها واستمرارها،

---

(١) د. محمود حجازي. التغير الاجتماعي. مرجع سابق ص: ١٣٣.

أي أنه يهيء المناخ اللازم . . ولكنه ليس كافياً بذاته . لوجود الثقافة . فالمسألة إذن على ما يقول بيدني ليست مجرد توكيد أو اهتمام بناحية أكثر من الأخرى، وإنما هي في أساسها مسألة الاعتماد على مبادىء وأسس مختلفة في تفسير الحياة الاجتماعية . فحتى حين يتكلم كلا الفريقين عن موضوع واحد بالذات فإنهما يعالجانه من زوايا مختلفة وأبعاد مختلفة وأعماق مختلفة تماماً، كما يتبعان مناهج للتفسير والتأويل مختلفة أيضاً، ويبدو ذلك واضحاً في أن علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية يفصلون فصلاً قاطعاً بين الأنثروبولوجيا والأثنولوجيا، في الوقت الذي يتبع فيه علماء الأنثروبولوجيا الثقافية مناهج الأثنولوجيا إلى حدٍّ كبير[١] ومن ثم فالمجتمع والثقافة عنصرين مختلفين لنفس الكل المعقد فهما متعلقان يتبادلان التأثير ولكنهما ليسا نظيرين فالتغيرات في الثقافة تأتي - غالباً - بتغيرات في المجتمع والعكس بالعكس فمثلاً الثورة الصناعية أتت كنتيجة للتغيرات في فنيَّة إنتاج القوة والصناعة التجارية وهذه تغيرات ثقافية أثرت في أسلوب الحياة للأجيال المتالية في مجتمع غرب أوروبا .

وسلسلة ردود الأفعال ما زالت مستمرة في كل الأجزاء الأخرى من العالم وخاصة الدول النامية . وهكذا فإنه ليس ممكناً دائماً التميز بين التغير الاجتماعي والتغير الثقافي إلا أنه ممكن التميز في النظرية فقط دون التجريب[١] .

يتضح من كل ما سبق أن كل تغير ثقافي حاسم سوف يؤدي بالقطع إلى إحداث تغير في النظام الاجتماعي القائم، أي سيؤدي إلى إضعاف الثبات الذي يتمتع به المجتمع ويعرضه إلى موجات من ردود الأفعال ضد هذه التغيرات الجديدة بل قد تحدث مشكلات اجتماعية غير محسوبة تضطر المجتمع إلى إحداث تغيرات مقصودة لحل تلك المشكلات الناشئة من

---

(١) د. محمود حجازي. التغير الاجتماعي. مرجع سابق ص: ١٣٥.

التغيرات السابقة وهكذا يستمر التغير والتبدل في أنماط السلوك الاجتماعي نتيجة للتغيرات الثقافية:

نظريات التغيير:

منذ وقت مبكر والمفكرون يلاحظون ظواهر التغير الاجتماعي التي عاشها الإنسان في تاريخه الطويل وما تميز به ذلك المجتمع من خصائص التبدل والتحول والتغير في علاقاته الأساسية التي تربط الإنسان، ويلاحظ من دراسة كتابات مفكري الحضارات القديمة تناول موضوعات التغير وهي وإن كانت لا تقارن بما يكتب اليوم في هذا الموضوع إلا أنها دليل على عناية المفكرين في ذلك الوقت بملاحظة هذه الظاهرة.

وفي مطلع العصر الحديث الذي نعيشه ساد تفكير الباحثين في مجالات التغير الاجتماعي النظر إلى التاريخ بنظرة فلسفية تختلف عن نظرة المؤرخين التي تعتمد على سرد الأحداث، وإنما بطريقة جديدة تحاول ربط النتائج بأسبابها[1] واستمرت فلسفة التتبع التاريخي منهجاً لكثير من المفكرين إلى أن بدأت تقترب من علم الاجتماع واعتمدت على المناهج العلمية في كثير من توجيهاتها إلى أن ظهرت نظريات أكثر موضوعية ودقة في تفسير الظواهر الاجتماعية قديماً وحديثاً وإن كان هناك خطأ يكاد يكون مشتركاً لدى الكثيرين وهو محاولة إرجاع الحوادث إلى سبب واحد أو تفسيرها من خلال قانون واحد وهذا أمر ثبت في العصر الحديث بطلانه لأسباب من أوضحها أن العلاقات المتشابكة في المجتمع تتفاعل فيما بينها وتتبادل التأثير بنسب متفاوتة مما يجعل التفسير بالعامل الواحد أمراً أقل ما يقال فيه أنه بعيد عن الموضوعية: ولقد بذلت محاولات تنظيرية عديدة لتحديد ماهية التغير الاجتماعي إلا أنها ظلت متأثرة بفكر تفسير التاريخ ومحاولة إسقاط النتائج على المستقبل وبالرغم من

(١) وهذه المرحلة وإن كانت دليل على تطور فكر العلماء إلا أنها تبقى معبرة عن ذاتية الباحث، كما أن اختلاف عوامل التغير الكثير يحول دون الثقة بنتائج هذه التفسيرات التي تعتمد على التاريخ فقط.

ذلك فقد برز من هؤلاء الباحثين أوجست كونت، هربرت سبنسر، هوبهاوس، كارل ماركس (ويمكن أن نجمل في هذا الصدد موقف التنظيريين المحدثين والمعاصرين من موضوع التغير الاجتماعي في المسائل الآتية:

١ - فريق اهتم ببيان التغير الاجتماعي باعتباره يكشف عن الجانب المعياري للحياة الاجتماعية. فكل المجتمعات والثقافات في تغير مستمر، وإن كان التغير في بعض منها أسرع من البعض الآخر. ويأتي على رأس هذا الفريق ولبرت مور حيث قرر سوية ظاهرة التغير وعمومية وشيوعية ظاهرة التغير.

٢ - وفريق آخر اهتم بتفسير التغير الاجتماعي، وفي هذا المجال يأتي جهد علماء الاجتماع في ميدان التميز بين التغير الاجتماعي والثقافي وقرر في هذا الصدد أن التغير الاجتماعي هو في الدرجة الأولى، تغيُّرٌ في الجوانب البنائية للمجتمع. أما التغيرات الأخرى فهي تغيرات في المركب الثقافي ويعد هذا التميز أمراً ضرورياً. وإن كان لا يحدث في كثير من الأحيان، ليتسنى ربط التغير بعوامله التي من نوعه بيد أن علم الاجتماع الحديث، في هذا الصدد، يرفض حتمية الأخذ بالعامل أو السبب الواحد [١].

ومهما كان الإسهام الذي قدمه علماء الاجتماع في محاولة إيجاد نظريات لتفسير التغير الاجتماعي إلاّ أن الحاجة لا تزال قائمة لإيجاد نظرية أو تصور واضح لتفسير هذه الظاهر تعتمد على جانبين هامين يجب الجمع بينهما لتحقيق نجاح النظرية عند التطبيق وهذان الأمران الضروريان هما:

١ - المنهجية والموضوعية:

وهو ليس بالأمر الجديد على علماء الاجتماع فمناهج البحث قد اتضحت معالمها ورسخت أصولها إلاّ أن الموضوعية تفتقد في كثير من الأحيان لأن تحرر الباحث من صفاته الذاتية أثناء التخطيط للبحث وتنفيذه

(١) د. أحمد النكلاوي: المدخل السيولوجي للإعلام. نهضة الشرق ص: ١٤٠.

أمر يصعب وأصعب منه تفسير نتائج البحث فتظهر فيه الذاتية بوضوح فكثير من البحوث المقدمة الآن عن التغير تظهر بجلاء فكر أصحابها وخاصة الفكر المادي الذي يسقط من حسابه كل العوامل الأخرى. ولن تحقق النظرية الشاملة هذه دقة التفسير ما لم تستطع إيجاد الأساليب العلمية للبحث بمنهجية وموضوعية تامة.

٢ ـ خصوصية المجتمعات:

إن النظريات المطروحة لتفسير التغير الاجتماعي الآن تدعي لنفسها تفسير التغير في كل المجتمعات البشرية دون مراعاة للفوارق الموجودة بين تلك المجتمعات بل والخصوصيات التي قد توجد في مجتمع دون غيره ولعل البحوث التي قدمت عن البلاد المتخلفة والبلاد النامية عن طريق باحثين غربيين أكبر دليل على الحاجة الملحة إلى مراعاة تلك الفوارق والخصوصيات بين المجتمعات.

ومع قيام كثير من دارسي علم الاجتماع في الجامعات العربية والإسلامية بجهود أكاديمية لا بأس بها إلا أن مناهج الغرب لا تزال مسيطرة على الخطط الدراسية ومناهج البحوث وأضرب مثالاً واحداً لإيضاح ذلك:

تتكرر في كتب الاجتماع الدعوة إلى نبذ القدر واعتبار الإيمان بالقدر من مخلفات الماضي وإن دينامية التغير لا تتم ما لم تتحرر المجتمعات من تلك النظرة.

وهذه الجملة وأمثالها مثل «التدبير الإلهي». «القضاء والقدر» ألفاظ عامة تناولها الفكر الغربي الكنسي وتناولها الفكر الإسلامي ولكل منهما فهمه للقدر.

فالإيمان بالقدر عند النصارى يعني ترك الأسباب وانتظار النتائج المقدرة لتأتي.

بينما هي عكس ذلك عند المسلمين فهم يأخذون بالأسباب مع الإيمان

بأن الأسباب والنتائج لا تفيد بدون تقدير الله وهم يؤمنون أن ترك الأسباب معصية لله.

فعندما بدأ الغرب يدرك خطأ الكنيسة فيما دعت إليه من الإيمان بالقدر على الطريقة النصرانية مما يعطل مصالح الناس دعى المفكرون إلى نبذ الإيمان بالقدر بذلك المفهوم ـ وهذا كلام منطقي ـ وانتشرت الدعوة في كتب الغرب ووفدت من خلال الدراسة في الغرب وترجمة الكتب دون وعي بالأصول التي بنيت عليها فظهر بيننا من يعتبر الإيمان بالقدر عائقاً من عوائق التنمية.

هذه التبعية الفكرية والمنهجية تشكل على الدراسات الاجتماعية في البلاد الإسلامية خطراً ما لم يحاول الدارسون التعمق في الفكر الإسلامي والفكر الغربي الذي نشأت فيه تلك الدراسات وتحريرها من شوائب الفكر الدخيل ومحاولة بناء مناهج إسلامية في منطلقاتها وأهدافها. ولننظر إلى أصل فكرة القدر كيف دخلت على علماء الاجتماع: كانت بداية علم الاجتماع امتداد لدراسة فلسفة التاريخ كما هو معروف والذي كانت عنايته بتفسير الأحداث التاريخية بردها لأسبابها ومحاولة إسقاط نتائجها على الحاضر أو توقع المستقبل بناء على تلك النتائج وكان للعلماء الألمان دور بارز في ذلك بل نسب البعض إليهم صنع ذلك العلم وحاول البعض نفيه عنهم وهذا وحده دليل على رسوخ أقدامهم فيه، يقول الدكتور محمد عاطف غيث في هذا: (وأعتقد أن الدعائم أو الأسباب التي أدت إلى قيام هذا النوع من المعرفة هي:

المحاولات التي قام بها آباء الكنيسة والكتاب المدرسيين وعلى الإخص القديس أوغسطين في تفسير التاريخ على أنه مظهر لفعل العناية الإلهية وتدخلها في الشؤون الإنسانية، ويقول بعض النقاد ـ أن «مدينة الله» التي وضعها القديس أوغسطين كان لها أثر كبير في فلسفة التاريخ وفي الخطوط الرئيسية التي سارت عليها. إذا احتذاها الكتاب الذين كتبوا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. والمعروف أن فكرة التدبير الإلهي والقدر كانت مسيطرة على كتابات المدرسين

جميعاً وكانوا يعتقدون أن الأمور الإنسانية تجري لمستقر لها بتدبير حكيم عظيم. هكذا يقول ثم يستطرد... إن نفس الفكرة ولكن في ثوب آخر غير ديني بالطبع بقي مميزاً لبعض فلسفات التاريخ الحديثة التي يظن البعض أن ليس هناك علاقة بينهما وبين كتابات المدرسين. ولكن ليس معنى عرض الفكرة عرضاً جديداً في ثوب جديد أن يؤدي إلى الظن بأنها هي الأخرى جديدة فلو اعتقدنا ذلك لكنا متجنين على الحقيقة)[1] .

هذا أصل فكرة القدر المرفوضة في كتب اجتماع الغرب ولها ما يبررها لكن ما علاقتنا نحن بذلك هل نرفض القدر للتشابه اللفظي فقط ونحن نعلم أن القدر الذي يعنون غير القدر الذي نؤمن به هذا أمر بالغ الأهمية في دراسات الاجتماع في العالم الإسلامي تنبغي العناية به ليتمكن الدارسون من إعطاء النتائج المناسبة لمجتمعاتنا على ضوء دراساتهم الملتزمة بما سبقت الإشارة إليه من الموضوعية العلمية والخصوصية التي لا تُعمم في نتائجها مع الاختلاف في مكونات المجتمعات الثقافية والمادية والظروف الخاصة بكل مجتمع وفي هذا يقول د. محمد عاطف غيث: إن أغلب نظريات التغير الاجتماعي عبارة عن تصورات وأفكار مستمدة من العالم الغربي كما أن الدارسين أنفسهم نتاج لتفكير العالم الغربي وثقافته.

---

(١) د. محمد عاطف غيث. التغير الاجتماعي والتخطيط. دار المعارف ص: ٢.

التغيـــر والثبـــات

لقد أثبتت الدراسات الاجتماعية الحديثة وخاصة البحوث التي عنيت بالتغير الاجتماعي خطأ الفرضية التي كان ينطلق منها علماء الاجتماع في القرن التاسع عشر وهي أن المجتمعات التقليدية والبدائية مجتمعات مستقرة وثابتة نظراً لحالة العزلة التي تعيشها تلك المجتمعات وعدم تعرضها لأي أفكار أو ثقافات جديدة، ولعل بطء عملية التغير التي تمر بها تلك المجتمعات هو السبب الذي دفع بتلك الفئة من علماء الاجتماع إلى الظن بأن تلك المجتمعات مستقرة وثابتة والواقع (أن ما يسمى بالمجتمعات والثقافات البدائية خضعت في واقع الأمر ولا تزال تخضع لكثير من التأثيرات الخارجية التي ترتبت عليها كثير من التعديلات والتغيرات المتواصلة المستمرة. وإن كانت هذه التغيرات تحدث في أغلب الأحوال ببطء شديد[1].

وعندما نتعرض لموضوع الثبات في المجتمعات نجد أن من أبرز الأمور التي يتعرض لها الباحثون في البناء الاجتماعي وتماسك ذلك البناء هو تأثير تأسيس الأدوار الاجتماعية والتنشئة على أداء تلك الأدوار من خلال المكانة التي سيشغلها الفرد فلا بد أن يتعلم كل شخص أنه يشغل مكانات ويملأ أدوار معينة ويتضمن تعليم المكانة التعرف على واجباتها والمطالبة بامتيازاتها واكتساب

---

(١) د. أحمد أبو زيد: البناء الاجتماعي ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ٧ ص : ٢٤٤.

الاتجاهات والمشاعر والتوقعات الملائمة للمكانة، وفي الحقيقة إن التدريب على شغل المكانات بالنسبة لمعظم المكانات الهامة وكيفية أداء أدوارها يبتدىء مبكراً في سن الطفولة، عندما يبتدىء الطفل في تكوين اتجاهاته نحو هذه المكانات والأدوار ليتلاءم مع المعايير الاجتماعية المنظمة للحياة الاجتماعية الخاصة بالمجتمع الذي ينتمي إليه وتترسخ قيم وعادات وتقاليد وأعراف ذلك المجتمع من أفراده من خلال التنشئة ويصبح الفرد معتاداً ومتطابقاً مع تلك القيم (ويلاحظ أن المعايير هي أنماط مثالية موجودة ومنغرسة في عقل الممارسين في ثقافة ما كتوقعات عن سلوك الفرد والآخرين، وفي بعض الأحيان تصاغ بوضوح في شكل قواعد أو قوانين فهي تستخدم كمرشد للسلوك الواقعي الذي قد ينحرف عن المعايير قليلاً أو كثيراً[1].

ولا شك أن وضوح المعايير لدى أفراد المجتمع الواحد يساعد كثيراً على تسهيل التعامل مع المواقف المختلفة في الحياة اليومية وبدون المعايير الواضحة نجد أنفسنا في حاجة إلى التوقف عند كل صغيرة وكبيرة لنسأل أنفسنا كيف نتصرف وما هو اللفظ المناسب في التعامل مع البائع أو المدرس أو الرئيس أو المرؤوس ولو كان الأمر يسير بغير معايير جاهزة مسبقاً لوجدنا أنفسنا فعلاً لا نستطيع إنجاز الأعمال اليومية التي نقوم بها ويضيع منا الوقت في البحث عن الأسلوب المناسب لكن المعايير الاجتماعية الجاهزة كفتنا مؤونة التفكير في الأسلوب أو الطريق المناسبة لكل موقف اجتماعي نجد أنفسنا في حاجة إلى التعامل من خلاله. وهذا يدل على مدى انسجام الفرد مع معايير مجتمعه وتطابق سلوكه معها من خلال التنشئة الاجتماعية التي عاشها منذ كان طفلاً ومن ثم يصبح المجتمع يباشر على أفراده ضغطاً ليتطابق كل فرد مع تلك المعايير وأحياناً تبلور بعض المعايير وتصاغ بقوانين تطبقها الحكومات ومن السهل إدراك أننا لا نتحمل رفض زملائنا لأن العزل الاجتماعي نوع من العقاب

---

(١) د. محمد فؤاد حجازي: البناء الاجتماعي ـ مكتبة وهبة ط ١ ص ٢٠.

وخاصة إذا كان من قبل الجماعة التي ننتمي إليها وكذلك العزل بواسطة السجن إذا كان الأمر يتعلق بمخالفة أحد القوانين التي يترتب على مخالفتها سجن وفي واقع الأمر أن أفراد المجتمع يحرصون على التطابق مع معايير مجتمعهم (وتعليل ذلك أن المجتمع يتمثل في نظام من الأعضاء والوظائف يميل إلى الاحتفاظ بنفسه بعيداً عن عوامل الهدم التي تهدده من الداخل أو الخارج، ولهذا يميل الأفراد، في اتصال مشاعرهم الفردية، أن يكون هذا الاتصال تعبيراً عن «روابط متقاربة» حتى يتيح لمشاعرهم أن يؤثر بعضها في البعض الآخر تأثيراً إيجابياً، ومن ثم ينبعث عن هذا المركب المعياري حياة نفسية من نوع جديد تختلف عن حياة الفرد بصورة خاصة. ولهذا يتميز هذا البناء المعياري بالسمو وذلك لأنه من خلق المجتمع وينمو في مجاله. ولذلك فهو يشكل شعوراً يحتوي طاقة معينة لا تسمو إليها المشاعر الفردية، ومن ثم يسود الفرد إحساس بالخضوع لقوى هذا البناء المعياري فهي قوى لا يُعرف لها نظير في مجال المشاعر الفردية، فهو يشعر حيالها بأنه لا يملك أمر نفسه وإنما بالتبعية وضرورة تسليم قيادة لها)[1].

ولهذا الاستقرار والتطابق مع معايير المجتمع أسباب منطقية وطبيعية تؤدي في نهاية الأمر إليه، من أهمها:

أ ـ التعليم والتثقيف:

فأول سبب لتطابقنا مع المعايير هو أننا قد تعلمنا أن نفعل ذلك، فمنذ طفولتنا المبكرة تعلمنا أن نلاحظ معايير مجتمعنا. فالمعايير شأنها شأن الوجوه الأخرى من الثقافة نجدها في المجتمع ونتقبلها دون مناقشة، لأنه في السن المبكرة نتلقاها كحقائق غير قابلة للمناقشة، وخاصة أنه في هذه السن المبكرة لا يكون لدينا القدرة الإدراكية التي تمكننا من مناقشتها. فمثلاً تعلمنا أن نحترم الأكبر منا سناً. وتعلمنا أن نأكل بأسلوب معين وأن نلبس نوعاً من الملابس،

---

(١) د. محمد أحمد بيومي: علم اجتماع القيم ـ دار المعرفة الجامعية إسكندرية ص ٢٦.

وأن لا ننطق الكلمات البذيئة، وأن نكتب ونقرأ من اليمين إلى اليسار، إلى ما لا نهاية من التعليمات، فعملية التنشئة الاجتماعية هي التي يتعلم بها الطفل معايير مجتمعه، وبعد فترة تصبح هذه المعايير هي الصواب والأسلوب الصحيح لأداء الأشياء، بل في بعض الأحيان تصبح الأسلوب الوحيد وما عداها هراء.

ب ـ الألفة:

السبب الثاني لتطابقنا مع المعايير أننا بمرور الوقت نألفها ونعتادها ففي كثير من الحالات ما نعتاده يصبح مألوفاً لدينا. فمثلاً نحن نتعلم استخدام الملعقة في الصغر وبعد فترة يصبح استخدامها مسألة عادة. وكذا عكسها في بعض المجتمعات التي لا تأكل بالملعقة يجد الفرد الذي يريد مجاراتها في الأكل بالأيدي صعوبة في ذلك وهكذا.

فالتكرار للفعل يحوله إلى عادة وهكذا تثبت جذور الأساليب الشعبية في الكائن الاجتماعي، وعندما يصبح إنساناً معتاداً لنوع من الممارسة، فهو يأتيها تلقائياً بدون جهد أو تفكير ومن ذلك الوقت يصبح الخروج على الأساليب الشعبية أصعب بكثير من التطابق معها.

جـ ـ المنفعة:

والسبب الثالث لتطابقنا مع معايير مجتمعنا أنه عادة نقدر قيمة منفعتها فهي تمكننا من التفاعل مع الآخرين بأسلوب يؤدي إلى منفعة الكل، فهي تساهم في تيسير الحياة الاجتماعية. فمثلاً، واضح أن الأسلوب العادل لتوزيع تذاكر طائرة مثلاً حيث هناك عدد محدود من الكراسي هو بيعها أولاً لمن قدم أولاً، فنحن نرى الرشد في عبارة من يأتي أولاً يُخدم أولاً. فنحن بصفة عامة لا نسمح للأقوى أن يكون على رأس الطابور لمجرد أننا نعرف أنه يمكن أن يشق طريقه بالقوة، فمثلاً هذا الموقف سوف يؤدي إلى الفوضى وانتصار القوة على النظام، وبالمثل نحن نقف بالسيارة عندما نرى النور الأحمر ونسير عندما نرى النور الأخضر. ونحن نفعل ذلك ليس فقط لأننا تعلمنا هذا أو لأننا اعتدناه.

ولكن لأننا نعلم أن في ذلك فائدة وأمناً لنا جميعاً. وهكذا في كثير من المواقف الاجتماعية نعرف الكفاءة الرشيدة للمعايير التي نتطابق معها.

د ـ التوحد مع الجماعة:

والسبب الرابع لتطابقنا مع المعايير، هو أن التطابق وسيلة للتوحد مع الجماعة. فقد نتطابق مع معايير جماعتنا الاجتماعية، مثلاً: أكثر من معايير الجماعات التي لا ننتمي إليها، ليس لأننا نعتبر معاييرنا أرقى، وليس لأننا تعلمنا وألفنا معاييرنا، ولكن لأننا عندما نتطابق مع معاييرنا فنحن نعبر عن عضويتنا في جماعتنا وتوحدنا معها.

ويلاحظ أنه ممكن أن كل هذه الأسباب تعمل متعاونة في موقف اجتماعي واحد، وفي موقف آخر قد يعمل واحد أو أكثر[1].

ونرى هنا مدى تأثير التنشئة الاجتماعية على استقرار المجتمعات الإنسانية وثباتها ومقاومة أفرادها للتغير للحرص على موروثاتهم الاجتماعية ما بني في شخصياتهم عبر وسائل التكوين التي اعتمد عليها المجتمع في تربية أفراده وفي المفهوم الإسلامي الواسع تشمل التربية (التأثير في باطن الإنسان وخارجه، في روحه وعقله وجسمه، وذلك لا يتم إلا بالوسائل التي يطلبها القرآن الكريم ويطبقها النبي ﷺ على نفسه وصحابته يوم يترك الناس لشأنهم يربون أنفسهم وغيرهم يومئذٍ تصطدم الفطرة بواقع اجتهادي محدود ويصطبغ المجتمع بأشكال من الفوضى الفكرية والتنظيمية والأخلاقية، ولذا كانت الأديان هادية الإنسان إلى فطرته مفوضة أمره إلى خالقه يرسم له أصول حياته، وجاء الإسلام خاتمة الأديان يحاكي فطرة الإنسان كأسمى ما تكون المحاكاة، ويرسم له التربية الروحية والعقلية والجسدية، ويربطه بخالقه ويتعبده بعقيدة وشريعة ربانية تحدد له منهج حياته كلها من أولها حتى نهايتها وفي حقيرها وجليلها)[2].

---

(١) انظر د. محمد فؤاد حجازي: البناء الاجتماعي ـ الطبعة الأولى ص ٣٨.
(٢) د. عقيل النشمي. معالم في التربية ـ مكتبة المنار الإسلامية الكويت ط ١ ص ١٧٤.

والتربية في الإسلام تتداخل مع بقية النظم الإسلامية ليتضافر الجميع على بناء هذا الفرد المسلم بناء روحه وعقله وجسده وإذا تحقق ذلك البناء الصالح تطابق مع المجتمع ونظمه ومعاييره ولم يوجد بين الفرد والمجتمع تعارض مصالح أو صراع، ومع عدم التقليل من جوانب التربية الإسلامية الأخرى إلا أن تربية الإيمان وإحياء الضمير في الإسلام نال من العناية والاهتمام جانباً كبيراً وما ذلك إلا للأهمية التي قدرها الإسلام لصلاح الضمائر أو فسادها وأثر ذلك على استقامة الفرد وقيامه بواجباته وفق ما أراده الله له، وليست تربية الضمير في الإسلام تربية جزئية لجانب من مكونات الإنسان بمعزل عن بقية الجوانب ولكنها مستمدة من النظرة الأساسية التي يبنى الفكر الإسلامي عليها وهي أن الإنسان والمجتمع والكون كله خاضع لمدبره سبحانه فيربي الضمير على هذا الأساس بحيث يصبح الفرد مراقباً لخالق هذا الكون في كل تصرفاته وهذه الدرجة التي يرغب الإسلام في تطابق أفراده معها ﴿ **أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك** ﴾[1] ويترتب على هذه الدرجة من حياة الضمير التزام كامل بكل نظام المجتمع المستمد من شرع الله وإذا ما حصل خطأ أو تهاون من الفرد في بعض ساعات العجز البشري رجع إلى الله تائباً نادماً وقد وعده الله بالعفو والمغفرة وقد بلغ الإيمان بأصحاب رسول الله ﷺ درجة جعلت صحوة الضمير وتأنيب النفس عند الوقوع في الخطأ درجة لا مزيد عليها، وهذا مثال واحد رواه مسلم في صحيحه في قصة ماعز والغامدية:

(عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه، قال جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ ، فقال: يا رسول الله طهرني، فقال: ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه، قال: فرجع غير بعيد ثم جاء فقال يا رسول الله طهرني، فقال رسول الله ﷺ : ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه قال فرجع غير بعيد ثم

(١) محمد المراكشي: بغية كل مسلم من صحيح مسلم ـ المكتبة الشعبية بيروت، ص ٥.

جاء، فقال: يا رسول الله طهرني، فقال النبي ﷺ : مثل ذلك حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ فيم أطهرك، فقال: من الزنى فسأل رسول الله ﷺ أبه جنون؟ فأخبر أنه ليس به جنون، فقال أشرب خمراً، فقام له رجل، فاستنكهه، فلم يجد منه ريح خمر، فقال رسول الله ﷺ ، أزنيت، فقال نعم فأمر به فرجم فكان الناس فيه فرقتين قائل يقول: لقد هلك لقد أحاطت به خطيئته ـ وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز أنه جاء إلى رسول الله ﷺ فوضع يده على يده ثم قال: اقتلني بالحجارة، قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة ثم جاء رسول الله ﷺ ، وهم جلوس فسلم ثم جلس فقال استغفروا لماعز ابن مالك، قال فقالوا غفر الله لماعز بن مالك، قال، فقال رسول الله ﷺ لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم قال ثم جاءت امرأة من غامد من الأزد، فقالت: يا رسول الله طهرني، فقال: ويحك ارجعي فاستغفري الله وتوبي إلي فقالت أراك تريد أن تردني كما رددت ماعز بن مالك. قال وما ذاك ترددني. قالت إنها حبلى من الزنى، فقال: أنت، قالت نعم، نعم، فقال لها حتى تضعي ما في بطنك، قال، فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت، قال: فأتى النبي ﷺ ، فقال: قد وضعت الغامدية، فقال: إذاً لا نرجمها وندع ولدها صغيراً ليس له من يرضعه فقام رجل من الأنصار فقال إلي رضاعه يا نبي الله، قال: فرجمها[1].

لقد بلغت تربية الإسلام بالنفس الإنسانية هذه الدرجة التي يقدم فيها الفرد نفسه لينال الجزاء المقرر على الخطأ عندما يرتكبه وأي نوع من الجزاء إنه الإعدام يطلبه الفرد لنفسه، إنه صور من الضبط الاجتماعي الذي لم يمر في التاريخ البشري له مثيل وما ذلك إلا للانسجام مع الفطرة وأخذ النفوس بالأسلوب الذي أراده الله لها. وإن ما تعاني منه المجتمعات الإسلامية من البعد عن التطابق مع معايير الإسلام التي هي نظام الإسلام الاجتماعي العام إلا

---

(١) الإمام مسلم. صحيح مسلم. كتاب الحدود ١١/١٩٩. المطبعة المصرية ومكتبها بمصر.

للبعد عن مناهج الإسلام في تنشئة الأفراد وتربيتهم وما يستلزم لذلك من تنقية البيئة من كل ما يعارض البناء أو يساعد على الهدم ولا شك أن وسائل الإعلام من أقدر الرسائل في كلا الاتجاهين.

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن التغير قد يكون عاملاً من عوامل الثبات والاستقرار ذلك (أن عمليات التغير من حيث التعريف تغير النسق الاجتماعي إلا أنها يمكن أيضاً أن تساعد في الحفاظ عليه. ذلك أنه في مواجهة بعض الظروف الجديدة قد يحتاج النسق الاجتماعي إلى تكيف بنائه إلى حدٍّ ما ليتمكن من البقاء) [1].

مبدأ التغير في الإسلام:

قال ابن خلدون: (إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة، ومنهاج مستقر. إنما هو الاختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال. وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأبصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول، سنة الله التي قد خلت)[2].

وهذه الظاهرة التي لاحظها ابن خلدون وقررها في مقدمته سنة اجتماعية لا تختص بمجتمع دون آخر وليست من خصائص المجتمعات الإسلامية أو الكافرة (وإن هذه الحقيقة الاجتماعية تستتبع بلا مراء تبدل مصالح الناس بتبدل مظاهر المجتمع. ولما كانت مصالح العباد أساس كل شريعة كان من اللازم المعقول أن تتبدل الأحكام الشرعية وفق تبدل الزمان، وأن تتأثر بمظاهر المحيط والبيئة الاجتماعية)[3] وقد قام علماء الشريعة الإسلامية على مر العصور بناء على فهمهم لهذه السنة الاجتماعية بدراسة أحوال المجتمع وتقديم أحكامهم بناء على فهمهم للأحوال بل إن العالم الواحد يكون له في المسألة الواحدة أكثر من رأي واحد بناء على ذلك التغير في الأحوال، فهذا

---

(١) د. محمد عاطف غيث: التغير الاجتماعي والتخطيط ـ مرجع سابق ص ٢١.
(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٤.
(٣) د. صبحي محمصاني: فلسفة التشريع في الإسلام ـ دار العلم للملايين ط ٤ ص ٢٢١.

الإمام الشافعي رحمه الله، له مذهب قديم كان يقول به عندما كان في العراق بما يتناسب مع أحوال الناس وبيئتهم واستبدل ذلك بمذهبه الجديد عندما انتقل إلى مصر وما سبب ذلك التغير غالباً إلا تغير الظروف الاجتماعية وأحوال الناس بين العراق ومصر وليس الإمام الشافعي رحمه الله هو صاحب هذا المبدأ وحده بل إن معظم فقهاء المسلمين ومجتهديهم يقرون بمبدأ تغيير الأحكام المبني على تغير الأحوال مع إنهم يفرقون بوضوح بين ما يغير وما لا يمكن تغييره من الأحكام فأمور العبادات الشرعية ثابتة لا تغير فيها ولا مجال لخضوعها لهذا المبدأ وذلك لإقرار مبدأ أن العبادات توقيفية لا تزاد ولا تنقص ولا تبدل بالاجتهادات البشرية.

أما أمور المعاملات الدنيوية فإن أحكامها تبنى أصلاً على فهم النصوص وتفسيرها والتعرف على أحوال المجتمع والالتفات إلى المعاني وإدراك العلل التي تبنى عليها الأحكام، فإذا حصل في ذلك كله أو بعضه تبدل فلا مانع من النظر مرة أخرى من قبل المجتهدين وتجديد الحكم بما يتناسب مع ما جدّ من أمور ومتغيرات، ولذا يقول ابن القيم رحمه الله: (إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكمة ومصالح العباد في المعاش والمعاد وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة). وهذا واضح أن الأحكام التي تبنى على أساس الحكمة والمصلحة والعدل والرحمة إذا تغيرت الظروف التي بنيت الاجتهادات عليها ينبغي تغيرها، وما لم تغير فإن المصلحة تنتفي من وجودها وهذا سر قولنا الإسلام صالح لكل زمان ومكان، إن صلاح الإسلام المستمر أتى من قدرته على تحقيق مصالح الناس المتغيرة مع تغير الأحوال قد نص ابن القيم على هذا بقوله: (فصل في تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد)[1]. وذكر من الوقائع التي حدثت على مدى التاريخ

(١) ابن القيم: أعلام الموقعين - تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، مصر جـ ٣ ص ٥.

الإسلامي من هذا النوع من الخلفاء الراشدين وغيرهم من مجتهدي الأمة ما أوضح به أن الفقه الإسلامي بالأمس واليوم قادر على استيعاب التطورات والتغيرات التي تحدث في المجتمعات ومعالجة ما يجد من مشكلات كبيرة وصغيرة.

فالنظرة الإسلامية للتغير تقره بصفته سنة اجتماعية ماضية تمر بها كل المجتمعات باختلاف أيديولوجياتها سواء في ذلك مجتمعات المسلمين أو غيرهم، لكن ما هي نظرة الإسلام لهذه السنة الاجتماعية، هل هناك تميز لنظرة الإسلام عن غيرها من وجهات النظر الأخرى؟ خاصة وأن الإسلام هو الأمل المنتظر للإنسانية جمعاء بعد أن أفلست كل النظم التي جُربت في إيجاد مجتمعات صالحة يجد فيها الإنسان الاستقرار والطمأنينة والعدل الذي يستطيع فيه أن يستمتع بإنسانيته التي وهبه الله وكرمه بها.

نعم، ليس للزمن ثبات أو دوام، بل إنه اسم آخر للتغير والتحول ولكن ليس الأمر كذلك، إن الزمن مركب من الإثنين: التغير والاستمرار، وإذا اختل هذا التوازن كأن يتحكم الاستمرار بالتغير، أو يتسلط التغير على الاستمرار[1] فإن ذلك سينتج آثاراً خطيرة تنعكس على المجتمع والحضارة، وإن التوازن بحاجة إلى التناسب حتى أكثر من أي مركب كيميائي.

إن الزمن له قدرة على التغير ويجب أن يغير، وذلك ليس علامة ضعف أو نقص، إنما هو قانون الحياة، وكما قال إقبال: «إن الحياة دائمة الحركة، دائمة الانسياب، دائمة الشباب» وأن الحياة الخالية من القدرة على النمو والتطور يمكن أن تكون أي شيء آخر إلا الحياة.

إلى جانب ذلك فإن مقاومة التغير هي أيضاً صفة متأصلة في الزمن وإن

---

(١) والجمع بين هذين الأمرين هو ما تفتقده الإنسانية اليوم فالجاحدون يحرمون أمتهم من فوائد التقدم الحضاري ودعاة التغير الشامل يذيبون أمتهم في فكر غيرها وتضيع هويتها لكن التوازن بين الثوابت ومقتضيات التطور هو المطلب الذي تتعطش له الإنسانية.

مظاهر التغير تبدو لنا بوضوح ومع هذا فإننا لا نقبل وضعاً يستجيب فيه الإسلام لكل تغير، ولا يمكن أن يوافق شخص مسلم على ذلك لأن الدين ليس مقياس حرارة يقتصر عمله على تسجيل درجة الحرارة، ولا هو بالأداة التي ترصد اتجاه هبوب الرياح، لا نريد من الدين أن يعمل كسجل لتغيرات الأزمنة.

إن الدين الإسلامي يقر التغير كحقيقة واقعة ويعطي أكمل مجال لسير الأمور من أجل تحول صحيح سليم. الدين يتقدم مع الحياة يداً بيد ولا يواكبها فقط كتابع لها ووظيفته أيضاً أن يميز بين تغير سليم وآخر غير سليم، وبين نزعة هدامة وأخرى بناءة ويجب أن يقرر الدين فيما إذا كان التحول نافعاً أو ضاراً بالبشرية أو بأتباعه على الأقل وبينما يتمشى الدين مع الحياة الديناميكية جنباً إلى جنب من جهة، فإنه يعمل حارساً وحامياً لها من جهة أخرى، ويجب عليه مهمة المراقبة والضبط أيضاً. وليس من مهمة الوصي أن يدعم كل ما يفعله القاصر[1] ويؤيد كل ميوله، الجيدة منها والسيئة، أو أن يصادق بخاتم الموافقة على كل شيء يسعى وراءه.. بل إن الدين يمتلك ختماً واحداً وحبراً واحداً ويداً واحدة فقط.... وليس من شأنه أن يلصق طابعه على أي وثيقة أو صك، بل يجب عليه أن يميز ويختار. اجل أن يفحص (الوثيقة) أولاً ثم يصدر حكمه فإن وجد فيها خطأ أو ضرراً حاول الدين أن يتركها برفق ـ إن أمكن ـ أو بقوة إذا اقتضى الأمر ذلك، وإذا عرضت عليه وثيقة واعتبرها ضارة بالجنس البشري فهو لا يمتنع عن تصديقها وختمها فقط. بل يكافح لمقاومتها. وهنا يكمن الفرق بين الدين والأخلاق، فالدين يرى من واجبه ومسؤوليته ضبط النزعة الخاطئة وردها بينما تكتفي الأخلاق بالإشارة إليها وإظهارها)[2].

---

(١) يأنف الكثير من الباحثين من عبارة الوصاية لأنها تعني فيما تعني أن العقل البشري يخضع أمام بعض المسلمات ويجد نفسه عاجزاً أمامها بحكم أنها حقائق دينية لا تقبل الرد. والحقيقة أن المسلم لا يتحقق إسلامه إلا بالاستسلام لله والانقياد لأوامره الثابتة، ويكون هواه تابعاً لما جاء به رسول الله ﷺ.

(٢) انظر السيد أبو الحسن الندوي: الإسلام في عالم متغير ـ دار مكتبة الحياة ص ٥٩.

إن ما نشاهده أحياناً من مشكلات طافية على السطح في العالم الإسلامي اليوم تعيش في المجتمعات وتتفاقم وتنمو إلى أن تعوق الأمة في سيرها نحو النهضة، إن ذلك بسبب ترك الشريعة والأعراض عنها دراسة وبحثاً واجتهاداً وتطبيقاً. ولو حصل ذلك لأمكن استغلال كل سنن التغير والثبات في المجتمع وفي الأحكام للبناء والإصلاح وتجنيب الأمة كل عوامل الضعف التي تواجه بها اليوم على مختلف المستويات وفي كل المجالات وأن التصدي لذلك كله لن يكون بعد توفيق الله إلا بانتهاج المسلك العلمي الصحيح في دراسة المشكلات دراسة منهجية صحيحة والالتزام الصادق والأمين بمبادىء الإسلام الخالدة.

عوامل التغيير:

يعنى بعوامل التغير النظرة الشمولية التي تسقط من حسابها أن هناك عاملاً وحيداً له التأثير المستقل في أحداث التغير فنظراً لتوسع الدراسات الاجتماعية ثبت لدى غالبية علماء الاجتماع أن النظرة السابقة والتي كانت سائدة لدى كثير من المنظرين لظاهرة التغير الاجتماعي والمفسرين لها بعامل واحد، بعيدة عن التفسير العلمي فالعوامل المؤثرة في عملية التغير متعددة جداً وهذا لا ينفي أن بعض تلك المؤثرات يكون أكثر تأثيراً من غيره من المؤثرات التي اشتركت معه في إحداث التغير ولعل هذا التفاوت في نسب التأثير بين العوامل المتعددة هو الذي دفع ببعض الباحثين إلى التفسير بعامل واحد، هو أكثر تلك العوامل تأثيراً. من وجهة نظر الباحث وخلاصة الأمر أن التفسير بعامل واحد فقط أصبح من الأمور البعيدة كل البعد عن الدراسات المنهجية ولعل استعراض هذه العوامل التي تعرض لمعظمها الباحثون مع تفاوت بينهم في أهميتها، وفي شمول كل واحد منهم لها جميعاً أو إسقاط بعضها من حسابه لعل هذا الاستعراض يوضح التفاعل المعقد لسلاسل المتغيرات المتلاحقة والتي تتبادل فيما بينها التأثير.

أولاً : العامل البيئي (الأيكولوجي):

ويقصد به الظواهر غير العضوية التي تؤثر على الحياة البشرية مثل الموقع والمناخ والتضاريس وكمية سقوط الأمطار وفيضانات الأنهار والأعاصير والزلازل والبراكين، والمناجم وحقول البترول. . . إلخ ولا شك أن كل هذه العوامل تلعب دورها في التغير الاجتماعي، فالموقع مثلاً قد يكون عاملاً من أهم عوامل تغير الأوضاع الاجتماعية والسياسية في مجتمع من المجتمعات، فهناك دولة بسبب موقعها الجغرافي الممتاز قد تعرضت لكثير من الغزوات سببت لها كثير من التغيرات المختلفة التي تتبع في العادة الحملات العسكرية ولعله يدخل ضمن هذا العامل ما يفعله الإنسان من تعديل في أشكال مظاهر الطبيعة كشق قناة أو بناء سد مما يحدث آثاراً لهذا الفعل يحدث بعض التغيرات في حياة مجتمع تلك البيئة وكذلك اكتشاف موارد الثروة الطبيعية من بترول ومعادن يؤدي بالضرورة إلى إحداث سلسلة من التغيرات المتابعة نتيجة لهذا العامل الجديد ولعل العلامة ابن خلدون أول من قرر في مقدمته أن للبيئة الجغرافية أثراً في اختلاف البشر جسمياً وعقلياً ونفسياً وخلقياً وإدراكياً، ومع التسليم بأهمية تأثير العامل البيئي في إحداث التغير إلا أنه لا يمكن التسليم بأنه العامل الوحيد لإحداث التغير ولكنه يؤدي دوراً هاماً في تهيئة المجال لعوامل أخرى في التفاعل وإحداث التغير.

ثانياً : العامل السكاني (الديموجرافي):

ويقصد بالعوامل الديموجرافية العناصر المتعلقة بالسكان من حيث أجناسهم وأعدادهم ونسب توزيعهم واستقرارهم أو ترحالهم أو هجرتهم ولا شك أن هذا من العوامل المؤثرة جداً في عمليات التغير بل إن كثيراً من الفروق الاجتماعية الواضحة بين المجتمعات يمكن إسناد السبب المؤثر في حدوثها إلى هذا العامل بنسبة كبيرة، فمثلاً قلة سكان منطقة الخليج العربي جعلته يستقبل أعداداً هائلة من العمالة الأجنبية التي ظهرت آثارها في التغيرات الحادة داخل تلك المجتمعات كما أن السياسات السكانية من حيث خفض عدد

السكان وتنظيم عمليات النسل أو ارتفاع نسبة الوفيات نتيجة لتدني المستوى الصحي أو العكس بارتفاع نسبة المواليد وخفض نسبة الوفيات، كل هذه العوامل ذات تأثير بالغ في التغيرات الاجتماعية سواء كان على المستوى الاقتصادي أو الاجتماعي أو التعليمي أو حتى على مستوى المعيشة بشكل عام (ولا شك أن الانفجارات السكانية الناتجة من الزيادات السكانية المضطردة في عدد سكان الدول النامية، يؤدي إلى عدة نتائج اقتصادية واجتماعية وهذه تؤثر على التغير الاجتماعي)[1]، سواء بالسلب أو الإيجاب، فالدول قليلة السكان كثيرة الموارد تمر بخطط تنموية مكثفة تحتاج إلى جهد أبنائها، وعلى العكس من ذلك في بعض الدول الفقيرة في مواردها الاقتصادية تجد أن خططها التنموية تركز على أن زيادة السكان من معوقات نموها وهكذا نجد أن العامل الديموجرافي من العوامل ذات الآثار البعيدة على عملية التغير الاجتماعي.

ثالثاً : العامل الأيديولوجي:

يعتبر العامل الأيديولوجي عاملاً من عوامل التغير وفي نفس الوقت يعد من العوامل التي يصيبها التغير ويطور أشكالها وصورها، ولقد اختلف الكتاب في تحديد ما هو المقصود بالعامل الأيديولوجي؟، هل هو كل ما يتصل بالنواحي السياسية فقط أم أنه شامل أيضاً للنواحي العسكرية أم يقتصر على النواحي الدينية؟، وهل تدخل القيادات تحت هذا المفهوم، والذي لا شك فيه وخاصة من المنظور الإسلامي أن كل هذه الأمور داخلة تحت مفهوم الأيديولوجية، فالنظرة الإسلامية شاملة لكل أمور الدين والدنيا ولا يحق لمن يلتزم بالفكر الإسلامي أن يبعد جانباً من جوانب الحياة عن الفكر الإسلامي الشامل (وتعتبر الأيديولوجية ـ بهذا المفهوم الشامل ـ قوة فكرية تعمل على تطوير النماذج الاجتماعية الواقعية، وفقاً لسياسة متكاملة تتخذ أساليب ووسائل

---

(١) د. عبد الحميد محمود سعد: دراسات في علم الاجتماع الثقافي ـ مكتبة النهضة الشرق، ص ١٦١.

هادفة، وتساندها عادة تبريرات اجتماعية أو نظريات فلسفية، وأحكام عقائدية، أو أفكار تقليدية. . . ومن هنا ترتبط الأيديولوجية بالحركة الاجتماعية، فهي ليست مجرد مجموعة من الأفكار والمعتقدات والاتجاهات التي تصور جمعاً معيناً من الناس سواء أكان هذا الجمع أمة من الأمم أو طبقة من الطبقات الاجتماعية أو مذهباً من المذاهب، أو مهنة من المهن، أو حزباً من الأحزاب. . وإنما هي حركة فكرية هادفة لها فاعلية إيجابية في البيئة الاجتماعية وفي العلاقات الاجتماعية بما يحدث تغييراً في القيم الاجتماعية وفي النظرة لطبيعة التدرجات الطبقية، والعمليات الاجتماعية المختلفة)[1].

ويمكن أن يشار هنا إلى جانب التبعية السياسية وأثر ذلك في عمليات التغير الاجتماعية، فمن الملاحظ أن معظم البلدان المتخلفة كان مستعمراً ولم تستطع تلك البلاد إدارة شؤونها وتنظيم حياتها بما يتفق مع مصالحها الخاصة وإنما ارتبطت عمليات التغير فيها بمصالح أخرى قد لا تتفق والمصالح الوطنية لتلك البلاد.

كما لا يخفي التأثير المباشر للجيوش الغازية في إحداث التغير أو الثورات الداخلية سواء كانت موجهة من الخارج أو لأسباب داخلية فنسبة كبيرة من الدول النامية لعبت فيها الثورات بأنواعها أدواراً كبيرة غيرت أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية تبعاً للأيديولوجية التي ينطلق منها المخططون لتلك الثورات ولعل الفكر الماركسي يعتبر هذه الثورات وما يسبقها ويتبعها من صراع العامل الحاسم لعمليات التغير الاجتماعي. ويعتبر التغير كما سبق أن اتضح من سياق التعريف به ظاهرة عالمية لدى جميع الأمم إلا أن هذا العامل الأيديولوجي يجعل كل مجتمع يوجه ويفسر التغيرات انطلاقاً من هذه النظرة الخاصة به.

---

(١) د. أحمد الخشاب: التغير الاجتماعي - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ص ٥٧.

رابعاً: العامل الاقتصادي:

يتفق الباحثون على الأثر الهام لهذا العامل في عملية التغير لكنهم يتفاوتون في تقدير هذا الأثر فمنهم من يراه العامل الوحيد المؤثر في عملية التغير إلى من يراه عاملاً عادياً كغيره من العوامل المؤثرة الأخرى الأخرى ومع عدم إنكار الأثر القوي للاقتصاد بعمومه في حياة الأمم في حالة الاستقرار أو حركته، لقد حاول رجال الفكر الماركسي التأصيل لهذا المنحى واعتبار القوة الاقتصادية (بمعناها الشامل لوسائل الإنتاج والاستهلاك وتوزيع الثروة ونظام الملكية) القوة المحركة للمجتمع. إلا أن علم الاجتماع لا يقبل بالتفسير الوحيد لأي ظاهرة اجتماعية بحكم تداخل البناء الاجتماعي وتبادل التأثير بين الأفراد والجماعات من خلال الأدوار التي تؤدي داخل الأنساق الاجتماعية وتأثر بعضها بالتغيرات التي تحدث داخل البعض الآخر.

ويمكن القول أن العامل الاقتصادي ازدادت أهميته كعامل للتغير الاجتماعي من خلال بروز الفوارق الكبيرة بين المجتمعات النامية والمجتمعات المتقدمة مما جعل القوة الاقتصادية ورقة رابحة في أيدي الدول المتقدمة تساوم بها الشعوب في قبول أفكارها وأيديولوجياتها أو التنازل عن بعض ما تطالب به من حقوق مقابل ما يقدم لها من قروض أو إعانات تمول مشاريعها التنموية أو حتى تسد به جوعها في بعض الأحيان، كما أن الدول النامية ذات المستويات الاقتصادية العالية استطاعت استغلال تلك القوة الاقتصادية في مشاريع كبيرة كان لها الأثر الكبير في التغيرات المختلفة داخل مجتمعاتها، وهذا يظهر بوضوح التأثير القوي للاقتصاد كعامل من عوامل التغير. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك ترابط بين التنمية الاقتصادية والتغيرات الاجتماعية حيث يؤثر كل منهما في الآخر وحسب الخطط المرسومة للتنمية يكون التوجيه للتأثير المراد فقد يترك المجال أمام النمو الاقتصادي يؤثر في القيم الاجتماعية ويبدلها ويزيل بعضها، وقد يحكم المخطط هذا الجانب ويوجه النمو الاقتصادي لخدمة قيم

المجتمع وترسيخها وجعل التنمية عملاً متناسقاً لا يؤثر النجاح في بعض الجوانب إلى التردي والسقوط في الجوانب الأخرى.

خامساً: عامل التعليم:

يعتبر التعليم بحق وسيلة وغاية (إن صح التعبير) فأهميته ليس مجالاً للنقاش بحكم الاتفاق العالمي على أهميته لكن الأمر الذي قد يكون في حاجة إلى تأكيد هو أن التعليم مع تلك الأهمية الكبرى له يعتبر أيضاً وسيلة لكل نمو وتطور في المجالات الأخرى من حياة الناس فكثير من المشاريع التنموية التي يراد بها مصلحة الأفراد والجماعات ينفق عليها ويعتني بها وتقدم بشكل جيد وقد يحرم الكثيرون منها بحكم فقدانهم للمعرفة فالأمية تعتبر بحق من أكبر عوائق تنمية البلاد المتخلفة فالتعليم عامل مشترك لكل خير يراد تقديمه وفقدانه يكون حائلاً دون وصول الخير للناس ومن الآثار الواضحة لتأثير التعليم كعامل من عوامل التغير الاجتماعي أن مستويات الشعوب في النواحي الصحية والوقائية والتربوية والسلوكية تكون في مستويات متخلفة جداً بفقدان التعليم وتبدأ بالنمو مع نمو التعليم.

لذا أصبح الاتفاق العالمي على أهمية محاربة الأمية واقعاً ملموساً لأنها الوعاء الأكبر للتخلف وعند التحرر منها يمكن للشعوب أن تنطلق نحو النمو وقد أتيحت خلال الفترة الأخيرة من هذا القرن فرص كبرى لإعداد عريضة من سكان الأرض للحصول على التعليم بمختلف مراحله وأنفقت الدول المختلفة نسباً كبيرة من ميزانياتها على المشاريع التعليمية وساهمت مراكز البحوث والجامعات في دراسة أوضاع كثيرة من المجتمعات ورسمت لها أفضل الأساليب لتحقيق أعلى مستوى ممكن من التعليم وبأيسر السبل والمناهج ولا تزال الدراسات التربوية جادة في تحقيق مستوى تعليمي أفضل للقاعات العالمية بأهميته في ذاته وبأهميته كوسيلة لغيره من الجوانب الهامة في حياة المجتمع (فالتنمية الاجتماعية والاقتصادية تعتمد ـ إلى جانب ما تعتمد عليه من

رأس المال المادي ومعدات الإنتاج وأدواته ـ على رأس المال البشري وإعداده وتأهيله بالمعارف والمهارات والاتجاهات والقيم حتى يستطيع أن يخوض معركة الإنتاج أكثر قدرة وكفاءة وأكثر إيماناً واقتناعاً وأكثر رغبة لخلق التقدم ورفعه، وأكثر قدرة على تسييره وتحسينه. وأصبح بذلك العائد الاقتصادي من التعليم مجال دراسة لدى علماء التربية وعلماء الاقتصاد وأسهم كل من الفريقين في البحوث الخاصة به... لقد أصبحت تنمية رأس المال البشري من أهم الدعامات التي يقوم عليها تقدم الدول المعاصرة)[١] وتجدر الإشارة إلى أنه لا ينبغي أخذ التعليم كعامل مؤثر في التغير فقط بل إنه يتأثر أيضاً ببقية العوامل الأخرى كالاقتصاد والأوضاع الاجتماعية المختلفة.

سادساً : العامل التكنولوجي:

(ويقصد به كل العوامل التي هي من ابتكار الإنسان للعمل على إشباع حاجاته المختلفة، فاختراع أو اكتشاف أية وسيلة من وسائل الأشباع الجديدة لها آثارها الكبيرة على التغير الاجتماعي)[٢].

ويرى بعض الباحثين أن العامل التكنولوجي هو المؤثر الوحيد في عملية التغير، وسبق أن استبعد هذا الرأي كما مر من أن العامل الوحيد لا يمكن أن يحدث التغير منفرداً لكن هذا يؤكد على الأهمية التي لاحظها الباحثون لتأثير التكنولوجيا في الإسراع بعملية التغير الاجتماعي فالملاحظ أن المجتمعات سريعة التغير تتميز بقدرتها على تقبل الأنماط التكنولوجية والاختراعات المادية مما يوضح العلاقة القوية بين التطور التكنولوجي والتغير الاجتماعي ويمكن ملاحظة نوعين من الآثار للمخترعات التكنولوجية.

أولاً : آثار مباشرة تتحدد في الآثار التي تعود على جمهور المستفيدين من

---

(١) د/ محمد لبيب النجيحي: التربية وبناء المجتمع العربي، الأنجلو المصرية.

(٢) د. أحمد الخشاب: التغير الاجتماعي ـ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ص ٦١.

هذه المخترعات في عاداتهم وسلوكهم المتعلق بتلك المخترعات كوسائل المواصلات والتعامل معها وآثارها على المواعيد والأوقات التي كانت تذهب كزمن للاتصال وما يترتب من زيادة في الرفاه وتوفر الوقت.

ثانياً : آثار غير مباشرة وهي ما يعود على جمهور المنتجين للوسائل القديمة التي تسبب الاختراع الجديد في تعطيل نسبي أو كلي لتلك الصناعة القديمة وكذلك بالنسبة للخبرة الفنية التي تكتسب من خلال التعامل مع هذه المخترعات الجديدة مما يغير من ثقافة المتعاملين معها وبالتالي في سلوكهم الاجتماعي نحوها.

ومن الأمور التي ينبغي الإشارة إليها هنا العلاقة بين (التقدم التكنولوجي والتقدم في التنظيم الاجتماعي الذي يعتمد على التساند بين أجزائه المختلفة والتنقل الكبير لأعضاء المجتمع من حيث الإقامة والمهنة وما يترتب على ذلك من ظهور أنساق قانونية أكثر أحكاماً وقوى سياسية واقتصادية أكثر تركيزاً . وإننا لنلاحظ أن ظهور هذه التنظيمات يؤدي إلى ذبذبات بعيدة المدى في كل ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية)[1] والأمر الذي لا يدخله الشك أن الآثار للتطور التكنولوجي في الفترة الأخيرة أظهرت كثيراً من التغيرات في حياة الناس الاقتصادية والاجتماعية بشكل ملحوظ.

ولعل من أهم التغيرات التي حدثت نتيجة للعامل التكنولوجي هو إقدام المرأة على دخول ميدان العمل بعد التطور الصناعي الكبير في أوروبا والحاجة الماسة إلى اليد العاملة بأجور رخيصة، وقد ترتب على ذلك آثار كبيرة خاصة في العلاقات الأسرية، فقد تغير مركز الزوج والزوجة نتيجة لتغير الأساس الاقتصادي الذي تقوم عليه الأسرة، وقل الدافع الاقتصادي للزواج عند النساء، وتغيرت السلطة التقليدية للرجل عامة، وأصبحت محل منافسة، وزادت نسبة

---

(١) د. محمد عاطف غيث: التغير الاجتماعي والتخطيط ـ دار المعارف ١٩٦٦ م ص ٨١.

الطلاق والتصدع الأسري نتيجة لعدم مسايرة العلاقات الأسرية للتغير الذي حدث لأدوار الأعضاء ومراكزهم، وزادت الرغبة في تحديد النسل لانشغال المرأة بالعمل خارج المنزل من ناحية، وللرغبة في الاحتفاظ بمستوى اقتصادي لائق من ناحية أخرى. وليس معنى هذا أن هذه التغيرات السابقة حدثت جميعاً نتيجة مباشرة للتغير التكنولوجي. إذ يجب الا ننسى أثر التغير الأيديولوجي في تغير مركز المرأة وخاصة في النواحي المتعلقة بالمساواة في الحقوق والواجبات مع الرجل، كما أن زيادة مشاركة المرأة للرجل في الإنتاج وأهميتها المتزايدة في بعض نواحيه وفي الخدمات، أدى إلى اعتراف المجتمع بدورها ومسئوليتها ومن ثم بمساواتها التامة مع الرجل، ولكن كثيراً من الباحثين في شؤون الأسرة يخشون أن تؤدي هذه المساواة والإمعان في تطبيقها إلى تهديد مباشر لعلاقات الإنجاب والتنشئة الاجتماعية للأطفال في المرحلة التي يحتاج فيها هؤلاء إلى الأم التي يجب أن نعترف بدورها المتميز عن دور الرجل وخاصة في هذه الناحية الهامة، إن دور الحضانة أو المربيات لا يمكن أن يقدمن للطفل ما يمكن أن تقوم به أكثر الأمهات جهلاً وإهمالاً[1] ولا يخفى أن هذا التغير التكنولوجي أدى في أوروبا بشكل خاص إلى هذا التأثير الكبير على الأسرة لأسباب خاصة بها لا تنطبق على المجتمعات الإسلامية وإن كانت هذه المجتمعات بدأت تتأثر في تكوينها الأسري لكن ذلك لا يعني التشابه في الظروف فمن الأسباب الخاصة بالأسرة في أوروبا التصور الأيديولوجي لمكانة المرأة عندهم، وكذلك الاعتماد على رغبة الغالبية من أفراد المجتمع في تحديد مشروعية السلوك وما قبله من محددات الاتجاه وعدم الانطلاق من قيم ثابتة في هذا الشأن، ولا شك أن هذه الأمور ليست موجودة لدى المسلمين وبشكل خاص في الجوانب الفكرية أو ما ينبغي أن يكون عليه المجتمع المسلم وذكرت هذا الاحتراز الأخير لتلافي ما يُظن من أن واقع بعض المجتمعات الإسلامية المتردية صالحة لإصدار الأحكام على الإسلام فالإسلام

---

(١) د. محمد عاطف غيث: التغير الاجتماعي والتخطيط ص ٨٦.

الصحيح كما أنزل على الرسول ﷺ شيء وممارسات المسلمين اليوم في كثير من مجتمعاتهم - إلا ما رحم ربي - شيء آخر والمقياس الصحيح الذي ينبغي أن نقيس به تطابق سلوكنا مع الإسلام هو الإسلام الصحيح ليس الممارسات الواقعة فعلاً وليست آراء المسلمين الشخصية مقاييس صحيحة بالضرورة ما لم تتطابق تلك الآراء مع رأي الإسلام الصحيح الذي ورد في القرآن الكريم الثابت السند إلى الله سبحانه وتعالى. والمتحدي به، وسنة المصطفى المعصوم الذي بلغنا القرآن الكريم ومثله معه والذي ثبتت لنا عصمته ﷺ من الخطأ. والتقدم التكنولوجي واختراع الأجهزة الحديثة والتخصص في إدارتها وتوزيعها أصبح يشكل قدرة وقوة للدول التي تمكنت منه وأصبح وسيلة من وسائل التسلط والسيطرة على القوة الاقتصادية أولاً ثم التبعية الثقافية الناجمة عن الاعتماد على التكنولوجيا والأجهزة المستوردة مما يجعل الدول النامية في موقف حرج يشكل خطراً على عقائدها وأفكارها وقيمها وكل موروثاتها الثقافية وبالتالي على بنائها الاجتماعي بكامله مما يجعل هذا العامل من أبرز عوامل التغير الاجتماعي الظاهر.

عامل الاتصال:

(نستطيع أن نقرر ابتداء - ومع غالبية الباحثين - أن المجتمع الإنساني لا يستطيع الحياة دون اتصال، كما أن الاتصال لا يمكن أن يحدث إلا داخل ومن خلال نسق اجتماعي)[1]. ومن الملاحظ في حياتنا المعاصرة أن دور وسائل الإعلام بدأ يتعاظم، ما ترتب على تعاظمه هذا، جوانب نلمسها ونلمس آثارها في مجال العمل، والبيت، والشارع، ومكان الترويح. وفي ضوء تعاظم هذا الدور، يذهب البعض إلى أن التغير الثقافي ما هو إلا ثمرة من ثمرات وسائل الإعلام وإن دلَّ ذلك على شيء، فإنما يدل على خطورة الدور الذي تلعبه هذه الوسائل ما بين مكتوب منها ومسموع ومرئي... وتتضح نتائج وسائل الإعلام

---

(١) د محمود عودة. أساليب الاتصال والتغير الاجتماعي - دار النهضة العربية ص ٦١.

في تغيير بعض الأنماط السلوكية وطرز الزي أحياناً كثيرة، وإكساب عادات جديدة هي غالباً عادات الطبقات الأعلى، ونجوم المجتمع. وتجدر الإشارة هنا إلى أن العبرة ليست بوسائل الإعلام بقدر ما هي بالمادة التي تقدم من خلال الوسيلة. وعلى ذلك تحمل هذه المادة بصمات المشرفين على هذه الوسائل والقائمين عليها، فهي إذاً تعكس نسق الاعتقاد السائد عندهم. وليس هذا القول بغريب، فإذا ركزنا على التلفزيون على سبيل المثال ـ وجدنا أن البرامج التي يقدمها المذيعون تحفل دائماً بفقرات موضوعات الزي والطعام والعادات والتقاليد وشتى موضوعات الحياة الاجتماعية[1] وهذا يظهر الأثر البالغ لأهمية الاتصال وقدرته التأثيرية على قيم واتجاهات الأفراد من خلال تعاملهم الاجتماعي المستمر، وقد وظف الاتصال في أمريكا لإذابة الجماعات المختلفة والعديدة المهاجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فكان من مهامه إذابة هذه الجماعات في النسق الاجتماعي الأمريكي ولم يكن الاتصال أو وسائل الإعلام بشكل خاص لتنال هذه الثقة لولا القدرة التأثيرية الكبرى التي تتمتع بها مما ترتب عليه تكليفها بهذه المهمة، ومن ثم ظهرت آثار هذه القدرة بنمو المجتمع الأمريكي بأعداد وافرة وعقول وافدة لم يتكلف كثيراً في إيجادها وإنما أتته مهاجرة من مختلف المجتمعات وقام الإعلام الأمريكي بوظيفته هذه وأوجد في وجدانهم الولاء لمجتمعهم الجديد، وهذا نمط جدير بالدراسة الجادة للاستفادة منه في البلاد الإسلامية والخليجية بشكل خاص حيث يتواجد في هذه البلاد أعداد كبيرة من الوافدين للعمل، ويمكن أن يتوجه الإعلام إليهم برسائل خاصة تهدف إلى دعوتهم للإسلام وإقناعهم بمبادئه العظيمة، لا من منطلق الإعلام الأمريكي والذي يهدف للمصلحة الأمريكية فقط وإنما بهدف إنقاذ هذه الأعداد الكبيرة من الضلال الفكري الذي يعيشون فيه وكسبهم للأمة المسلمة وإنقاذهم من النار. فالإعلام في البلاد العربية والإسلامية ينبغي أن يحتوي في رسائله على توجهات جديدة إلى غير المسلمين الذين يعيشون في

---

(١) د. عبد الله الخريجي: التغير الاجتماعي والثقافي ـ رامتان جدة ص ٣٢٨.

المجتمعات الإسلامية للتأثير فيهم ونقلهم إلى عقيدة الإسلام بدلاً من التأثر بفكرهم ونقل عاداتهم وقيمهم الغربية عن مجتمعاتنا، بل إن هذه الأعداد الكبيرة من الوافدين تشكل في بعض بلاد المنطقة غالبية في السكان[1] مما يجعل التوجه إليهم أمر استراتيجي للمحافظة على أمن البلاد وإلا أصبح وجودهم مصدر خطر وقلق لا على قيم الأمة فحسب بل على وجودها عامة وليست هذه مسؤولية الإعلام وحده ولكنه أكبر العوامل المؤهلة لدخول هذا المضمار الجديد من الاهتمامات الإعلامية.

الأسس النفسية والاجتماعية للتغير:

إن التغير الاجتماعي أصبح من الأمور الثابتة والظواهر التي لا يحتاج إثباتها إلى أدلة كثيرة حيث إن هذه الظاهرة يدركها الباحث المتخصص ويدركها الإنسان العادي إذا أمعن نظره في أحوال المجتمعات من حوله. إلا أن معرفة الأسس التي تتم عليها تلك التغيرات في النفس الإنسانية وفي المجتمعات البشرية لا يزال يكتنفها كثير من الغموض والخفاء، وليس ذلك الغموض والخفاء من نصيب عامة الناس فقط، بل إن بعض الباحثين والمهتمين بدراسات التغير على جانب من ذلك الغموض الكلي أو الجزئي، وما ذلك إلا بسبب الاختلاف المنهجي في البحث، فإذا كانت المنطلقات مختلفة فلا غرابة إذا اختلفت النتائج.

فإذا كان بعض الباحثين ينطلق من مسلمات ترى أن القيم الاجتماعية مصدرها الفرد ستكون نظرته مختلفة ـ كثيراً أو قليلاً ـ عن النظرة الأخرى التي ترى المجتمع صانع تلك القيم، وسيختلف الإثنان عن نظرة من يرى أن مصدر تلك القيم من خارج الفرد والمجتمع.

---

(١) تشكل نسبة العمالة الوافدة في دولة الإمارات العربية المتحدة (٨٢,٥ ٪) من السكان.

انظر: د. عبد الله السلطان: المحاضرة السابعة في الموسم الثقافي الأول بالمركز العربي للدراسات الأمنية بالرياض تحت عنوان (العمالة الأجنبية والأمن).

ومـع هـذا الاختـلاف أمـور هـامـة بين البـاحثين إلا أن الجميـع ـ تقريباً ـ يدرك أهمية النفس الإنسانية وتأثيرها في التغير والثبات وكذلك الواقع الاجتماعي ومستوى التماسك بين أفراد ذلك المجتمع.

ولذلك ندرك أن الأسس النفسية للتغير الاجتماعي موضوع بحث لدى دارسي التغير يصلون فيها إلى نتائج توضح الأهمية الكبيرة التي تنالها تلك الأسس لدى الباحثين.

فالمعلومات التي تفتبر أساساً للأفكار تدرك من قبل الفرد وتخضع تلك العملية (الإدراك)، في المراحل المختلفة التي تمر بها لظروف نفسية لدى الفرد وظروف اجتماعية يكون لها تأثير كبير في تحقق الإدراك وما يتبعه من مراحل تكوين المعرفة، (بعد ذلك قد يقوم العقل بتخزين هذه المعلومات الجديدة لدعم وتأكيد معلومات واعتقادات سبق تخزينها أو الإضافة إليها، ومن ناحية أخرى، فقد يقوم العقل بتغيير الاعتقادات والآراء السابق تخزينها بناء على هذه المعلومات الجديدة)[1] فهذه هي العملية التي تتم بواسطة العقل البشري لتكوين ودعم وتصحيح المعلومات عن الأشياء أو الأشخاص والمواقف وتخزينها في الذاكرة لاستخدامها عند الحاجة إليها في مواقف مستقبلية.

فالإدراك عملية عقلية تخضع لأسس نفسية متغيرة تؤثر في مستواه سواء كان الفرد يقوم بعملية اتصال ذاتي أو يتصل مع غيره وسواء كان في دور المرسل أو المستقبل (والعوامل النفسية هي متغيرات وعوامل سيكلوجية ذات دلالة وتؤثر على الاستجابة لعملية الاتصال وبالتالي على السلوك، وترتبط هذه العوامل بأنماط الحياة التي تنمو من خلال عضوية الجماعات، والخلفيات الثقافية للأفراد، وأنواع ومستويات التعليم)[2]. وهذه العوامل وإن لم تكن من مكونات النفسية الفردية لكنها جزء من المحيط المؤثر في الفرد ومدى

---

(١) د. فرج الكامل: تأثير وسائل الاتصال: دار الفكر العربي ط أولى ١٩٨٥ م ص ١٣.

(٢) د. سمير حسين: الأعلام والاتصال بالجماهير والرأي العام: عالم الكتب ط ١ ص ١٩٨٤ ص ١٣٦.

استجابته للمثير ومن ثم الإدراك والتأثر (وقد استخلص علماء النفس أن عملية الإدراك ليست عملية تحويل المنبهات إلى مضامين ذهنية مطابقة لها تماماً).

ذلك لأن الرسالة التي يتم استقبالها يتم ربطها بالرسائل الأخرى المشابهة التي تم استقبالها في الماضي، وبالرسائل والمواد الأخرى المتصلة بالشيء أو الشخص أو الموقف. هذه المعلومات كلها تستخدم في عملية تفسير وفهم الرسالة الجديدة. وكنتيجة لذلك فإن الفرد قد يهمل أو يركز على بعض أجزاء الرسالة دون غيرها، كذلك فإنه يقوم بعملية الربط ووضع المعلومات الجديدة في أنماط معينة ومن ثم فإن الرسالة التي ينتهي الأمر بالفرد أن يستقبلها قد تكون مختلفة تماماً عن الرسالة التي يستقبلها فرد آخر تعرض لنفس المنبه)[1] وهذا يوضح مدى استقلالية الفرد في إدراكه لمختلف المنبهات وما ذاك إلا بسبب اختلاف التكوين النفسي من فرد لآخر ومع هذا الاختلاف النفسي بين الأفراد فإن المسؤولية الفردية في الإسلام تبنى على أساس أن الفرد مسؤول عن صلاح نفسه وفسادها بل إن الخير والشر في مستقبله مرتبط بإصلاح نفسه أو إهمالها وتركها ﴿**قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ **فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾[3] وهذه المسؤولية الفردية الملقاة على عاتق كل فرد من أفراد المجتمع لا تعفيه من المسؤولية الاجتماعية العامة حيث أن صلاح المجتمع يتطلب الجهد الجماعي ولا يكفي فيه مجهود الأفراد المنعزلين عن بعضهم بل إن صلاح الأفراد وحده لا يكفي ما لم يكن لديهم وضوح رؤية لمعنى تماسك البناء الاجتماعي على أسس سليمة ومعرفة السنن الاجتماعية التي جعلها الله سبباً

---

(١) د. فرج الكامل : تأثير وسائل الاتصال، مرجع سابق ص ٤٧ .

(٢) سورة الشمس آية: ٩ ـ ١٠.

(٣) سورة طه آية: ١٢٣ ـ ١٢٦.

لقوة المجتمع وتمكينه أو ضعفه وهلاكه، قال تعالى:

لقوة المجتمع وتمكينه أو ضعفه وهلاكه، قال تعالى: ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ إن التفسير الحقيقي لهذه الآية يرينا (العوامل الحقيقية التي تؤدي إلى تماسك الأمة أو تسبب في انحلالها، وإننا الآن نعلم أن الطريقة الوحيدة لضمان استمرار نعم الله هي اتباع الطريق الذي اختاره الله لعباده وأية أمة تنحرف عن الطريق من المؤكد أنها سوف تصاب بالضعف إن لم تصب بالهلاك التام. ولن تستطيع أي ثروة أو أي معرفة دنيوية أو قوة مادية ـ من أي نوع أن تنقذها من ذلك المصير المحتوم)[1] إن الجسم الاجتماعي أو كيان الأمة يخضع لقوانين يمكن كشفها وتسخيرها لصالح المجتمع... إن الذي عرف قوانين المجتمع، يمكن أن يستخدم وسائل مختلفة لقياس صلابة المجتمع، وسلامة شبكة علاقاته، كما يمكن أن يستعين بمختلف التحاليل التي يجريها على الأحكام التي يصدرها المجتمع على تفسير الأحداث ليحدد نوع الخلل الذي يعانيه المجتمع. إن الخبير بسنن المجتمعات، يمكنه أن يدرك ويتخذ إجراءات في تغيير نظرات المجتمع، ويفرض نظام الحمية على الأغذية الفكرية التي يتناولها، لما تحمل هذه الأغذية من جراثيم فكرية تعطل قوى المجتمع وتماسكه. وكما يمكن استخدام الحجر الصحي لإيقاف الأوبئة في مستوى المرضى الصحي، يمكن استخدامه في مستوى المرضى الاجتماعي، كما يمكن إعطاء اللقاحات والمناعات الفكرية ضد أفكار مرضية)[2].

ندرك أن الأسس التي يقوم عليها التغير في الأنفس وفي المجتمعات بينها من الترابط والتداخل الشيء الكثير لكن لكل منها استقلالها وتميزها وإن كان التأثير التبادلي بينها حقيقة ملموسة فصلاح الأفراد واستقامتهم على قيم وقوانين

---

(١) د. جعفر شيخ إدريس: منهج التحول إلى الإسلام: بحث منشور في مجلة المسلم المعاصر عدد ١٨ سنة ١٣٩٩ هـ ص ٩.

(٢) جودت سعيد: حتى يغيروا ما بأنفسهم. الطبعة ٣ سنة ١٣٩٧ هـ ص ١٩.

مجتمعهم تؤدي إلى تماسك ذلك المجتمع أو تكون أحد أسباب تماسكه كما أن التماسك الاجتماعي يؤدي إلى صلاح الأفراد وقوتهم.

إن النفس الإنسانية مدخل هام وأساس لكل تغير سواء على مستوى الفرد أو مستوى الجماعة وإن معرفة العوامل التي تؤثر في «إدراك» الأفراد للمعلومات وللتنبيهات الاجتماعية المتعددة التي يتلقونها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، تؤثر وتشكل استجاباتهم ومشاعرهم المختلفة، وبالتالي تؤثر في كفاءة التفاعل الاجتماعي بين الأفراد، وفي وجهة التأثر بالآراء والأفكار، وفي أنماط السلوك التي يمكن أن تصدر عنهم استجابة لما يدركون من خلال مواقف التفاعل الاجتماعي)[1] وإذا كان هذا دور النفس الواحدة أو الفرد داخل المجتمع فإن مسؤوليته الفردية يضاف إليها واجبه التضامني مع الآخرين من أفراد مجتمعه الذين يتبادل معهم التأثر والتأثير.

وعندما نلاحظ تميز المجتمع المسلم عن غيره من سائر المجتمعات الإنسانية بمصادره الدينية المختلفة عن كل ما لدى المجتمعات فإن مسؤولية هذه الخصوصية الدعوة إليها والأمر بها والتفاعل مع المجتمع بناء عليها (وبنو آدم لا يعيشون إلا باجتماع بعضهم مع بعض، وإذا اجتمع اثنان فصاعداً فلا بد أن يكون بينهما ائتمار بأمر وتناه عن أمر)[2] ولا شك إن ذلك الأمر يكون بالمعروف وأن ذلك النهي يكون عن المنكر لأدلة الشريعة من القرآن والسنة الموجبة لذلك. فلا صلاح للمجتمع إلا بوجود ذلك الواجب ولا فساد في المجتمع إلا عند التهاون في القيام به ونظراً لاتساع المجتمعات وسهولة الاتصال وكثرة المؤثرات فإن التداخل بين المعروف والمنكر واختلاط الأمور

---

(١) د. عبد الحميد محمود السيد: علم النفس الاجتماعي والإعلام: دار الإصلاح للطباعة والنشر، الدمام ص ١٤٠.

(٢) شيخ الإسلام ابن تيمية: الاستقامة الجزء الثاني الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ص ٢٩٢.

في تميز المنكر من المعروف بل وانقلاب المنكر لدى البعض إلى معروف وبالعكس أصبح واضحاً جلياً، مما يوجب التبصر والنظر بمقاييس صحيحة لا تخطىء، ولا مقاييس عندنا غير مقاييس الشريعة (وجماع ذلك داخل في القاعدة العامة فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد، والحسنات والسيئات، أو تزاحمت، فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد وتعارضت المصالح والمفاسد فإن الأمر والنهي ـ وإن كان متضمناً لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة ـ فينظر في المعارض له. فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر، لم يكن مأموراً به، بل يكون محرماً إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته... لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة، فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها، وإلا اجتهد رأيه لمعرفة الأشباه والنظائر وقل أن تعوز النصوص من يكون خبيراً بها وبدلالتها على الأحكام)[1].

وكما أن بني آدم لا يعيشون إلا باجتماع بعضهم مع بعض، فإن الأمر والنهي من لوازم وجودهم، فمن لم يأمر بالمعروف الذي أمر الله به ورسوله وينه عن المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله وإلا فلا بد من أن يأمر وينهي، ويؤمر وينهى: أما بما يضاد ذلك، وإما بما يشترك فيه الحق الذي أنزله الله بالباطل الذي لم ينزله الله، وإذا اتخذ ذلك ديناً كان ديناً مبتدعاً ضالاً باطلاً... فمن لم تكن نيته صالحة وعمله عملاً صالحاً لوجه الله وإلا كان عملاً فاسداً أو لغير وجه الله وهو الباطل كما قال تعالى: ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ (سورة الليل: آية ٤)[2] وهذا الباطل إذا انتشر في الأمة ولم تتصد له بالأمر بالمعروف ومحاربة المنكر والتصدي له أوشك الله أن يعمها بعذاب من عنده وتلك سنة الله

---

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: دار الكتاب الجديد: بيروت الطبعة الأولى سنة ١٣٩٦ هـ ص ٢١.

(٢) شيخ الإسلام ابن تيمية: الاستقامة مرجع سابق ص ٢٩٤ جـ ٢.

الماضية ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وهذه السنة لا تخص المسلمين دون غيرهم بل هي سنة الله في كل المجتمعات كلما أهلك الله أمة من الأمم الماضية ذكر سبب هلاكها وأنذر بها وذكر بالسنة الكونية الماضية، بل وفي مجال تحذير أهل المدينة في مجتمع الرسول ﷺ ورد التذكير بتلك السنة في قوله تعالى: ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض. والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً، ملعونين أينما ثقفوا، أخذوا وقتلوا تقتيلاً، سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾[1]. فسنة الله ماضية بإهلاك المجتمعات التي تكون نفوس أفرادها بعيدة عن مراد الله ومنطوية على خداع الله وخداع المؤمنين.

فبناء المجتمعات وتأسيسها مبني على صلاح نفوس الأفراد وتربيتهم على الاستقامة على منهج الله وإن الانحراف الذي يصيب الأفراد بتغير ما في نفوسهم لا يكون عقابه فردياً يوم القيامة وحسب بل يعجل الله العقوبة للمجتمع كله ولذلك كان جواب الرسول ﷺ عندما سئل أنهلك وفينا الصالحون قال نعم إذا كثر الخبث.

فخبث النفوس وفسادها مؤذن بهلاك المجتمع، وتلك سنة الله الماضية ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

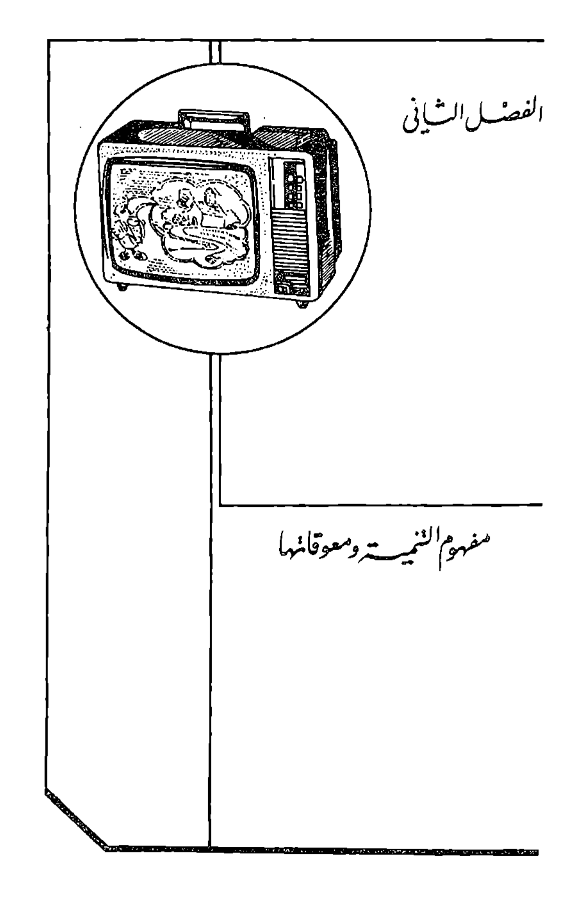
ومن الأمور التي جعلها أساساً لاستقرار المجتمعات العدل (فأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم: أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم: ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة: ويقال الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام. وقال النبي ﷺ: «ليس ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم» فالباغي يصرع في الدنيا وإن

(١) سورة الأحزاب آية: ٦٠، ٦٢.

كان مغفوراً له مرحوماً في الآخرة وذلك أن العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها من الإيمان ما يجزي به في الآخرة)[1].

(١) ابن تيمية، الفتاوي المجلد الثامن والعشرون ط ١ ص ١٤٦.





الفصل الثاني

مفهوم التنمية ومعوقاتها



الفصل الثاني

مفهوم التنمية ومعوقاتها

إن لفظ التنمية من الألفاظ التي استعملت بشكل واسع على جميع المستويات وفي كل المجتمعات المتقدمة والمتخلفة على حد سواء وجعلت في الأحاديث العامة والخاصة هدفاً للجميع لكن الملاحظ أن التنمية مع هذا الشيوع والانتشار للفظ ا لا تزال تحاط بكثير من الغموض، فليس هناك اتفاق على مدلولها ولعل الدعاية القوية التي صاحبت وتصاحب المشاريع التنموية ذات دور في تعلق الأفراد بها كهدف دون تعمق في مدلولها.

وهذا الغموض في معنى التنمية ليس مقصوراً على الأفراد بل إن بعض الجهات الرسمية على المستوى المحلي أو المستوى العالمي تعرف التنمية بتعريفات متعددة توحي بشيء من الغموض وربما كان التركيز على أهداف معينة في بعض الأوقات سبباً في هذا.

وليس من أهداف البحث الرئيسية دراسة التنمية الاجتماعية بعمومها وإنما سيتناولها البحث بصفتها نوع من التغير الاجتماعي الذي هو أحد الأهداف الرئيسية لهذه الدراسة.

والتعريفات التي وضعت من قبل الباحثين والدارسين ـ أفراداً أو جماعات ـ يظهر عليها كما أشرت التركيز في التعريف على الهدف الخاص من الدراسة ووضوح ذلك الهدف في كلمات التعريف بشكل جلي بينما تترك جوانب هامة في التنمية لا يتناولها التعريف.

وليس غرض البحث من استعراض بعض التعريفات الموضوعة للتنمية تبنى تلك التعريفات، خاصة وأن معظمها يركز على الجوانب الهامة في ذهن الدارس وتهمل ـ بقصد أو بغير قصد ـ جوانب أخرى من أهداف التنمية، وليس الغرض أيضاً النقد لتلك التعريفات بقدر ما هو محاولة إيضاح مفهوم التنمية بشكل يزيل اللبس في مفهومها والذي اختلط بعدد من مفاهيم التغير.

فالتنمية، والتنمية الاجتماعية، والتنمية الاقتصادية، والنمو، والتغير الاجتماعي، والتغير الاجتماعي، والتغير. هذه المجموعة من المصطلحات تتداخل فيما بينها في تعريفات الدارسين لها، وفي فهم المهتمين بها، وإيضاحها أو إيضاح التشابه والاختلاف بينها ضروري للوصول إلى تعريف واضح للتنمية والتعرف على أصل المصطلح في اللغة يساعد على ذلك.

التنمية في اللغة:

إن الأصل اللغوي للفظ تنمية مأخوذ من: نما[1] ينمو نمواً، زاد والخضاب ازداد حمرة وسواداً. ومن نمى نَمياً ونُمياً وأنمى النار رفعها وأشبع وقودها. فالنمو يعني الزيادة، وإذا دخل فعل البشر في ذلك فهو تنمية. فهذا العود اليسير إلى أصل الكلمة يفرق بين النمو والتنمية إذ تميزت بفعل الفاعل.

وتركيز بعض الباحثين حسب تخصصه واهتماماته وأهداف بحثه على جوانب معينة في التنمية تجعله يصف التنمية بما يشعر بهذه المسميات الخاصة، كالتنمية الاجتماعية أو الاقتصادية أو البشرية ونحوها وهذه جوانب خاصة من التنمية تختلف عن مفهوم التنمية الشاملة والتفريق بينها وبين تلك الجوانب الخاصة من التنمية أمر واضح بوصفها المميز ومن المصطلحات التي فيها شيء من اللبس مفهوم التنمية والتغير الاجتماعي واستعمال أحدهما مكان الآخر شائع بين الباحثين، وهما وإن كان بينهما عموم وخصوص حيث إن كل تنمية هي تغير بالضرورة إلا أن العكس لا يتحقق دائماً (فالتنمية هي الجهود

---

(١) الفيروز آبادي: القاموس المحيط، المجلد ٤ ص ٤٠٠.

المنظمة التي تبذل وفق تخطيط مرسوم للتنسيق بين الإمكانيات البشرية والمادية المتاحة في وسط اجتماعي معين، بقصد تحقيق مستويات أعلى للدخل القومي والدخول الفردية، ومستويات أعلى للمعيشة والحياة الاجتماعية في نواحيها المختلفة كالتعليم والصحة والأسرة والشباب ومن ثم الوصول إلى تحقيق أعلى مستوى ممكن من الرفاهية الاجتماعية)[1] بينما إن التغير يطلق على كل الاختلافات التي تطرأ على أي ظاهرة من الظواهر الاجتماعية خلال فترة معينة من الزمن (فالتنمية ما هي إلا تغير اجتماعي مخطط ومقصود يراد من إدخال أفكار جديدة على النسق الاجتماعي الموجود لإحداث تغييرات أساسية في تركيبه بهدف تحسين الحياة وتطويرها في مجتمع ما والوصول إلى خيره ورفاهيته)[2].

فالإيجابية في التنمية وتحقيق مصالح المجتمع من خلال التغيرات المقصودة من خصائص التنمية المميزة لها عن التغير الاجتماعي الذي قد يكون حاملاً للنتائج السلبية نظراً لعدم خضوعه للتخطيط والتنظيم، بل أكثر من ذلك إن التغيرات السلبية قد تكون من عوائق التنمية نفسها فالتغيرات الاجتماعية الناتجة عن التغير الثقافي المفتوح والانتشار للثقافات المختلفة ليس بالضرورة متمشياً مع أهداف التنمية المخطط لها فيصبح التغير بهذا الوصف عائقاً من عوائق التنمية.

ونستطيع بعد هذه المقدمة أن نقدم تعريفاً للتنمية نحسبه جامعاً للخصائص المميزة للتنمية عن أنواع التغيرات المختلفة مانعاً لتلك التغيرات الأخرى من الدخول مع التنمية في تعريفها: «فالتنمية هي الجهد المنظم لاستغلال الإمكانيات المادية والطاقات البشرية المتوفرة في المجتمع لتحقيق حاجاته الحقيقية المختلفة تحقيقاً متوازناً.

---

(١) د. مهى سهيل المقدم: مقومات التنمية الاجتماعية وتحدياتها معهد الإنماء العربي ص ٢٢.

(٢) د. عبد المنعم محمد بدر: دراسات في التنمية الريفية: دار المعارف ص ١٤٣.

ولإيضاح هذا التعريف نحدد ما نعني بالمفردات التي أوردناها فيه زيادة في الإيضاح وتحديداً للمفاهيم التي أردناها فيه، فوصف الجهد بالتنظيم يخرج التغيرات المختلفة والتي لا تتصف بالتنظيم والتخطيط عن دائرة التنمية. كما أردت بقيد استغلال الإمكانيات المادية والطاقات البشرية إخراج عمليات التحديث المستوردة فهي وإن كان بالإمكان إدخالها في التغير فهي لا تعتبر تنمية للمجتمع بأي حال من الأحوال. وأردت بإيراد لفظ (تحقيق حاجات المجتمع الحقيقية) إخراج كثير من عمليات التحديث والتغيير التي تعمل فعلاً على تحقيق رغبات معينة يوجد في المجتمع من يشجع وجودها لكنها ليست حاجات حقيقية للمجتمع بعمومه فمثلاً الرفاه الزائد عن الحد قد يكون مطلباً اجتماعياً في الدول الاسكندنافية لكنه ليس حاجة اجتماعية حقيقية في البلاد الإسلامية مثلاً. ووصف التحقيق المستهدف لحاجات المجتمع «بالتوازن» يقصد به إخراج التغيرات المضطربة والتي تركز على جوانب من احتياجات المجتمع دون غيرها، فالتركيز على بعض الجوانب الاقتصادية أو الجوانب الاجتماعية دون غيرها من الحاجات الحقيقية للمجتمعات لا يعتبر في واقع الأمر تنمية للمجتمع وإنما هو تحقيق لبعض المصالح الجزئية لذلك المجتمع.

بهذا التعريف للتنمية وما سبقت الإشارة إليه في بداية البحث الأول من هذا الفصل عند تحديد مفاهيم التغير، يتضح أن التنمية شيء والتغير شيء آخر من حيث المعنى والعوامل المؤثرة في كل منهما والأهداف والغايات المستهدفة. مع ملاحظة العموم والخصوص القائم بين التغير والتنمية فكل تنمية هي تغير بالضرورة لكن التغير قد يكون تنمية وقد لا يكون.

أهمية التنميـــة

انقسمت دول العالم وشعوبه بعد الحرب العالمية الثانية إلى جماعتين متميزتين تتشابه دول كل منهما في خصائصها المميزة لها وإن كان أبرز تلك الخصائص هو الطابع العام للتقدم والنمو وعلى العكس منه الجماعة الثانية من

تلك الدول بما تميزت به من تخلف وجمود. وبعد أن حصلت معظم دول المجموعة المتخلفة على استقلالها كان أهم برامج حكوماتها المستقلة حديثاً تنمية وتطوير شعوبها وقد عرف البعض خلال تلك الفترة (التنمية) بأنها تلك التغيرات الاقتصادية التي تحدث في الدولة وهي تنتقل من وضعها المتخلف إلى وضع آخر، تلك التغيرات التي ترتبط بالتقدم الصناعي وزيادة دخل الأفراد وتطور أساليب الزراعة ولم يكن هذا التفسير للتنمية والتركيز على الجوانب الاقتصادية تفسيراً ماركسياً يربط حركة المجتمع كلها بالعامل الاقتصادي، كما قد يتبادر إلى الذهن بدليل أن هذا الاهتمام بالجوانب المادية في التنمية كان اهتماماً عاماً لكل الدول المتخلفة ولكنه في الواقع الهم المشترك الذي سيطر على تفكير الحكومات والأفراد على حد سواء، وأصبح المقياس للتنمية في تلك الفترة المبكرة من تحرر البلاد المستعمرة هو دخل الفرد وحسب إلا أن التجارب المتكررة لعدد من الدول النامية والدراسات المحلية التي استهدفت التخطيط لتنمية تلك المناطق المتخلفة من العالم أثبت أن التنمية الحقيقية لا يمكن أن تتحقق إذا كان الاهتمام منصباً على جانب من الجوانب دون سواه فأصبحت خطط التنمية في السنوات الأخيرة تعني بالشمول للجوانب المادية وغيرها فجاء الاهتمام بالإنسان والتخطيط لتهيئة الفرص أمامه للنمو وتقبل التغير والتكيف معه بأساليب تساهم في تكامل عناصر التنمية وتجنب المجتمع حالات التفكك الاجتماعي والمشكلات الناجمة عن سوء التكيف الاجتماعي مع المتغيرات الجديدة. ولا شك أن كثيراً من الدول المتخلفة قطعت مراحل جيدة من التنمية خلال الفترة من نهاية الحرب العالمية وإلى وقتنا الحاضر، ولكن هناك تفاوت كبير بين النتائج التي وصلت إليها كل من تلك الدول، ولا شك أن الإمكانات المادية تعد من العوامل ذات الأثر الكبير في هذا الاختلاف إلا أن هذا لا يعني أن كل دولة ذات إمكانات مادية جيدة تستطيع النمو والتطور وتحقيق معدلات جيدة في مشاريعها التنموية دون عناية بالدراسة والتخطيط العلمي لهذه البرامج فبعض بلاد العالم النامي تتشابه في مستوى أحوالها المادية

إلا أن معدلات التنمية تختلف اختلافاً كبيراً بمقدار عنايتها بالتخطيط لهذه المشاريع.

لهذا نلاحظ العناية بدراسات التنمية من مختلف الجوانب وعلاقة التنمية بالمؤثرات الأخرى من عوامل اقتصادية واجتماعية وفكرية وتكنولوجية وغيرها مما جعل التنمية تصبح موضوعاً مشتركاً لجميع الدول وعلى مستوى أفراد الدولة كل فيما يخصه فالحكومات تضع التنمية همها الأول والوزارات المعنية تهتم بالتنفيذ والدراسات الجامعية ومراكز البحوث تقوم بالدراسات اللازمة لتقديم الاستشارات والتوصيات ووسائل الإعلام تقوم بدورها الرائد في هذا مما جعل التنمية فعلاً أهم قضية على مستوى الأفراد أو الجماعات لثلثي سكان العالم على أقل تقدير ولكن تحديد أهداف التنمية ورسم خطط تحقيقها والرسائل المستخدمة في ذلك أمر بالغ الأهمية. لذا لا غرابة أن يوجد في البلاد النامية بشكل عام والبلاد التي تسير في التنمية بجد وزارات مستقلة تعنى بأمر التنمية.

البلاد الإسلامية والتنمية:

قد يتبادر إلى الذهن أن تخصيص البلاد الإسلامية بدراسة تنموية لا يعتبر متفقاً مع النهج العلمي، حيث إن التقسيم العالمي للدراسات التنموية يعتمد على المستوى الاقتصادي ودخل الأفراد كمقياس لتصنيف البلاد في المستوى التنموي ارتفاعاً أو انخفاضاً:

لكن واقع البلاد الإسلامية يجعل لها بحكم خصوصياتها التي لا تشاركها فيها كثير من البلاد النامية أو المتخلفة بل ولا المتقدمة ما يبرر انفرادها بدراسات تنموية مستقلة ومن هذه الخصوصيات: ـ

١ ـ الحرص على تكامل جوانب النهضة الإسلامية، فمع شعور المسلمين بأنهم ليسوا متخلفين في الجوانب الفكرية وأن التصورات العامة والخاصة في علاقات الأفراد بعضهم ببعض، وخصوصيات بعض الأفراد في التعامل كالمرأة مثلاً وما تميزت به عن الرجال في الفكر الإسلامي، وكذلك ما

ينبغي للمجتمع المسلم أن يكون عليه كل ذلك أمور واضحة وجلية لدى المسلمين من الناحية الفكرية النظرية.

لكن الجانب المادي من الحضارة منيت فيه الأمة الإسلامية بنكسات كبيرة جعلتها على جانب كبير من التخلف الحضاري المادي والأمر والحالة هذه يوجب على الأمة المسلمة بعمومها العناية بخطط التنمية حتى لا يكون التخلف المادي سبباً في صد البشرية عن الالتفات إلى دين الحق لارتباط التخلف في أذهان أولئك بعضه ببعض فهم لا يفرقون بين ما نحن متقدمون فيه وبين الجوانب المادية التي نعاني من التخلف فيها، كما أن أبناء المسلمين أنفسهم ـ خاصة جيل الشباب ـ في حاجة ماسة إلى إعادة الثقة إليهم بإمكانية النهضة الإسلامية الشاملة وإلا كثرت الأعداد المنسلخة من هويتها الإسلامية فكراً وسلوكاً وانتقلت بالتبعية إلى معسكرات أعداء الأمة تزيد نموها وتخدمها بفكرها وإنتاجها وليس أقدر على إقناع شباب الأمة من تقديم التصورات النظرية المتنوعة بتطبيق عملي للنهضة الإسلامية الشاملة.

٢ ـ كبر الهوة الثقافية وقابليتها للاتساع.

حرمت الأمة الإسلامية في القرون الأخيرة من العناية بالجانب المادي من الحضارة وسبقها غيرها في هذا المجال بمراحل ومع تطور وسائل الاتصال والاحتكاك الحضاري بين الأمم بدأت تنتقل تلك المخترعات إلى البلاد الإسلامية (وبالاختراع يتم إنتاج أسلوب جديد في التفكير والعمل ويترتب على ذلك تغيرات في الثقافة إذ إن عناصر الثقافة متشابكة ومتساندة وإذا حدث تغير في أي عنصر من عناصرها أو إضافة عنصر جديد إليها يكون لذلك انعكاسات على باقي أجزاء الثقافة، وبالانتشار تنتقل هذه السمة الجديدة أو إحدى سمات ثقافة ما، إلى ثقافة أخرى، ومن ثم تجري عملية توطين السمة الجديدة وتحدث تغيرات في الثقافة المستعيرة للسمة)[١] وفعلاً بدأت المجتمعات الإسلامية بالتكيف

(١) د. محمد فؤاد حجازي: التغير الاجتماعي: مرجع سابق ص ١٦٥.

مع هذه المخترعات وما تبعها من قيم وسلوكيات.

وينبغي التنبه إلى فرق أساسي هام بين المجتمعات المسلمة وغيرها من المجتمعات الأخرى، فالمجتمعات المسلمة مؤسسة على العقيدة الإسلامية، ففكرها وأخلاقها وسلوكها وعاداتها وتقاليدها، بل ثقافاتها كلها مستمدة من الثقافة الإسلامية، وهذا الجانب غير موجود عند غير المسلمين بمعنى أن معظم ثقافة الآخرين بكل أجزائها هي من صنع أولئك أفراداً أو مجتمعات، وهي قابلة للتغير والتعديل حسب الأهواء لأنهم صانعوا تلك القيم والعادات ولهم أن يغيروها إذا أرادوا، وليس لها من القداسة في المجتمع ما يحول بينهم وبين ما يريدون.

فعندما وجد التعارض بين تلك القيم التقليدية وبين القيم الجديدة التي تتناسب مع التغيرات المادية، تم التنازل عن القيم القديمة دون أن يحدث اضطراب كبير بسبب ذلك التغير.

أما في المجتمعات الإسلامية فإن المشكلة ليست سهلة بسبب الاختلاف في التكوين والظروف، ولأسباب منها:

١ - إن تلك التكنولوجيا وافدة بمعنى أن نشأتها في مجتمعات أخرى أكسبها من قيم تلك المجتمعات.

٢ - إن الثقافة السائدة في مجتمعات المسلمين ذات طابع أصيل لارتباطها بالعقيدة الإسلامية وهذا يجعل أمر تعديلها أو استبدالها صعب التحقيق[1].

٣ - إن الدراسات الاجتماعية في العالم الإسلامي لم تتسم بطابع الأصالة الإسلامية حتى تتمكن من دراسة المشكلات الاجتماعية بالأسلوب

---

(١) ليس هذا اتهاماً للفكر الإسلامي بالعجز عن مسايرة التطور ولكن الأمر يحتاج - قبل البت فيه - إلى دراسة من علماء المسلمين للوصول إلى حلول تناسب التطور ولا تخالف الأدلة الشرعية، وليس من حق أحد البت فيه إلا إذا كان أهلاً لذلك.

المناسب للمجتمع المسلم وإنما هي في معظمها امتداد لأساليب الغرب في دراسة مشكلاته.

هذه الأسباب زادت من حجم الهوة الثقافية بين جوانب الثقافة المعاصرة في المجتمعات الإسلامية، فالتكنولوجيا تنمو وتتطور بمعدلات متزايدة ومشكلات التكيف الاجتماعي لم يتصد لها من يعالجها بأساليب مستمدة من الأصول الإسلامية المتميزة. وإلا فالإسلام لا يتعارض مع التغيرات التي في صالح الإنسان وإن قواعد الشريعة الإسلامية تسع لكل الأساليب الجديدة إذا كانت صالحة للمجتمع الذي يشكل الإنسان السوي لبنته الأساسية فالتغيرات التي لا تتفق مع فطرة الإنسان ومع هداية رب العالمين الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم ينبغي ألا تكون أهدافاً تنموية أصلاً لتحتاج إلى التكيف معها، فالتخلف الثقافي الناتج عن عدم قدرة الأفراد على مسايرة هذه التغيرات المادية وتفهم ظروفها يمكن علاجه إذا روعي عند وضع الخطط التنموية دراسة الأهداف التفصيلية والتوقعات للنتائج ووضع الأساليب المناسبة للتعامل معها من قبل الأفراد ومرافقة ذلك بحملات إعلامية مستمرة لتقديم الصور الصحيحة لهذه التغيرات وأنها فعلاً تتفق مع أهداف الأمة المسلمة وليس في الدين ما يعارضها واستمرار الدراسة أثناء التغيرات لإيجاد البدائل المناسبة إذا تبينت عدم صلاحية أسلوب أو آخر واستبداله بما يناسب وهذا يقتضي وجود عدد من مفكري الأمة ومن ذوي الدراية الواسعة والقدرة على الاجتهاد ـ كل فيما يخصه ـ في إيجاد تصورات لأساليب التعامل مع هذه المتغيرات ووضع الضوابط والقوانين المرنة لتقبل هذه المتغيرات، ولكن ليس بمرونة التساهل والتهاون في التطبيق لأحكام الله وإنما بمرونة الإسلام ويسره وسعته وشموله، هذا كفيل بالقضاء على التخلف الثقافي الناتج من التقدم في الجانب المادي وحده والحيلولة دون وجود الهوة الثقافية أصلاً في المجتمعات الإسلامية والتي تتهم من الدول المتقدمة بالتخلف الثقافي إضافة للتخلف المادي مما يجعل الدراسات الميدانية الجادة من أبناء الأمة الإسلامية ضرورة ملحة.

٣ ـ التنمية فكرياً:

التنمية التي تنشأ في مجتمع ما تعبر عن طموحات أفراد وجماعات ذلك المجتمع وهي بالضرورة منتمية إلى فكر وعقيدة وقيم وأخلاق وعادات تلك البيئة التي نشأت فيها وعملية استيراد تلك النماذج الجاهزة من التنمية سبب لانتقال تلك المفردات الثقافية الغربية والتجارب التي يعيشها العالم اليوم خير شاهد ، فالدول النامية التي تتغذى بالفكر الشرقي وتدور في فلكه طبقت التجربة الشرقية في التنمية مما مكن للثقافة الشيوعية وكذلك الدول الدائرة مع المعسكر الآخر ومن القيم الغربية التي انتقلت إلى البلاد التي تستفيد من تجارب الغرب في التنمية قيمة الاستهلاك والتي تعتبر قيمة أساسية في مجتمعات الغرب ، وقد أصبحت هذه القيمة الدخيلة قيمة ثابتة في كل مجتمع طبق أساليب التنمية الغربية وما ذلك إلا لأن المجتمع الاستهلاكي يعتبر أعلى مستوى يمكن أن تصل إليه مراحل التنمية ـ في نظرهم ـ ولذلك تتجه كل وسائل الإعلام لدعم هذه الغاية وتحقيقها بمختلف وسائل الترويج والإعلان ، في حين أن الفكر الإسلامي يعتبر هذه القيمة تخالف التوجه السليم في العلاقات الاجتماعية ، وفي هذا يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين** ﴾ [١] فذكر سبحانه أغلب وجوه الإنفاق اللباس والأكل والشرب وأمر بعدم الإسراف في ذلك كله لأنه لا يحب من يسلكون ذلك المسلك ويقول تعالى : ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً** ﴾ [٢] وهذا منهج الاعتدال بين الإسراف الذي تعيشه مجتمعات الغرب والتقتير الذي تتجه إليه الدول الشيوعية .

فالقيم الوافدة مع النماذج التنموية المستوردة هي بالضرورة منتمية ،

---

(١) سورة الأعراف آية ٣١.

(٢) سورة الفرقان آية ٦٧.

ولـذلك تجـد من يشرفـون على نقلهـا يتـوجهـون أول مـا يتـوجهـون إلى قيم المجتمعـات التي ابتليت بها لمحـاولة القضـاء عليها (وقـال علمـاء الاجتمـاع والإعلام : إن التنمية يلزمها تحويل عقائد الفرد وقيمه التقليديـة ـ ويقصـد بهـا الإسـلام ـ إلى أوضاع عصرية وقيم غربية ، وافتـرض هؤلاء العلماء أن واجب الإعلام هو الحث على التنمية من خلال ترسيخ نظام القيم الغربيـة في نفوس الناس ، على اعتبار أنها القنطرة المؤدية إلى التحضر والمدنية ، ولم يأخذوا في اعتبارهم ما ينجم عن ذلك من تصارع للقيم في نفوس الأفراد وتمزق حضاري في المجتمع الإسلامي) [1] فـالدراسـات التنمويـة المحلية تتلمس الحـاجات الفعلية للمجتمع وتحاول إشباعهـا بأسلوب متـوازن يضمن عدم التعـارض مع القيم الثابتة في المجتمع مما يجعل تلك المشاريع تتجه لتحقيق التنمية فعلاً .

٤ ـ شمول الإسلام للجوانب المادية وغير المادية من الحضارة :

تعنى الحضارات المعاصرة بالتركيز على الجـانب المادي من الحضـارة وتقل عنايتها بغير ذلك ، ومر على المسلمين في عصـور التخلف مراحـل من الشطط الفكري الذي صحبه إهمال لبعض الجوانب وقصر العنايـة بالجـوانب الأخرى وعلى رأس هؤلاء الفرق الصوفية في طول العالم الإسـلامي وعرضـه الذين اكتفوا بطقوس شعائرية مشوبة بكثير من البـدعة والخـرافة وانعـزلوا عن الحياة العامة وتصوروا أن عملهم هذا من الدين ، وما فقهوا حياة المصطفى ﷺ الذي كان قائداً للأمة في شؤونها ، ومن سار على هديه من الخلفاء في صـدر الإسـلام . فليس في الإسلام تناقض بين العمل للآخرة وللدنيا ، فالدنيا والعمل فيها طريق للآخرة تتحول أعمالها مع صلاح النية إلى عبادة تنفع صاحبها يـوم القيامة بعد النفع الدنيوي .

هذه الخصائص تجعل من مسؤولية المخططين للتنمية الإسـلامية في كل

---

(١) د. إبراهيم إمام : أصول الإعلام الإسلامي : دار الفكر العربي ص ٣٠٦ .

بلاد الإسلام المنابة بالتوازن بين الثوابت والمتغيرات في تراث الأمة وإعداد الخطط بأهدافها واستراتيجياتها من خلال هذه التصورات الواضحة والعمل على تغيير الواقع المتخلف في الجوانب المادية من الحضارة مع المحافظة على قيم الأمة الثابتة ، التي لا يمكن لها أن تتهاون بها أو تتنازل عنها بل على المخطط أن يعمل على إبعاد المجتمعات عن صراع القيم الذي يسبب لها حالة من عدم الاستقرار الذي يعوق بدون شك خططها التنموية .

وأورد هنا نموذجاً لهذه الخطط التنموية أختارُ فيها المملكة العربية السعودية كمثال وأظنه مثالاً موفقاً لعدد من الأمور منها أنها واقع نعيشه مكاناً لهذه الدراسة ثم إن الخطط التنموية في المملكة العربية السعودية حققت الأهداف التي رسمتها بنسب عالية جداً خلافاً لكثير من الخطط التنموية في كثير من البلدان النامية (فإذا نظرنا إلى دعاوي التنمية ـ على سبيل المثال ـ لوجدناها تضم كافة الدعاوي الإيديولوجية والوعود ذات الدوافع السياسية والاقتصادية الانتهازية وكذلك كل الإجراءات ـ الحقيقية أوالمزعومة ـ التي لا يأخذها أصحابها مأخذ الجد ، بمعنى أنهم إما لا ينوون أو لا يستطيعون وضعها موضع التنفيذ الفعلي ، وإنما يهدفون من ورائها إلى خلق الانطباع لدى الآخرين بأنهم يبذلون جهوداً حقيقية مخلصة من أجل التنمية، وأعتقد أنه أمر غني عن البيان القول بأن دور الدعاوي التنموية والجهود التنموية العقيمة كان أمراً بارزاً على مسرح العمل التنموي في كثير من البلاد النامية في خلال العقود القليلة الماضية، مما يؤكد ضرورة الحاجة إلى تحديد أهداف تنموية دقيقة ومسؤولة وتبني دعاوي مخلصة)[1] .

كل هذا يجعل النظر في أهداف واستراتيجيات ومبادىء خطط التنمية السعودية ـ بصفة خاصة كمثال لخصوصيات التنمية في البلاد الإسلامية ـ أمراً

---

(١) د. محمد الجوهري : علم الاجتماع وقضايا التنمية في العالم الثالث ـ دار المعارف طبعة ٣ ١٩٨٢ م ص ١٥٢ .

يزيد الدراسات التنموية وضوحاً وواقعية بل ويرشد كثيراً من الاتجاهات البحثية لإمكانية رؤية النتائج الفعلية لتلك الخطط والقرب من الواقع .

المبادىء العامة :

يستمد التخطيط للتنمية في المملكة العربية السعودية أفكاره وأهدافه العامة من مجموعة القيم والمبادىء العامة للمجتمع والمستمدة من الشريعة الإسلامية ، المرجع الوحيد لنظام الدولة والعلاقات المتبادلة داخل المجتمع ، وتتلقى خطط التنمية قوة الدفع والانطلاق من واقع الظروف الإمكانيات لتحقيق طموحات المجتمع وآماله المستقبلية وقد تبلورت ركائز هذه القيم والمبادىء فيما يلي :

١ ـ التزام الدولة وتمسكها بمبادىء وأحكام الشريعة الإسلامية وحفاظها على معطيات هذه الشريعة من التقاليد والقيم الثقافية والأخلاقية .

٢ ـ اهتمامها العميق والمثابرة بتحقيق مستوى مرموق من الرفاه الاجتماعي وتأمين ما يحتاج إليه المواطنون بما تنشىء وتقيم من مؤسسات تستهدف تقديم الخدمات لهؤلاء المواطنين دون مقابل .

٣ ـ ترسيخ مبدأ الحرية الاقتصادية من المنطلق الإسلامي الأصيل ضمن إطار المصلحة العامة [١] .

فهذه المبادىء العامة والمرتكزات توضح الارتباط في ذهن المخطط بين تحقيق الأهداف المادية مع المحافظة على قيم الإسلام . وتبع هذه المبادىء العامة أهداف عامة بعيدة المدى واستراتيجيات ترجم تلك الأهداف وتفصل أفكارها المجملة إلى أهداف محددة يتم تحويلها بالتالي إلى أهداف متوسطة تعد لها برامج زمنية في إطار خطط التنمية .

---

(١) انظر ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية ص ١٥ ، تهامة ط ١، ١٤٠١.

وهذا الوضوح في ذهن المخطط لا يكفي وحده لتلافي المشكلات فهي متوقعة مع كل عمل منتج والتخطيط الرشيد لا يعني القضاء على المشكلات ولكنه يعمل بقدر الإمكان على تقليلها ، كما أنه يبدي المرونة الجيدة في إيجاد البدائل المناسبة لتلافي حدة المشكلات وعوائق التكيف السليم مع المتغيرات ولذا نجد الخطة السعودية الثالثة عنيت بهذا الأمر ، ففي الأهداف نص على (العمل على زيادة الوعي بين المواطنين السعوديين بالأهداف العامة للتنمية في المملكة واحتياجاتها ، وتوجيه المواطنين وإرشادهم إلى الإسهام في تحقيق هذه الأهداف ، ومساندة المجتمع السعودي في معالجة المشكلات التي تنجم عن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية السريعة) [1] . فالإشارة إلى معالجة المشكلات التي تنجم عن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية السريعة ، تعني توقع المشكلات والاستعداد لعلاجها وجدير بالملاحظة أن ما أشير إليه من زيادة الوعي بين المواطنين السعوديين بالأهداف العامة للتنمية ، وتوجيه وإرشاد المواطنين إلى الإسهام في تحقيق هذه الأهداف ، يعني نوع من تطويق المشكلات والحد من حدوثها بتعرف المواطنين على الأهداف العامة والخاصة للخطة مما يدفعهم إلى المشاركة الفعلية التي تطور من توقعاتهم لما سيحدث مما يخفف مشكلات التكيف.

بقي هنا سؤال هام هل قام الإعلام السعودي بتحقيق هذه الأهداف المرسومة له في الخطة بتوعية المواطنين بأهداف الخطة وتوجيههم وإرشادهم إلى الإسهام في تحقيق تلك الأهداف ؟ إن الإجابة على هذا التساؤل ينبغي أن لا تكون مرتجلة ولا مستعجلة لأنه ليس من السهل الجزم بالجواب هنا . لكن الأمر الذي لا شك فيه أنه بمقدار تحقيق ذلك الهدف (هدف التوعية بأهداف الخطة) يتحقق قدر كبير من المشاركة من المواطنين وتضييق دائرة مشكلات التكيف الاجتماعي مع متغيرات التنمية أثناء تطبيق مراحل الخطط التنموية .

---

(١) المرجع السابق ص ٤٩ .

عوائق التنمية :

من الواضح أن النمو بشكل عام أصبح هدفاً عالمياً مشتركاً يسعى الجميع إلى تحقيق درجات متقدمة في مضماره، وإن كانت البلدان النامية خصت بدراسات مستقلة تسمى بدراسات التنمية للفارق الكبير بين مجتمعات العالم الثالث والدول المتقدمة في المستويات الحضارية[1] وباستعراض معظم الدراسات التنموية التي أجريت في هذا المجال يلاحظ أن بحوث عوائق التنمية تنال جانباً كبيراً من الاهتمام والدراسة ولا شك في وجود هذه العوائق ومن أقوى الأدلة على وجودها النكسات التي تصيب برامج التنمية في البلاد النامية وعدم تحقيق أهدافها وما ذلك إلا لوجود تلك العوائق التي تعترض سبيل التنمية . ومع شمول الدراسات لمختلف تلك العوائق إلا أن الملاحظ أيضاً بروز عوائق التنمية الاقتصادية بشكل يفوق بقية العوائق الأخرى ، ويرى الباحث أن السبب في ذلك هو أن المشكلات الاقتصادية التي تعاني منها مجتمعات العالم الثالث كانت من الأهمية بمكانه تسيطر على اهتمامات الباحثين والدارسين مما يعطيها الأولوية ولا يعني هذا عدم الاهتمام ببقية العوائق الأخرى في مختلف مجالات التنمية وحيث أن موضوع التنمية ليس الموضوع الرئيسي في هذا البحث وإنما بُحِث من جانب التغير الذي تعتبر التنمية جزءاً منه لذا فإن الاستفاضة والإسهاب الذي يغطي تفاصيل الموضوع بدقة لن يكون هذا البحث مجالاً له ، وسوف أستعرض المعوقات بشكل مختصر موضحاً بعض الآراء التي أرى أهميتها في تفسير العوائق .

أولاً : العوائق المادية :

لا نبالغ إذا قلنا إن الجوانب المادية (الاقتصادية) أصبحت في العصر الحديث من العوامل الأساسية لتحقيق أي إنجاز ، ولا يعتبر هذا القول تفسيراً مادياً للأحداث ولكن واقع المجتمعات المتقدمة الغربية والشرقية ، يبين ذلك

---

(١) أعني المتقدمة في الجانب المادي من الحضارة .

بوضوح، فالتقدم العلمي (البحث العلمي) والخدمات الحضارية (الصحية، التعليمية، البلدية، وغيرها) بل مستوى المعيشة بكاملها أصبحت تعتمد اعتماداً كبيراً على المستوى الاقتصادي، وهذه ظروف حاضرة يعيشها العالم الآن لا مجال لإنكارها، لكننا نقول ليس هذا هو الوضع الضروري الذي لا يمكن أن يتحقق التقدم الحضاري إلا من خلاله، فالأسس المادية التي بنيت عليها حياة الغرب والشرق تجعل للعامل الاقتصادي دوره البارز والمميز في الوقت الحاضر على الأقل.

وعلى هذا الأساس فإن التخلف الاقتصادي في أي بلد اليوم يعتبر عائقاً رئيسياً من عوائق التنمية بها ولن تستطيع تحقيق معدلات تنموية كبيرة دون الاعتماد على اقتصاد قوي بنسبة معقولة ، فهل يمكن مثلاً أن تنمو التكنولوجيا التي تعتبر من أساسيات النهضة المادية في العالم اليوم دون اقتصاد جيد يمول تطورها وكذلك يقال بالنسبة للبحث العلمي ، والخدمات التي تعتبر عنصراً رئيسياً في أي مشروع تنموي جاد ، هل يمكن أن يتقدم دون اعتمادات مالية جيدة .

ثانياً : عوائق اجتماعية :

إن التنمية الاجتماعية باعتبارها أحد أشكال التغير الاجتماعي تعتمد على تغيرات تحدثها في البناء الاجتماعي وهذه التغيرات تجد مقاومة من النظم الاجتماعية القائمة لقيام كل من النظم الجديدة والقديمة على قيم ومعايير مختلفة . وبنظرة متعمقة في أسس الاختلاف الحقيقية بين المجتمعات النامية وغيرها من المجتمعات التي سبقتها في مضمار النمو نجد أن القيم والعادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية تشكل ركيزة أساسية لهذا الاختلاف لأن الوظائف والأدوار الاجتماعية تستمد تصوراتها من ذلك الميراث الثقافي في ذلك المجتمع . بل إن النظم القديمة لا تختفي بمجرد ظهور نظم جديدة تستحدثها التنمية ، بل تظل جنباً إلى جنب مهما كانت قوة التغيير ، لكن النظم الاجتماعية

التقليدية تختلف من مجتمع إلى آخر من حيث مرونتها وسعة مجالها أو ضيقه بحيث تتيح المرونة وسعة المجال إمكانية أكبر لقبول التغيرات اللازمة للتنمية .

ثالثاً : عوائق ثقافية :

قد تكون بعض مكونات الميراث الثقافي لشعب من الشعوب سبباً من أهم أسباب تقدمه وبالعكس ، وعندما نطلق الثقافة فإننا نعني ذلك المعنى الواسع : (هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل المقدسات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع) [1] ، فالمستوى الثقافي في الجانب المعرفي الذي يتراوح بين أعلى درجات المعرفة والأمية التي تعاني آثارها كثير من الشعوب في العالم الثالث سيكون لهذا التفاوت تأثير واضح وجلي على مستوى التنمية بدون أدنى شك وسيكون للأمية بشكل واضح آثار مباشرة وغير مباشرة على تحقق الأهداف التنموية بشكل عام .

وكذلك العقائد ، فالعقيدة المسيحية مثلاً في مرحلة ما قبل النهضة كانت تشكل عائقاً رئيسياً للنهضة العلمية ، وما تاريخ الصراع بين الكنيسة ورجال العلم التجريبي إلا شاهد واحد على تأثير العقيدة المسيحية المحاربة للبحث العلمي على النهضة الأوروبية بشكل خاص ولم تنهض أوروبا إلا بعد أن تحررت من قيود الكنيسة وحصر الدين المسيحي في زوايا الكنائس وانطلقت البحوث تحقق مكاسب علمية رائعة بعد تحطيم ذلك العائق .

وعقيدة الإيمان بالقدر والتوكل التي حرفت على أيدي المتصوفة في التاريخ الإسلامي وأصبحت تعنى ترك الأسباب وعدم الاتقان في العمل انتظاراً للنتائج المقدرة ، هذه العقيدة المحرفة أصبحت سمة لكثير من المجتمعات الإسلامية المتخلفة في فهم الدين أولاً ثم انعكس على نهضة أمور الدنيا ثانياً وأصبحت البحوث الاجتماعية تشير إلى (أن القدرية أي الإيمان بالقضاء والقدر

---

(١) د. أحمد أبوزيد : البناء الاجتماعي ـ اللجنة المصرية العامة للكتاب طبعة ٧ ص ٢٤٤ .

تعتبر من العوامل المعوقة للتنمية والتغيير خاصة في المجتمعات التقليدية ، حيث يسود الإيمان بالقدرة على السيطرة على البيئة الطبيعية) [1] ، هذا التصور الذي يعكسه الباحثون الاجتماعيون عند دراسة المجتمعات الإسلامية هو في حقيقة الأمر بعيد عن التصور الإسلامي الصحيح في مسألة الإيمان بالقدر وإن كان واقع كثير من أبناء الأمة الإسلامية اليوم لا يمثل التصور الصحيح للعقيدة الإسلامية في القدر والتوكل ، بسبب بعد الناس اليوم عن النبع الصحيح للعقيدة الإسلامية وإلا (فعقيدة القدر في القرآن هي التي تعلم المؤمنين أن لهذا الكون نظاماً محكماً ، وسنناً مطردة ارتبطت فيها الأسباب بالمسببات وأن ليس في خلق الله خلل ولا مصادفات ، ومن فائدة هذا الاعتقاد أن أهله يكونون أجدر الناس بالبحث في نظام الكائنات لمعرفة سنن الله في المخلوقات وطلب الأشياء من أسبابها والجري إليها في سننها . . . والقرآن يدعو إلى الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله في إحداث الانقلابات الإصلاحية التي ترفع الجماعات إلى حياة أفضل ، قال سبحانه : ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ (سورة الرعد آية : ١١) . هذا ما ذكره القرآن وهو صريح على أن إرادة الإنسان وعمله هما مصدر مثوبته وعقابه ، وهذا لا يتفق مع ما يقوله أعداء الإسلام من أنه دين تواكل يمنع أهله من الترقي في حياتهم الدنيوية) [2] . فأين هذا من تصورات الغرب عن الإسلام ومما يكتبه الباحثون الاجتماعيون عن واقع المجتمعات الإسلامية المتخلف وربط ذلك بميراث المسلمين الثقافي خاصة عقيدتهم . هذا واضح في أن الثقافة بعمومها سبب رئيسي للتنمية تقدماً أو تخلفاً .

رابعاً : عوائق ديموغرافية :

لقد اعتاد الباحثون في مجالات التنمية طرح هذه المشكلة كعائق أساسي

---

(١) سميرة محمد كامل : التنمية الاجتماعية : المكتب الجامعي الحديث ، اسكندرية ط ١٩٨٤، ص ٤٩ .

(٢) عفيف طبارة . روح الدين الإسلامي ، دار العلم للملايين ط ٢٣ ص ١٥٥ .

من عوائق التنمية ، وتكاد أن تكون هذه المشكلة محل إجماع بين الباحث
الاجتماعيين (وفي الإطار النظري للمشكلة الديموغرافية ، فمن المعروف
هناك اتجاهاً تشاؤمياً وهو السائد تتناه هيئة الأمم المتحدة ويعمل المستشارو
والخبراء على تصعيده ، ومؤداه أن هذه المشكلة أساسية وخطيرة للغاية ولا
من حلول جذرية لها إما بالحد من الإنجاب أو بتطويع تشريعي للمشكلة
بالتنظيم الأسري حسب ظروف كل مجتمع . . . وهناك الاتجاه المتفائل ، و
أيضاً بعض المتحمسين وإن كانوا أقل من المتشائمين ، هذا الاتجاه التفاؤ
يرى أن هذه المشكلة مصطنعة وليست أساسية وأن القضية لا تخرج عن سـ
توزيع سكاني للبشر واقتصادي للثروة وسوء إدارة ، وسوء تنظيم ، وسوء قيـ
أيضاً ، في بعض الدول وبالتالي حينما تحل أو تلغى هذه السوءات لن تصـ
المشكلة مطروحة ، لأنه يرى أن المشكلة الديموغرافية مجرد انعكا
لمشكلات أخرى لو أنها حلت لما كانت هناك مشكلة ديموغرافية أصلاً . وهـ
اتجاه ثالث وهو اتجاه توفيقي يحاول التوفيق بين التفاؤل والتشاؤم ويرى
المشكلة من الأفضل أن تطرح في إطار ما يسمى بخصوصيات كل مجتمع و
من الخطأ تعميم المشكلة الديموغرافية بمعنى أننا إذا وجدنا بعض المجتمعا
تتطلب الحد نقرر الحد ، وإذا وجدنا بعض المجتمعات قررت التنظيم نق
التنظيم ، أو نقرر إعادة التوزيع السكاني حسب خصوصيات كل مجتم
ومتطلباته ومعطياته) [1] ، ويرى الباحث أن هذه الاتجاهات الثلاثة التي تـ
الدراسات التنموية فيما يتعلق بمشكلة الديموغرافية تكاد تلمس جميع جوا
الموضوع إلا أن أياً منها لا يمكن أن تشكل الحل المطلوب لعدة أمور :

١ ـ إن النظرة التشاؤمية لها خلفية استعمارية بمعنى محاولة تضخيم وتهوي
القضية لكي تظل الشعوب الفتية دائماً غارقة في المشكلات .

٢ ـ إن التفاؤل وإغماض النظر عن المشكلة وافتراض أنها غير موجودة أ

---

(١) د. رشدي فكار . نظرات إسلامية للإنسان والمجتمع . مكتبة وهبة ط ١ سنة ١٤٠١ ص ٤١ .

يخالف الواقع فلا خلاف في وجود المشكلة لكن الاختلاف من حيث الزوايا التي ينظر منها للمشكلة والأسباب التي أوجدتها .

٣ ـ إن ما ينطبق على مجتمع ليس بالضرورة ينطبق على مجتمع آخر كمجتمع دولة الإمارات العربية المتحدة مثلاً والذي يشكل فيه المواطنون أقل من ١٨ ٪ [1] فقط من مجموع السكان هل يعالج بالأساليب التي تحل بها مشكلة الانفجار السكاني في الهند مثلاً .

إن مشكلة النمو السكاني مشكلة متشعبة وذات ارتباطات مختلفة بكل عوامل التأثير في المجتمع ولن تحل من خلال مشاريع مبتوتة الصلة عن بقية المؤثرات الأخرى كما أن عقيدة كل مجتمع هي سبب رئيسي خلف كل الظواهر التي توجد فيه الإيجابي منها والسلبي فينبغي أن تراعى كل هذه المؤثرات عند دراسة مشكلة الديموغرافيا والتأكد من أن المشكلة قائمة فعلاً في هذا المجتمع أو ذاك وإن الحلول المقترحة تتفق مع عقيدته لضمان نجاح الحلول وعدم تناقضها مع النظم الاجتماعية القائمة أو إحداث صراعات قيمية عند التطبيق . وجدير بالملاحظة هنا أن التبادل الإعلامي جعل هذه المشكلة مشكلة عالمية يشعر بها من ليس من أهلها ويمارس أحياناً حلولها وهو لا يعانيها بسبب القناعات التي بنيت في ذهنه من خلال وسائل الإعلام المختلفة وإلا فما هو سبب استخدام بعض البلاد النامية التي تعاني من مشكلة قلة السكان معاناة كبيرة ـ كدول الخليج العربي عموماً لتنظيم أو تحديد النسل وطرح هذه القضية كمشكلة اجتماعية عبر الصحافة والإذاعة والندوات التلفزيونية وطلب مشاركة الرأي العام في حلها وهي غير موجودة أصلاً .

خامساً : عوائق نفسية :

إن قبول أو رفض التجديدات التي تطرأ على المجتمعات يعتمد على العوامل النفسية بشكل كبير واختلاف الأفراد في قبول أو رفض أي جديد يعتمد

(١) د. عبد الله السلطان مرجع سابق .

على الحالة النفسية التي من خلالها يتم التصور لهذا الجديد ويقوم الإعلام في العصر الحديث بدور كبير في المساهمة في صنع الاتجاهات وبناء القناعات النفسية لدى الأفراد والجماعات . فمن عوامل نجاح أي مشروع تنموي وجود الثقة لدى المواطنين بالمسؤولين عن هذا المشروع وإن الأهداف التي يرمي إليها هي في صالح المواطن فمتى اهتزت تلك الثقة أو انعدمت تأثر بذلك المشروع بشكل عام . كما أن مراحل التطبيق المتتالية للمشاريع التنموية تحدث غالباً فوارق بين التخطيط والتطبيق نتيجة لما يجد من ظروف وأوضاع غير محسوبة لم يتمكن المخطط من توقعها وحسابها ، أو ظهور نتائج عكسية أو تأخر المشروع أكثر مما كان مرسوماً له نتيجة لظروف طارئة لم يمكن حسابها . كل هذه الأمور ينبغي للمخطط أن يتوقعها كما أن الحملة الإعلامية ينبغي أن تنبه إليها وإلى أنها ظروف متوقعة ليكون لدى المواطن الإحساس المسبق بأن هذه ظروف عادية فيخفف ذلك من آثار الصدمة لديه وتبقى الثقة بالمسؤول قائمة ، فحالة فقدان الثقة خطيرة الآثار على المشاريع التنموية .

كذلك تدخل المسؤول في خصوصيات الأفراد التي لا يحق له التدخل فيها بحجة الترشيد أو التوجيه الاقتصادي أثناء مراحل التنمية قد تكون عائقاً كبيراً لنجاح التنمية ، فرؤوس الأموال المحلية أحد العناصر الأساسية للمشاريع التنموية فمتى أحس أصحابها أن التدخلات ليست في صالحهم جبنوا وجبنت رؤوس أموالهم وخسرت التنمية أحد عوامل نجاحها ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك التأميم الذي طبق في بعض البلاد النامية بحجة المصلحة العامة كانت آثاره البعيدة المدى هروب رأس المال الخاص تماماً من المشاريع مما أثقل العبء على القطاع العام وعجزه أخيراً عن تحقيق أهدافه .

ومثال عكسي آخر عندما تدخل المخطط في المملكة العربية السعودية لتحريك رأس المال الخاص تدخل بأسلوب يتفق مع عقيدة المجتمع باحترام الملكية الخاصة أولاً ثم بأسلوب الحافز عن طريق الإقراض الذي دفع رأس

المال إلى المشاركة الفعالة في التنمية فأصبح شريكاً هاماً لتمويل مشاريع التنمية .

يتضح أن الثقة بأهداف التنمية أمر بالغ الأهمية ويحتاج إلى دراسة علمية وتخطيط إعلامي ذكي لبناء الثقة والمحافظة عليها خلال مراحل التنمية المختلفة ليستمر التقدم والاندفاع وللبعد عن النكسات في مشاريع التنمية .

الفصل الثالث



القيم الاجتماعية وأثرها في البناء الاجتماعي

لقد شغل موضوع القيم اهتمام الكثير من الفلاسفة والمفكرين منذ وقت مبكر أظهرت تلك الاهتمامات المبكرة نتائج تمثل تصورات كثيرة تختلف كثيراً أو قليلاً فيما بينها في كل الأجزاء والموضوعات التي تشملها القيم ، فأصل القيم وأهدافها ومجالها وضرورتها في البناء الاجتماعي نالت من الدراسات النظرية الشيء الكثير وظهر فيها الاتجاه العام والمذاهب التي ينتمي إليها الدارسون مما جعل الاتفاق على نظرية شاملة تتفق في تحديد الطبيعة المتعددة الجوانب لأنساق القيمة قد أعيق (نتيجة الخلافات الشديدة بين العلماء الاجتماعيين ، خاصة حول طبيعة أنساق القيمة والمنهج الملائم لدراسة القيم والعلاقات المتداخلة بين القيم والعلوم الاجتماعية) [1] .

وهذه العناية المبكرة بالقيم دليل على معرفة الأهمية التي تتميز بها في تكوين المجتمع ، فالمجتمع لا يتكون دون وجود بناء معياري وهو بالإجمال ، أفكار تنطوي على صور الحياة الاجتماعية وتتضمن الملاحظات التي تتعلق بها .

وهذا البناء المعياري يحقق للفرد والمجتمع تصوراً للغايات التي يهدف إليها ، والبناء المعياري يحتوي على قواعد ومقاييس وأنماط للسلوك ويشكل بذلك معايير اجتماعية يقاس بها ويحكم على السلوك الفردي أو الاجتماعي

---

(١) د. محمد أحمد بيومي : علم اجتماع القيم ، دار المعرفة الجامعية ـ اسكندرية ص ٥٨ .

ويحكم بقبوله أو رفضه أو يعتمد هذا التقويم أساساً على سلم من القيم ، ويقوم على نحو معين، بحيث يعلو على التقديرات الشخصية المتغيرة للأفراد فالأفراد يجدون أنفسهم في حقيقة الأمر إزاء سلم من القيم على نحو مقرر تماماً وفي وضع خارجي عنهم ، كما أنه لا يعتبر ترجمة عن مشاعر الأفراد ، ولذلك فإنهم لا يملكون إلا أن يلائموا أمرهم وفق هذا السلم القيمي الذي يفرض عليهم فرضاً ولا يخفي إذن ما للبناء المعياري من مقدرة على فرض نفسه على الأفراد بما يملكه من سلطة معنوية مستمدة من الذين أو من الأصول الجمعية ، ولهذا نجده يقاوم كل ما يعترض سبيله ويقف في وجهه ولهذا يمكننا أن نفسر ما لهذه القيم من قوة في توجيه أفعال الفرد نحو غايات ومصالح المجتمع وكيف تساهم هذه القيم على الاحتفاظ للمجتمع بذاتيته الخاصة) [1] .

على أن علماء الاجتماع المعاصرين يرون أن الدراسات السابقة للقيم لا تعتبر دراسات علمية بالمفهوم الحديث في علم الاجتماع وانها لم تتجاوز الدراسة الفلسفية البعيدة عن مناهج العلوم الاجتماعية ، فالقيمة تقع خارج نطاق الدراسات الاجتماعية وفي القرن العشرين فقط وبالتحديد وبعد صدور كتاب توماس وزنانيكي بعنوان الفلاح البولندي في أوروبا وأمريكا اهتم جماعة من علماء الاجتماع المعاصرين بدراسة المشكلات الاجتماعية في علاقتها بالقيم (وربط فيلر بين القيم والمشكلات الاجتماعية وقد عبر عن ذلك بقوله: إننا كنا متحمسون جداً في جهدنا لإزالة الانحياز وأحكام القيمة من النظرية من عقل الذي يقوم بتدريس المشاكل الاجتماعية لدرجة أننا قمنا بإزالة أحكام القيمة من النظرية التي ندرسها وهذا خطأ أساسي فإننا بغباء أهملنا الشيء الجوهري الذي ليس فقط يؤدي إلى ظهور المشكلة الاجتماعية في المحل الأول ولكن أيضاً يعيق حلها ، وهذا هو الصراع بين مجموعتين أو أكثر من أنساق القيم ومنذ محاولة فيلر تضمنت معظم تحليلات المشاكل الاجتماعية والتفكك الاجتماعي

---

(١) د. محمد أحمد بيومي : علم اجتماع القيم ، مرجع سابق ص ٢٣ .

القيم وصراعها وقد بذلت محاولات عديدة لتحديد صحة العلاقة بين القيم والمشاكل الاجتماعية)[1].

هذه البداية العلمية لدراسة القيم في نظر علماء الاجتماع المحدثين وذلك لعدم تطبيق منهج الدراسة الاجتماعية الحديث من قبل من قاموا بدراسة القيم في الأجيال السابقة بل في القرون المتقدمة والحقيقة أن علماء الاجتماع في العصر الحديث لم ينكروا ما قام به الفلاسفة والعلماء في العصور الوسطى وما قبلها من عهد أفلاطون إلاّ أنهم يعتبرون تلك الجهود والمحاولات خارج النطاق العلمي ولن تغني في معرفة الحقيقة شيئاً وهذا الإهمال الكامل لدور أولئك العلماء السابقين قد يقبل من كثير من الدارسين ، لكن ذلك بالنسبة للمسلمين يعني إسقاط جزء كبير من الثقافة الإسلامية وكثير من جهود علماء أجلاء درسوا القيم الاجتماعية منذ وقت مبكر باعتبار القيم جزء من النظرية الأخلاقية التي حددت بشكل علمي دقيق في جوانبها الأهم [2] ودرس الجانب

---

(١) نفس المرجع ص ١١٤.

(٢) أعني بهذا تلك المبادىء الأخلاقية التي جاء بها الإسلام والتي تحدد بصفة عامة إرادة الله فيما ينبغي أن يكون عليه سلوك الإنسان في هذه الحياة سواء كان هذا السلوك متعلقاً بصلته مع الغير أو بالنفس وهذه المبادىء متمثلة في القرآن والسنة بصورة قانونية أو تشريعية وعلى هذا الأساس يعد كلاهما معياراً وضعياً واحداً ، ولقد وضع الله هذا المعيار أمام الإنسان ليكون مناراً لطريق السعادة يميز بين الخير والشر في السلوك وبين الحق والباطل في الرأي والهدى من الضلال ، والنور من الظلام في هذه الحياة ﴿ لقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ (المائدة : ١٥) ،

﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ (إبراهيم ١)، غير أن تحديد الإسلام لسلوك الإنسان لم يكن على مستوى واحد في مختلف الميادين ، فهناك مجال قد حدد فيه السلوك بدقة من حركات وسكنات وذلك فيما يتصل بتحديد علاقة الإنسان بربه ، وهناك مجال آخر أقل تحديداً من المجال السابق وهو مجال التعامل الاجتماعي ، فليس هناك تحديد زمني وحركي للسلوك ولكنه سلوك خاضع لقواعد ومعايير عامة تحدد مجال السلوك وأهم هذه :

١ ـ مقتضى الإيمان بالله أي أن يضع الإنسان نفسه موضع غيره عند التعامل معه، يقول الرسول ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وقد ربط الإسلام بين العقيدة والأخلاق ربطاً لا انفصام له.

٢ ـ الإخلاص : من معايير التعامل الاجتماعي في الإسلام إخلاص النية لله عند العمل والتعامل مع الغير لأن الله يجازي على العمل بمقدار الإخلاص له فإن بعض الناس يكفرون بالمعاملة الطيبة إذا لم يحصلوا على نظيرها أو لم يأخذوا مقابلها وهذا ليس من الإخلاص .

٣ ـ الصدق : وهو مطابقة التعبير للحقيقة أياً كان لون التعبير بالقول أو بالحركة أو بالإشارة أو بالتأليف ، فإذا كان التعبير عن الذات وجب أن يكون مطابقاً لما يدور في النفس وإذا كان التعبير عن أمر خارجي وجب أن يكون مطابقاً له .

٤ ـ المحافظة على العهد واداء الأمانات : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ (النساء :٥٨) .

٥ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : هذا المبدأ من أهم الضوابط للقيم الإسلامية والتطابق العام معها .

٦ ـ التنافس في الخير ومعالي الأمور : قال ﷺ : «إن الله تعالى يحب لكم معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها» (الجامع الصغير جـ ١ ص ٧٥) .

٧ ـ التعاون على الخير : قال تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ (المائدة : ٢) .

٨ ـ المساواة والعدالة بين الناس : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (الحجرات : ١٣) .

٩ ـ إتقان العمل : قال ﷺ : «يحب الله العامل إذا عمل أن يحسن ﴾ الجامع الصغير جـ ٢ ص ٢٠٥ .

١٠ ـ الاعتدال والتوسط في الأمور التي تقبل الإفراط والتفريط : قال تعالى : ﴿ كلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ (الأعراف : ٣١).

١١ ـ اتباع سلوك الخير وتجنب سلوك الشر وهذا أهم معيار جامع مانع للسلوك : قال تعالى : ﴿ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ (آل عمران ١١٤) .

وإذا دققنا النظر في هذه القواعد وجدناها مبادىء عامة موجهة توجه الفرد داخل الإطار الاجتماعي توجيهاً معيناً لا تقيد حركات الأفراد وصور أفعالهم لا من حيث الكم ولا من حيث الكيف ولكنها تقيده بتوجيه أخلاقي عام من حيث عدم الإضرار بالغير والعمل من أجل الغير بروح الإخلاص والمحبة والإسراع إلى الخيرات والتسابق إليها .

ثم هناك ميدان آخر فيه حرية السلوك أكثر وضوحاً من الميدان الاجتماعي وهو ميدان العمل للمكاسب الشخصية كالبحث العلمي والعمل الزراعي وما أشبه ذلك فهو مقيد هنا بقاعدتين فحسب : قاعدة عدم الكسب عن طريق الحرام وقاعدة عدم الإضرار بالغير (انظر في هذا : مقداد يالجن . الاتجاه الأخلاقي في الإسلام . الطبعة الأولى ص ٢٧٧ وما بعدها) .

وبالنظر إلى هذا التحديد الأخلاقي لمعايير التعامل هل يستطيع قائل بأن الفكر السابق لمنجزات علماء الاجتماع في القرن العشرين لا يعتبر علمياً وإذا قيل ذلك فهل نقبل به نحن المسلمين ؟ نعم إن كثيراً من معاييرنا غير علمية في نظر علماء الاجتماع الغربيين لأنها تعتمد على الغيب والوحي والرسالة وهذه أمور مرفوضة من الناحية العلمية عندهم فهل نتبعهم في

الآخر بأسلوب آخر قد تكون الدقة العلمية فيه أقل تحققاً ، ورفض كل هذه الجهود العلمية من قبل علماء الاجتماع المحدثين يفقدنا كما أشرت كل هذه الموروثات العلمية وفيها أجزاء لا يجوز بحال طرحها أو تركها لأنها جزء من عقيدتنا كما أن البحوث العلمية الحديثة لم تصل إلى المستوى الذي حدد في الشريعة الإسلامية منذ وقت مبكر خاصة في الجانب المعياري للقيم فالوضوح الذي تميزت به منظومة الأخلاق والقيم الإسلامية ليس مجال شك أو جدال ، لكن النقد الذي قد يوجه إلى القيم الإسلامية يوجه إلى مدى التطابق معها ، وهذا في الواقع نقد يجب ألاّ يوجه إلى قيم الإسلام وإنما يوجه إلى المجتمعات والأفراد في عدم تطابقهم مع معاييرهم وقيم دينهم الذي يؤمنون به ، والذي يعتمد النسق القيمي عليها في تكوينه .

ومع أن هذه القيم هي فرع للدراسات الأخلاقية النظرية وهذا جانب ضعف لها في نظر علماء الاجتماع إلا أن مفهوم الأخلاق في الإسلام أنها نظام من العمل من أجل الحياة الخيرة ، أي طراز سلوك وطريقة تعامل مع الغير أياً كان هذا الغير إنساناً كان أم حيواناً أو غير حيوان من حيث ما ينبغي أن يكون عليه هذا السلوك كسلوك إنساني تجاه الغير ، وذلك بناء على مكانته في الكون ومسؤوليته التي يجب أن ينهض بها وبناء على ما وضعه له خالقه من أهداف هذه الحياة ، فنظام الأخلاق ليس جزءاً من نظام الإسلام فحسب بل إن الأخلاق هي جوهر الإسلام وروحه السارية في كل جوانبه ، فالنظام الإسلامي عموماً مبني على فلسفته الخلقية أساساً ومصداق ذلك قول الرسول ﷺ :

هذا ؟! إن لدينا قيماً محددة وواضحة في كثير من جوانبها وهو ما يتعلق بالقيم المنصوص عليها في القرآن والسنة والتي ليست مجالاً للاجتهاد أما القيم التي حددت أطرها العامة ترك للاجتهاد البشري التحرك في حدودها فإن المجال للبحث العلمي متروك للخوض بها وتلمس أفضل السبل للسلوك الاجتماعي السليم من خلالها . فما يتفق مع مناهج الغرب نسايرهم في أساليب البحث وما لا يخضع لمناهجهم ـ وينبغي أن لا يخضع ـ فإنه أكرم وأصدق من أن يخضع لمجال التجريب .

«بعثت لأتمم حسن الأخلاق»[1] ، ومجال الأخلاق في الإسلام هو مجال الحياة كلها ، لأن الأخلاق إذا كانت نمطاً للعمل وللسلوك في الحياة فإن عمل الإنسان لمساعدة الآخرين أخلاق وعمله لكسب قوته وقوت من يعوله أخلاق ، وإيمانه بالله وعبادته له أخلاق فهذا كله يتنظمه نسق قيمي أخلاقي يحدد للفرد المسلم وللجماعة المسلمة أنماط سلوكها وتعاملها ، وأي نظام قيمي آخر لا يقوم بغير هذه المهمة .

تعريف القيم :

تعتبر لفظة القيم من الكلمات الشائعة ليس بين علماء الاجتماع والمهتمين بالدراسات النفسية الاجتماعية ولكنه بين قطاع كبير من عموم الدارسين بل وكثير من المهتمين بالثقافات العامة ، إلا أنه مع هذا الشيوع والانتشار لهذه المفردة ، فإن معناها ولو بشكل تقريبي يكاد يكون محل اختلاف . وأوضح دليل على ذلك أنه لا يوجد تعريف محدد للقيم حتى الآن يمكن الاعتماد عليه بل إن العناصر المكونة للتعريف ليست محل اتفاق لدى علماء الاجتماع ، ولا غرابة في هذا إذا أدركنا أن القيم تتناول ضمن ما تتناول ، تصورات الإنسان عن نفسه وماضيه ومستقبله وعلاقاته بالآخرين ونظرته للوجود ، ولا شك أن هذه الأمور مرت بتجارب إنسانية مختلفة بينها من التفاوت والاختلاف الشيء الكثير ، وإذا نظرنا إلى مصدر هذه التصورات في تاريخ البشرية نجده يمتد إلى ما وراء الطبيعة أو يقرب إلى المدركات الحسية فقط وفي هذا من أسباب الاختلاف في التفسير والتعريف الشيء الكثير ، كما أن النظر إلى الجوانب الفردية بما تحويه النفس الإنسانية من دوافع ورغبات يجعل التعريفات المهتمة بهذه الجوانب تضعف جانب المجتمع في التأثير في القيم وعكس هذا ينطبق على من يعتني بدور المجتمع والعقل الجمعي وتأثيره على تحديد القيم .

---

(١) الإمام مالك . الموطأ . الجزء الثاني . باب حسن الخلق ـ دار إحياء الكتب العربية ص ٩٠٤ .

وأسوأ من هذا الاختلاف وعدم الوضوح أن كثيراً من الباحثين الاجتماعيين يحاول إغلاق المعرفة وقصرها على ما توصل إليه هو ولا يعترف بجهود غيره وأخطر من ذلك حصر مصادر المعرفة في المدركات الحسية وإنكار غيرها أو اعتماد العقل مصدراً وحيداً للمعرفة وإنكار المصادر الأخرى ، وهذا اتجاه خطير في مجال البحث العلمي خاصة في الأمور التي هي مجال للاجتهاد والبحث وتقبل تعدد الآراء ، فمثلاً من يعرف قيمة الشيء بأنها درجة نفعه المادي ، ومن ثم تصبح الموضوعات الروحية عديمة النفع ، وتسقط القيم الروحية والجمالية من نسق القيم ، لأن القيم الروحية تتحرر من النفعية بمفهومها الفردي والجماعي وكذلك من يرى أن القيم مرتبطة ارتباطاً كلياً بالأشخاص وكيفية الإحساس بها في لحظة الحكم وأنه لا وجود مجرد للقيم بدون ذلك الإحساس الفردي بها ، وعكسه من يرى للقيم وجوداً خارجياً عن الأشخاص فالقيم في نظر أصحاب هذا الاتجاه دائماً تتصف بصفة مستقلة عن كيفية الإحساس بها في لحظة الحكم وهي تطابق نوعاً من الحقائق الموضوعية خارج الذات . وكل من هذين الطرفين مبالغ فيهما فلا شك أن للقيم وجوداً مجرداً خارج الذات وأن الأحكام المعيارية للقيم لا تستمد من شعور الأفراد بها أو عدمه وهذا منطبق على كل القيم السماوية . وكذلك من يريد إنكار دور الفرد وأحاسيسه ودوافعه وتفاعله مع المواقف في حكم القيمة غير موافق للواقع فكثير من القيم مستمد من الفطرة الإنسانية المهتدية والسليمة من الانحراف .

ودوركايم عندما قال إن القيم مثل كل الظواهر الاجتماعية من صنع المجتمع ولها قوة ملزمة رغم أنها أمور مرغوب فيها [1] وأكد تحت تأثير نظريته الاجتماعية أن القيم تصورات تتميز بالعمومية والإلزام ، فأفراد المجتمع يشتركون في قيم واحدة أو معايير متماثلة يفرضها عليهم المجتمع بما له من قوة القهر ، كذلك أنكر دوركايم إمكانية تحرر الأفراد من قيم المجتمع ، واتخاذ

---

(١) (يرى الباحث أن) ليست كل القيم مرغوب فيها فكثير من القيم تتجه لمنع أمور مرغوب فيها غريزياً ومع ذلك لا تنكر أنها من القيم الاجتماعية المطلوب التطابق معها من الأفراد .

موقف صريح من هذه القيم ، سواء بالرفض أو التمرد أو عدم القبول أو اللامبالاة وإمكانية خلق [١] الأفراد لقيم جديدة ، ورفض فصل عناصر القيم عن البناء الاجتماعي ، وهذه النظرة الدوركايمية قاصرة فقد أغفلت كثيراً من الحقائق الواقعية ، ونحن نرى أن التمرد على القيم ظاهرة شائعة بين الشباب ، تلك القيم التي يصفها دوركايم بصفة القهر والإلزام والضرورة فهم ينبذونها ، ويتمردون عليها ، ويدعون إلى قيم جديدة [٢] .

هذه نماذج من أسباب الاختلاف في المنطلقات والتوجهات نحو تعريف القيم والظلال التي يلقيها هذا الاختلاف على رؤية المعنى المراد .

ولعل من أعدل التعريفات التي وردت في كتب الاجتماع ما ورد عن كل من «كليد كلاكهون» و«كاتون» و«بارسونز» ومع موضوعية التعريفات التي أوردها كل من هؤلاء وواقعيتها إلا أنها أضعفت جانب انفصال القيم عن الأفراد أو المجتمع واستبعد كل منهم تصوراً للقيم من خارج نسق الشخصية أو النسق الاجتماعي ولا شك أن هذا الاتجاه وإن كان مقبولاً في الجوانب التطبيقية والميدانية ودراسة الواقع الفعلي للحياة الاجتماعية إلا أنها تخفق وتمنى بالفشل لو طبقت على ما ينبغي أن يكون وهي الجوانب المعيارية التي عني بها نسق القيم في الفكر الإسلامي .

ونورد هنا تعريفاً للقيمة قال به «كليد كلاكهون» ولاقى قبولاً من كثير من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا وهو مقبول إلى حد ما لولا الملاحظات السابقة حول المعيارية ، والتعريف بقول «القيمة هي تصور واضح محكم أو مختلط عن الموضوع المرغوب فيه ويخص فرد أو جماعة ويتحكم في اختيار أساليب الفعل ووسائله وغاياته من بين الممكنات» .

وبعد هذا الاستعراض للتعريفات التي قدمت للقيم يمكن أن نضع تعريفاً نحسبه ملتزماً بأهداف وأغراض ووظائف القيم كما أنه ينطبق على القيم

(١) سبق التعليق على كلمة (خلق) وأنه ينبغي عدم التعبير بها في مثل هذا المجال .

(٢) انظر : د. سامية محمد جابر . الضوابط الاجتماعية والقيم ، دار المعرفة الجامعية اسكندرية ص ٣٠٩ .

الإسلامية وغيرها من قيم المجتمعات الأخرى وسوف يلتزم البحث به في التفسير للأمور ذات العلاقة بموضوع القيم خلال البحث في مراحله المختلفة . فالقيم إذاً : (معاني وأحكام معيارية توجه ، وتقوم سلوك الفرد والمجتمع) وهذا التعريف لا يخص القيم في المجتمعات الإسلامية أو غيرها وإنما هو تعريف يمكن تطابقه مع معنى القيم في كل مجتمع وإن كان هناك بعض الخصوصيات لبعض المجتمعات ، ففي المجتمعات غير المسلمة يشترط في القيم أن تنال قبول ذلك المجتمع لها أو غالبيته على الأقل بينما هذا الشرط ليس ضرورياً في المجتمع الإسلامي ولكنه يتحقق في الغالب ويظهر أثر هذا الفارق بين المجتمعات المسلمة والمجتمعات الأخرى إنه عندما يصاب نسق القيم بعدم القبول من المجتمع فإن رجال الفكر في المجتمعات المسلمة ينشطون في العمل على دفع المجتمع بشتى الوسائل للتطابق مع القيم الإسلامية الأصيلة وبناء القناعات من جديد بضرورة العودة إلى ذلك النسق الأصيل ، بينما الحال في مجتمعات غير المسلمين لا يسير في هذا النهج بل يتجه عمل قادة الفكر هناك إلى إيجاد قيم جديدة تنال قبول المجتمع وإسقاط القيم الأولى التي فقدت القبول .

كما أن هناك فارقاً آخر بين المجتمعات الإسلامية وغيرها من المجتمعات فيما يتعلق بالقيم فالمجتمعات الإسلامية لا تعتبر القيم ذات أصالة إسلامية ما لم تكن أصيلة المصدر ، وهو من خارج الفرد والمجتمع ، من مصدر الإسلام ، الوحي فقط بينما تجد مجتمعات غير المسلمين لا تعترف بمصادر للقيم إلا من داخلها [١] .

والفارق الثالث الذي ينبغي التنبه إليه عند تعريف القيم هو التطابق مع الفطرة السليمة للإنسان فقيم الإسلام بكاملها من أعلاها وهو الإيمان إلى أدناها - وليس فيها دنو - تتفق مع الفطرة الإنسانية ولا تتعارض معها وكل تعارض يرى

---

(١) هذا في العصور الحديثة أما قديماً فكان للفلسفة دور بارز في تشكيل القيم وإسناد بعضها لما وراء الطبيعة ، وبعضها يتصف بالطابع الخرافي .

في الظاهر فسببه الانحراف بالفطرة الإنسانية عن طبيعتها الإنسانية التي أوجدت عليها ، قال تعالى : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم** ﴾ (سورة الروم آية ٣٠) قال في تفسير (ذلك الدين القيم) : أي التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القيم المستقيم [(١)] .

هذه ضوابط عامة لتعريف القيم من المنظور الإسلامي وإن كان التعريف المذكور هنا ينطبق على القيم أياً كان المجتمع الذي تنتمي إليه .

والأوصاف التي تتردد في التعريفات المختلفة للقيم من المثالية والواقعية والدينية والفردية والاجتماعية أوصاف مرتبطة بما في ذهن واضع التعريف والأهداف التي يرى أن القيم تحققها والمنطلقات التي تصور القيم بها حسب تصوره ، وهذه الصفات تنطبق على القيم الإسلامية ولكن من تصور إسلامي ووفق معايير الإسلام .

فالقيم الإسلامية يمكن أن توصف بالمثالية لكن ليس بالمعنى الاصطلاحي المحلق في البعد عن المجتمع ، فالقيم الاسلامية مثالية بمعنى أنه لن يوجد قيم أفضل منها لأن المعايير لا يمكن أن تكون دقيقة إلا إذا كانت من مصدر مطلع على خفايا الأمور ودقائقها وحيث إن القيم تتصل بالتصور لعلاقة الفرد بخالقه وعلاقة الأفراد فيما بينهم وعلاقة الأفراد بالكون كله ويحتاج واضع هذه القيم إلى الإحاطة الشاملة بدقائق كل هذه الأمور ، فمن يدعي لنفسه هذه الإحاطة والعلم الشامل بكل هذا إن المثالية بهذا المعنى مطلب لكنها لا تتحقق إلا في القيم المهتدية بعلم الله وحده .

كما يمكن وصف القيم الإسلامية بالواقعية لأنها ليست خيالات محلقة بل طبقت في واقع الحياة وانتقلت من الجانب النظري إلى عالم الواقع وتحت إشراف الرسول ﷺ وفي عهد نزول الوحي الذي سدد الله به التطبيق المثالي في

(١) محمد علي الصابوني : مختصر تفسير ابن كثير المجلد الثالث ص ٥٤ ، دار القرآن الكريم ط ٧.

واقع أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم وقدموا للبشرية أنموذجاً مثالياً وواقعياً لنسق القيم الإسلامية .

كما أن القيم الإسلامية يمكن أيضاً أن توصف بالفردية[1] حيث تتوجه أول ما تتوجه إلى شخصية الفرد المسلم وتعمل على صياغتها وفق المعايير الإسلامية ويتجه إليها التكليف الإسلامي في الحياة الدنيا ثم تحاسب يوم القيامة وفق ما عملت ، فالفردية بهذا المعنى اعتمد عليها التشريع والتكليف الإسلامي في كل أموره وهذا لا ينفي الاجتماعية عن القيم الإسلامية فهي لا تظهر إلا من خلال التعامل مع المجتمع وللجماعة مكانتها المعروفة في الإسلام ، ولسنا في حاجة لإثبات ذلك .

أما أنها قيم دينية فهذه الصفة التي يهرب منها بعض علماء الاجتماع ـ بكل أسف ـ لارتباط الدين بالخرافة في أذهان البعض منهم ، هذه صفة مصدر فخر حقيقي لهذا النسق الفريد من القيم الذي تميز بصحة المصدر والانسجام مع الفطرة الإنسانية .

مصادر القيم :

من الواضح أن موضوع القيم من حيث وجودها وانها معايير يقاس عليها السلوك الإنساني ومحدد واضح للاتجاهات والأنشطة السلوكية أمر يكاد أن يكون موضع اتفاق حيث إن الأفراد يجدون أنفسهم أمام بناء من المعايير يتعلق بنوع من التقويم يعتمد أساساً على سلم القيم .

لكن ما هو مصدر هذه القيم ؟

لقد اهتم الفلاسفة والاجتماعيون بدراسة القيم وإن كانوا قد اختلفوا في تفسير منابعها وتحليل مضمونها فالفلاسفة يصفونها بأنها أفكار مجردة في الذهن

(١) الفردية عندما توصف بها القيم الإسلامية يكون من حيث تأثر الفرد بمعيارية القيم وضبط وجدانه وسلوكه من خلالها ، ومن حيث مسؤولية الفرد عن أفعاله في الحياة ثم المحاسبة عليها ـ في الدنيا أو في الآخرة ـ فهي فردية بهذه الاعتبارات ولا تعني الفردية أن يكون الفرد مصدراً للقيم .

وقد اهتمت مباحث الفلسفة بدراسة القيم فالمنطق يبحث في قيم الحقيقة والأخلاق تبحث في قيم الخير ، وفلسفة الجمال تبحث في القيم الجمالية ، ويرى بعض الفلاسفة أن القيم ركيزة أولية قام عليها البناء الفكري ، ولا تتعرض الدراسات الفلسفية الحديثة وفروعها للقيم في الواقع الملموس ، لكنها تدرسها كأفكار مجردة بعيداً عن عالم الواقع ، ومن ثم يزعم بعض المفكرين أن القيم موضوع يقع خارج العلم لأن القيم شيء عقلي مجرد له وجود سابق على وجود الأفراد والمجتمعات . وقد حاولت الفلسفة التجريبية المعاصرة اقتلاع هذا الاعتقاد وكانت النتيجة الحتمية هي أن كل واحدة من هذه المدارس الفلسفية الحديثة تصدت للنظام التقليدي وحاولت إقامة نظام جديد ، فهدف كل منها هو تدمير الأسس التي قام عليها نسق القيم القديم وإبداله بنسق أكثر حيوية ، لقد حاولت الفلسفات الحديثة أن تحرر الإنسان من قيمه ومن أي نسق سابق أولي ولكنها شعورياً أو لاشعورياً حاولت أن تقتلع الإنسان كلياً من تقاليده ومن انساق اعتقاده ومجتمعه وكانت النتيجة الحتمية مذاهب الشك ، وأخيراً فإن معظم الفلاسفة اعتبروا التقييم عملية ذاتية وإننا لا نستطيع ملاحظة القيم ، ولهذا فإن القيم والتقييم خارج نطاق التفسير العلمي ، وبكلمات أخرى ، فإن الفلاسفة قد تجنبوا أن يكتبوا أي عبارات واضحة عن مناهجهم . هذا النقص جعل مناقشة المناهج الفلسفية أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً وغير قابل للتحقيق . كذلك لم يحاول الفلاسفة أن يستخدموا ما توصل إليه في الدراسات الأخرى الحديثة لبعض العلوم لإثراء فهمهم عن القيم ونسق القيم ، فهذه العزلة جعلت معالجتهم للقيم معالجة أكاديمية وليس لها الاستخدام العلمي في المجتمع[1] .

ومع هذا الاختلاف الواضح بين المذاهب الفلسفية القديمة والحديثة حول موضوع القيم وأسبقيتها وإطلاقها ونسبيتها نجد الخلاف في المصدر

---

(١) انظر د. محمد أحمد بيومي ، علم اجتماع القيم . دار المعرفة الجامعية اسكندرية ص ٧٢ .

يتفاوت تفاوتاً كبيراً فنجد أن البعض يرى أن مصدر القيم هو السماء ، في حين يراها البعض الآخر في العقل والخبرات الإنسانية والذين يرونها معزولة عن السماء يختلفون هل هي من صنع الفرد أو من صنع المجتمع ؟!.

فالفرد في بعض الاتجاهات هو صانع القيم والمنشىء الوحيد لها وما القيم إلا ترجمة للمشاعر الفردية الشخصية بكل فرد منهم، والملكة الفردية في وسعها تصور الأمور وإدراك المثل العليا وبناء على ذلك فإن قيم الأشياء يتعلق تقديرها بالمثل العليا المدركة من قبل الأفراد.

بينما يرى بعض علماء الاجتماع أن المجتمع هو صانع القيم ويتزعم هذا الاتجاه دوركايم ويبالغ فيه إلى أن يرى المجتمع صانعاً لكل تراث الحضارة والقائم على رعاية هذا التراث مما يجعل المجتمع سلطة آمرة وفي نفس الوقت عون مرغوب فيه لتحقيق التوافق مع القيم الاجتماعية .

ولا يرغب الباحث الخوض في وجهات النظر الفلسفية التي تناولت هذه القضايا ووفرت كميات كبيرة من الإنتاج الفلسفي والأبحاث النظرية الجدلية في موضوعات القيم ونماذجها ومضامينها وأصلها ولن يتناولها البحث إلا بقدر الضرورة التي تبين وجهات النظر العامة للاستئناس بها في تحديد ملامح الصورة التي يحتاجها البحث .

فالقيم التي هي موضوع بحثنا هي القيم الإسلامية وإن كانت من وجهة النظر الاجتماعية جزء من قيم المجتمع العالمي الذي يخضع في الدراسة النظرية والميدانية للنظريات العامة في البحث إلَّا أنه ليس هناك خلاف حول خصوصية المجتمعات في بعض مكوناتها ومنها القيم .

أصل القيم في المجتمع المسلم :

القرآن الكريم كتاب الإسلام أنزله رب العزة منهج حياة شاملاً لجميع أوجه النشاط الإنساني في كل المجالات فربى به النبيّ ﷺ جيلاً من المؤمنين

بمعنى أنه ليس من حق الإنسان أن يستبدلها بغيرها، وما نلاحظه من تغير واقع في المجتمعات يعتبر مخالفة لتلك القيم وبعداً عنها وعدم التزام بمعياريتها.

والبحث في موضوع القيم في المجتمعات الإسلامية ينبغي أن ينطلق من قاعدة أساسية هي أن هذه القيم الأصيلة المستمدة من الوحي هي معايير ثابتة غير قابلة للاستبدال، وأن البحث في واقع المجتمعات الإسلامية ينبغي أن يتجه لإيجاد سبل العودة للتطابق مع قيم الإسلام لتؤدي هذه القيم إحدى وظائفها الأساسية (المعيارية) فكل بعد عن قيم الإسلام هو بعد وانحراف بالمجتمعات المسلمة ودفع لها إلى الهلاك الذي حذرها الله منه عند عدم تمسكها بدينها. هذا الدين الذي جمع كل القيم التي توجه كل النشاط الإنساني في جميع المجالات لتحقيق وظيفة الاستخلاف في الأرض ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾[1] وذلك الاستخلاف لا يتحقق إلاّ بعمارتها وفق ما أراد الله ولا ضابط لذلك إلاّ ما جاء عن الله وترك الأهواء والرغبات التي تجر للانحراف عن ذلك المنهج السوي.

ويمكن القول إن ما زعمه من قال بأن الفرد هو صانع القيم لأنها عبارة عن المشاعر الفردية الشخصية الخاصة بالأفراد، نقول إن هذا لا يستقيم مع منهج الله حيث أن الله أمر بمخالفة هوى النفس وعدم الانصياع لرغباتها وجعل مخالفة النفس قيمة معيارية يعطي من يرتقي إلى تحقيقها الجزاء الأوفى كما قال تعالى: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى﴾ (النازعات ٤٠ ـ ٤١) وكذلك بالنسبة لمقولة أن المجتمع هو صانع القيم باختصار يقال فيها: إن قيم المجتمعات الضالة عن هداية الوحي كانت موضوع الرسالات السماوية ولم يرسل رسول من الرسل عليهم الصلاة والسلام إلاّ لتغيير تلك القيم الضالة واستبدالها بالهداية الإلهية فكل رسول من رسل الله كان يجابه قيم المجتمعات ويعلن الحرب عليها ويستمر في دعوته إلى أن يحقق

---

(١) سورة البقرة الآية: ٣٠.

الغاية من رسالته وهي إقامة القيم السماوية مكان القيم الأرضية أو يهلك دون ذلك.

وعندما ننفي أن يكون المجتمع أو الفرد مصدراً للقيم ينبغي التنبه إلى أن ذلك ليس إنكاراً للدور الكبير الذي يقوم به المجتمع في التأثير الواضح والجلي على الأفكار والثقافات بشكل عام وما يمارسه العقل الجمعي من تأثير على قيم المجتمعات أياً كان دينها أو فكرها أو انتماؤها ولكن الذي ننفيه ونؤكد عليه هنا، أن هذه القيم التي مصدرها المجتمع فقط والمنبت الصلة عن الوحي الإلهي لا يمكن أن تكون قيماً أصيلة مهما تعارف عليها المجتمع أو تطابق معها في سلوكه ما لم تكن مستمدة من هدى الدين الصحيح أو وفق الفطرة الإنسانية السليمة من الانحراف.

كما أننا لا ننفي تأثير الفرد في القيم لأن النفس الإنسانية بما فيها من عمليات نفسية متفاعلة باستمرار بدأ من التأثر بما حولها ووصولاً إلى الشروع في الفعل والاستجابة للمؤثرات الخارجية لا يمكن إغفال أثرها فحقيقة السلوك الإنساني عموماً هو من هذه الاستجابات الفردية للمؤثرات المختلفة ولا يمكن إبطال غرائز الفرد وفطرته بحجة أن المجتمع ينظم تلك الغرائز والدوافع، فالمجتمع فعلاً يمارس نوعاً من التنظيم للغرائز لكنه لا يلغيها، والمجتمعات التي أرادت إحداث نظم اجتماعية تتعارض مع الغرائز الفردية تواجه فشلاً ذريعاً في استقرارها، للتصادم الفطري بين نظمها وما أودعه الله في النفس الإنسانية فتأثر القيم بما في النفس الإنسانية أمر لا يمكن تجاهله أو إغفاله، لكن لا يمكن اعتبار هذه الغرائز والدوافع الفطرية الإنسانية قيماً اجتماعية ثابتة لا يمكن التدخل فيها أو ضبطها وإلا فما الفرق بين الإنسان والحيوان في هذا.

فلا يمكن بحال أن تكون الدوافع الفردية مصدراً مطلقاً أصيلاً للقيم لما نلاحظه من ضوابط وموجهات تحكم الأفراد في تصرفاتهم وتحد من سيطرة الغريزة والدافع الفطري وتوجهها لمصلحة الفرد والمجتمع مهما اختلفت المجتمعات في أشكالها وتوجهاتها العقدية والفكرية.

القيم والتغير :

من الواضح الآن أن القيم كانت موجودة في المجتمعات وأن الناس يتعاملون وفق المرغوب والممنوع من السلوك الذي يمكن أن يسمى النسق القيمي في عرف علماء الاجتماع حديثاً لكن هذه التسمية الاصطلاحية لم تكن معروفة قديماً إلاّ أن معناها في الحياة العملية موجود ويمارس دوره في بنية المجتمع.

وبعيداً عن الجدل الفلسفي القديم والاجتماعي الحديث خاصة بين علماء اليونان قديماً وعلماء الاجتماع الغربي الحديث حول نشأة الإنسان ونظمه نقول من منطلق إسلامي أن بداية الحياة الإنسانية على الأرض كانت حياة مهتدية بهدى الله منذ أول يوم أنزل فيه آدم إلى الأرض ولم تنشأ القيم والمعارف من الصفر كما يزعم أولئك ولكنها كما ذكر الله سبحانه لبيان الحال في تلك الأيام الأولى من حياة البشر، قال تعالى : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ (البقرة ٣١) فالبشر منذ آدم عليه السلام قد علمه الله التوحيد وما يبنى عليه من أمور الدين وسلك بنوه في حياتهم وفق تلك المعايير الإلهية إلاّ من غلبت عليه الشقا والانحراف عن الصراط المستقيم فخالف القيم في حياته، وقد مرّت البشرية في تاريخها الطويل بفترات من الضلال والانحراف والانحطاط البشري فيما يتعلق بالقيم والهداية والضلال لكن عناية الله بخلقه كانت تقتضي أن يبعث لكل أمة رسولاً يجدد لهم دين التوحيد ويعلمهم ما هم في حاجة إليه من المعرفة اللازمة لسلوكهم طريق الحق وهكذا كلما ضلت أمة من الأمم وأصيبت بالغواية والجهل المطبق الذي لا تتمكن معه من رؤية طريقها في الحياة جدد الله لها أمر دينها بنبي جديد ليوضح لها الطريق، ولا يخفى من تاريخ الرسالات السماوية من نوح عليه السلام إلى نبينا محمّد ﷺ أن فترات الضلال بين الرسالات كان يتكون فيها قيماً تخالف دين الرسل تصبح مقاييس للحياة الإنسانية فيتحولون من التوحيد إلى الشرك ومن الفضائل التي جاء بها الرسل إلى رذائل من الفكر البشري المنحرف فتصبح المادة إلهاً والقوة شريعة والرذيلة خلقاً وسلوكاً.

وكان النبيّ عندما يبعث يجابه هذا الركام الهائل من القيم الضالة ويستمر الصراع إلى أن يذوب أحد النسقين من القيم في الآخر وتكون له القوة في حياة الناس، وهكذا كان شأن الرسالة الخاتمة رسالة محمّد ﷺ في شأن القيم (فقد أغلق القرآن الكريم أبواب العلائق جميعاً إلاّ ما كان منها قائماً على أساس الإيمان، وجعل من العقيدة صلة أقوى من صلة الدم والرحم، وجعل من المؤمنين أمة واحدة تجمعهم رابطة الإيمان، وعلى أساس هذه الرابطة أقام الرسول ﷺ مجتمعه الجديد في المدينة، فآخى بين المؤمنين أخوين أخوين في الله، وكان لهذه الأخوة قوة القرابة والنسب، بل كانت أقوى صلة وأبعد أثراً وأعمق مفعولاً من صلة الدم والنسب: فكانوا يتوارثون بهذا الآخاء إرثاً مقدماً على القرابة.

وكانت عناية القرآن الكريم بالغة بجعل الإيمان هو القيمة الأولى في المجتمع، فصاغ نفوس المؤمنين صياغة جديدة على هذا الأساس، ونقلهم نقلة هائلة من قيم الجاهلية إلى قيم الإسلام، فأصبح الإيمان في المجتمع المسلم الجديد هو الميزان الذي توزن به الأعمال، والمنبع الذي تنبع منه فضائل الخير، والأساس الذي تقوم عليه المساواة الحقة بين جميع أفراده، يتساوون في الحقوق والواجبات، ويتفاضلون ـ عند الله ـ بالإيمان والعمل الصالح.

وكان لاستقرار هذه الحقيقة في القلوب المؤمنة وفي واقع المجتمع أثره البالغ في دفع تيار الحياة)[1] .

إن العظمة الحقيقية لهذه الأمة الجديدة لم تكن في قوة انتصاراتها العسكرية أو قوتها السياسية ونحوها مما تشاركها فيه الأمم الأخرى لكن العظمة الحقيقية في هذا النسق الجديد المتكامل من القيم الجديدة التي أرست عليها

---

(١) انظر محمد شديد: قيم الحياة في القرآن، الشعب، ص ٩٨.

شؤون الحياة عامة ونظم بواسطتها السلوك والأخلاق والتعامل بين الخلق وربهم وبين الخلق فيما بينهم.

لقد أرسى الرسول ﷺ دعائم هذا البناء الاجتماعي الجديد على هدى القرآن وما فيه من قيم سامية كونت النظام العام والخاص للعلاقات في هذا المجتمع الجديد، وجعل من هذه القيم الجديدة ميزاناً لحياة الناس أفراداً وجماعات، ولوضوح أثر القيم في البناء الاجتماعي فقد حرص الرسول ﷺ على هدم كل قيمة جاهلية لعلمه بأن بقاء القيم الجاهلية بقاء للبناء الاجتماعي المعارض للإسلام فتكررت الحوادث الكثيرة التي تثبت حرص الرسول ﷺ على ألا تبقى قيمة جاهلية واحدة والصحابي الذي قال لأخيه: «يا ابن السوداء» وعلم الرسول ﷺ بتلك المقالة كان تفسيره للحادث بقوله للقائل: « إنك امرؤ فيك جاهلية ». نعم هذه المقالة من قيم الجاهلية لأنها جعلت المفاضلة على أساس اللون، فهذا ابن السوداء وذلك ابن البيضاء لكن الإسلام لا يقيم لهذه الموازين قيمة ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1]، وهكذا استبدلت قيم الجاهلية بقيم إسلامية، بل استبدل النسق القيمي كله بنسق جديد أساسه الإيمان بالله والعمل الصالح، قال تعالى: **﴿أوَمَنْ كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس، كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها؟ كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾** (الأنعام ١٢٢).

ففي هذه الآية تصوير في غاية الروعة لمعنى القيم الإسلامية وأنها كالنور الذي يهتدي به الإنسان في طريقه فنسق القيم الذي يمثل الأوامر الإلهية الواضحة الجلية نور يضيء طريق المؤمنين لاختيار ما يعملون وما يتركون. وقد حرِّم هذا النور من بقي في الكفر الذي عبر عنه القرآن بالظلمات.

والفرق جلي واضح بين أمة تعيش بالإيمان وأمة تعيش بدونه ولذلك تكرر هذا العرض في القرآن لإيضاح المقارنات والفوارق، قال تعالى: **﴿وما يستوي**

---

(١) سورة الحجرات آية : ١٣.

الأعمى والبصير، ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات، إن الله يسمع من يشاء، وما أنت بمسمع من في القبور﴾ (فاطر ١٩ - ٢٠).

فالإيمان حياة وعكسه الموت إذ لا قيمة للحياة بدونه، فلا خير لصاحبها في الدنيا ولا في الأخرة وما ذلك إلا لفقدان معايير الحياة وضوابطها التي يستطيع بها ضبط سلوكه وعلاقاته مع ربه ومع الآخرين من بني جنسه.

وباستبدال تلك القيم الجاهلية حرك الإسلام الحياة وطورها في كل مكان حل فيه وكانت آيات التطوير شاملة لشتى الاتجاهات.

ففي الجزيرة العربية وما شابهها في البناء الاجتماعي والاقتصادي أحدث حركة ضخمة حين حول المجتمع القبلي إلى «أمة» متماسكة تحكمها حكومة مركزية واحدة، وتطبق فيها قانوناً واحداً، ويجمعها في النهاية شعور الأمة الموحدة لا المقاطعات المستقلة ولا الأقاليم المتفرقة المنعزلة، وفي البلاد ذات الحضارات السابقة أحدث حركة مماثلة حين حرر الأمة من عبادة الوثن الحاكم، تنشط في مجالها المتحرر مختلف ألوان النشاط[1].

رسوخ القيم :

كثرت العبارات التي توصف بها القيم من وصف يميز القيم من مجتمع عن مجتمع آخر إلى أوصاف تحدد النظم التي نشأت فيها القيم إلى غير ذلك من النعوت لتميز الأمكنة والأزمنة والتطور والتخلف، إلا أن وصف الرسوخ عندما توصف به القيم يكاد يكون وصفاً مشتركاً لكل القيم مهما اختلف زمانها أو مكانها أو عقيدة أصحابها وولاءاتهم الفكرية والسياسية.

وسيتناول هذا البحث (رسوخ القيم) من جانبين من حيث تأثير التنشئة الاجتماعية وما يتم فيها من اكتساب للقيم واندماجها في فترة الطفولة بشكل خاص وما يتبعها من عمليات التكوين الثقافي عامة هذا أولاً. وثانياً من جانب

(١) انظر محمد قطب، التطور والثبات في حياة البشرية. دار الشروق ص ١٢.

التوافق مع الفطرة الإنسانية وتأثير ذلك في رسوخ القيم.

أولاً : التنشئة الاجتماعية ورسوخ القيم :

إن نسق القيم لا ينشأ تلقائياً لكنه يستدمج بواسطة الشخصية وبصفة تدريجية أثناء توحد الإنسان مع ثقافة المجتمع خلال عمليات التنشئة الاجتماعية، فعملية اكتساب القيم عملية تعلم لأن الإنسان في بداية حياته لا يمتلك أية قيمة، بل تلقن له، أو يتوحد معها أثناء تفاعله مع والديه، وعلينا أن ندرك أن القيم من مقومات شخصية الصغار، كما أنها من مكونات شخصية الكبار، فالصغار باعتبارهم عنصراً من العناصر المكونة للمجتمع يكتسبون قيمة ويعبرون عنها في أحاديثهم وكتاباتهم وتصرفاتهم وتفضيلاتهم. ويعتمد نمو الشخصية إلى حد كبير على مدى اتساع مجال القيم التي يواجهها الطفل أثناء نشاطه، وتساعد نوعية البيئة الأسرية على إثراء شخصية الطفل وصقلها بالقيم الاجتماعية، ويبدأ طور اكتساب القيم عندما يبدأ الطفل حياته ويبدأ في التدرج في اكتساب قيم ومعايير البناء الاجتماعي.

(إن الدور الذي يلعبه النسق القيمي للفرد في عملية الإدراك شغل اهتمام علماء النفس الاجتماعي منذ عهد قريب فلا أحد منا ينكر أننا كثيراً ما نرى الأشياء من منظورنا الخاص أو أننا نفهمها وندركها بما يتفق مع مصالحنا، ومعتقداتنا وقيمنا في أحيان كثيرة، ولقد افترضت طائفة من الباحثين في مجال علم النفس الاجتماعي، أن التوجيه القيمي للفرد يدفعه ويحثه إلى بعض المنبهات الخارجية أي التي توجد في العالم المحيط به أو في بيئته. وأضافت هذه الطائفة إلى افتراضها هذا قائلة أنه عندما يكون المنبه متطابقاً مع التوجيه القيمي للموضوع (الفرد) في نفس الوقت الذي تبرز فيه قابلية الموضوع للتجاوب مع المنبه فإن هذه العملية تسمى بعملية «الصد الإدراكي» وأما الحالة العكسية وهي التي يكون التوجيه القيمي فيها بمثابة معوق يمنع الفرد من إدراك بعض جوانب بيئته، فإنها تسمى «الدفاع الإدراكي»)[1]. يتضح أن النسق

(١) د. سامية جابر : الاتصال الجماهيري والمجتمع الحديث، دار المعرفة الجامعية. ص ٤٩.

القيمي عامل هام ليس في قبول أو رفض ما يتفق معه بل قبل ذلك يظهر دور هذا النسق في قبول التعرض للمثير أو رفضه أصلاً، وأثناء التنشئة الاجتماعية وقبل أن يتكون النسق القيمي ما هو الموقف ؟ سؤال ينبغي أن يهتم بإجابته والتعرف على آثاره كل من له علاقة بالتنشئة الاجتماعية بفروعها المختلفة. إنَّ الإجابة ببساطة علمية أن الأطفال ومن لم يتكون لديهم النسق القيمي بعد، يتقبلون المدركات دونما مفاضلة لأن ميزان القبول والرفض ليس موجوداً لديهم حتى الآن. فيأتي دور التنشئة الاجتماعية وهي عملية التطبع الاجتماعي للإنسان، أو هي العملية التي تساعد على بناء الشخصية الإنسانية التي بمقتضاها يتحول الفرد من كائن بيولوجي عند مولده إلى كائن اجتماعي، يكتسب خبراته وتجاربه ممن سبقوه إلى الحياة)[1] وترجع أهمية عملية التنشئة الاجتماعية إلى أن البناء الاجتماعي يهدف إلى تحقيق التوازن بين التأثيرات الثقافية وأساليب الضغط الاجتماعي لدى الأفراد أعضاء البناء، وإلى إيجاد التوافق بين حاجات الشخصية ومطالب البناء الاجتماعي وإلى إيجاد نوع من السلوك يحقق رغبات الأفراد ويرضى عنه الآخرون ومسألة التوازن هذه تحل في مبادىء الإسلام على أفضل صورة ممكنة، فليس في الإسلام تناقض أصلاً بين حاجات الفرد وحاجات المجتمع لأن منطلق القيم ومصدرها واحد وكل قيمة لا تنبع من تلك الأصالة فليس لها احترام أو قدسية لا لدى الأفراد ولا في المجتمع نفسه وكل احترام أو تقدير لتلك القيمة الدخيلة يمثل انحرافاً عن المنهج الأصيل الملتزم ومع أن عملية التنشئة تبدأ منذ ميلاد الطفل وتستمر معه إلى مراحل متقدمة من عمره إلاَّ أنه يجب أن نؤكد على (إن التغير المستمر في عملية التنشئة وتحصيل الشخص لأنماط سلوكية وأفكار وقيم متجددة، وما يحصله من خبرات جديدة، يتأثر بتجاربه الأسرية المبكرة)[2] وتأتي أهمية

---

(١) د. نجية الخضري : علم النفس والأخصائي الاجتماعي، مكتبة عين شمس ط ١٩٨٤ ص ٣٨.

(٢) محمد سعيد فرح: البناء الاجتماعي والشخصية. ط ١٩٨٠. الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٢٥٩.

سنوات الطفولة المبكرة لما يتميز به الطفل من سهولة التكوين والتقبل مما يجعل العناصر المكتسبة في هذه الفترة أكثر استقرار، ومما يجعل أيضاً عملية السيطرة الاجتماعية تتخذ المظهر الايجابي الذي يفيد الأفراد ويحفزهم لكي يتمسكوا بالمواقف والقيم المقبولة والمثقفة مع النظم والمعايير الأخلاقية والأعراف الاجتماعية وما إليها من القوالب المقننة والمنمطة التي يصحب مراعاتها الرضا الاجتماعي عن الأفراد. مما يجعل عملية التكيف والتطابق مع المجتمع خلقاً وسلوكاً متأصلاً في الأفراد ويبعدهم عن السيطرة الاجتماعية السلبية التي تتمثل فيما تتخذه الجماعة أو يقتضيه التنظيم والنظام الاجتماعي من مجموعة من القسريات والنواهي والتهديدات والعقوبات الجزائية التي توقعها الهيئات القضائية والتنفيذية أو السلطات المتمتعة بالسيطرة في حق من يقوم بأفعال أو يتخذ مواقف غير اجتماعية أو يسلك سلوكاً يناقض القوالب الفكرية والعملية التي تعتبر مهددة أو ضارة بمقومات النظام والاستقرار الاجتماعي أو موهنة للعلاقات الاجتماعية السرية ومن الحري أن نؤكد أن كلا النوعين من السيطرة الاجتماعية (الإيجابية والسلبية) يوجدان جنباً إلى جنب ويعملان سوياً كمظهر من مظاهر الضبط الاجتماعي في كل مجتمع إنساني ويهدفان إلى تحقيق الاستقرار والتوازن والتماثل الاجتماعي)[١] ومع القناعة بأن كلاً من السيطرة الإيجابية والسيطرة السلبية مطلوب وموجود في كل مجتمع لتحقيق توازنه وتماثله واستقراره إلاَّ أن من المؤكد أن التنشئة الاجتماعية كلما أدت دورها بشكل جيد تمكنت قيم المجتمع من شخصية أفراده بشكل أكبر واستطاعوا امتصاص عناصر الحياة الاجتماعية والتوحد معها بشكل أكبر. لكن كيف يتم التوحد مع هذه القيم الاجتماعية؟ هل يتم ذلك بالتوجيهات المباشرة على أن هذه القيم محددات للسلوك ينبغي حفظها ومن ثم تطبيقها؟ أم أنها تتم نتيجة لعمليات اجتماعية متلاحقة؟ إن الفرد يولد بدون قيم وهو على الفطرة كما ذكر رسول الله ﷺ ويعتمد على والديه في كل شؤونه ويلعب الوالدان

---

(١) أحمد الخشاب. الضبط الاجتماعي. مكتبة القاهرة القاهرة الحديثة ط ٢ ١٩٦٨ م ص ٢٥.

دوراً هاماً في قبول الطفل قيماً معينة ونبذ قيم أخرى مرفوضة منهما إذ يلاحظ الطفل أثناء سلوكه اليومي مع والديه مجموعة من القيم تعلن عن نفسها أثناء تفاعله معهما. وتلقن له على شكل مجموعة من قواعد السلوك، يبدأ التوحد معها، ويتقبل الطفل القيم الأسرية ويصير ما يريده الوالدان هو ما يريده الطفل لنفسه ويساعد اكتساب الطفل للقيم الاجتماعية السائدة على إفساح المجال لوجود سلوك ذو حافز صادق داخل البناء، وتخضع الدوافع لتحقيق كل توقعات الأدوار، بيد أن الطفل لا يتوحد أثناء تفاعله مع والديه مع مجموعة القيم كلها في آن واحد بل هناك درجات متالية لتوحد القيم تتم تدريجياً أثناء عملية التنشئة في أطوار النمو المختلفة.

وثمة نتائج اجتماعية لاكتساب الطفل للقيم منها :

١ ـ إن القيم المتوحد بها والمشتركة تساعد على فهم المرء أدوار السلوك فهماً واضحاً وأدائها أداءً ناجحاً.

٢ ـ إن نسق توجيهات القيم المتوحد بها يساعد على استقرار نسق السلوك، أي تكامل أهداف الشخصية مع أهداف الجماعة.

٣ ـ إن اكتساب القيم يساعد على الارتباط بالجماعة وتكوين شعور بالتماسك الجماعي وإيمان الشخص بالمعايير والسنن الاجتماعية.

ورغم أن عملية اكتساب القيم عملية لا تقتصر على طور الطفولة، فالقيم المكتسبة في فترة الطفولة قيم راسخة، وهي الأساس الذي يقوم عليه نسق القيم فيما بعد، وتعتمد درجة تأثير الجماعات الأخرى على كيفية التوحد السابقة بقيم الوالدين، وترجع أهمية اكتساب الشخص للقيم في أطوار العمر المختلفة إلى أن القيم هي اللب الاجتماعي للشخصية وأن عدم التوحد بها يؤدي (إلى جهله بتوقعات الآخرين، وغموض الرؤية أمامه، والتخبط في سلوكه لجهله بالقيم التي تحكم المواقف لعدم مواجهته لها والتوحد بها في مواقف التفاعل السابقة ومن ثم لا تحظى هذه القيم بالتقدير، ويتسم سلوك المرء بالانحراف عن السلوك المألوف في الجماعة، ويجب أن نؤكد أن توحد الطفل

مع قيم الأسرة يعني توحده مع القيم السائدة والمتغيرة، بيد أن عملية اكتساب القيم لا تقتصر على مجال الأسرة إذ تسهم الجماعة التي ينتمي إليها الطفل عند خروجه إلى المدرسة وتفاعله مع أعضاء جدد في مواقف متعددة ومواجهته لقيم جديدة، يساعد هذا على تدعيم القيم الأسرية، واكتساب قيم جديدة، أو يضع ما توحد معه من قيم أسرية موضع الشك والنقد وإن تعارضت هذه القيم مع القيم التي ينادي بها البناء، وقد أصبحت وسائل التثقيف المعاصرة وسائل تنازع الأم والأب مسؤوليتهما في توجيه الطفل إلى قيم جديدة، إلاَّ أننا نؤكد أن القيم المتوحدة داخل الأسرة إن كانت محكمة تحتل الأفضلية لدى الطفل عندما تصارع هذه القيم مع القيم التي تحاول أن تفرضها أجهزة التعليم والتثقيف)[1] خاصة إذا كانت تلك القيم لا تختلف لدى الوالدين ولم تصطدم قيم المدرسة مع قيم الأسرة ولم يتعرض الطفل لقيم تخالف قيم أسرته من خلال وسائل التثقيف عموماً ووسائل الأعلام بشكل خاص، ولو على الأقل فترة الطفولة أما إذا اختلف الوالدان في أسلوب التنشئة أو اصطدمت قيم الأسرة مع قيم المدرسة أو تعرض الطفل في أطواره الأولى إلى نسق متضاربة من القيم فإنه يفجز حتماً عن تكوين نسق عام محكم متكامل للقيم والتوقعات المرتبطة بسلوك الآخرين، ويعجز الطفل عن تحقيق التوحد الكامل مع قيم الجماعة ويخفق في إدراك التعميمات، ولن يرقى من مستوى السلوك المجرد إلاَّ بصعوبة بالغة، ولن يستطيع تكوين تصور عام عن المواقف المتعارضة في المواقف اليومية مما يجعل فشله في الحياة مستقبلاً أمراً متوقعاً. وهذه الحقيقة الاجتماعية تجعل مسؤولية من يتصدى للتخطيط لبناء أفراد الأمم كبيرة خاصة بعد ان أصبحت مصادر التأثير في المجتمعات كثيرة ومتعددة فلا يكفي أن يتقن كل جهاز مسؤوليته بمنأى عن أهداف الأجهزة المسؤولة الأخرى فمسؤولية الجامعات والمدارس في الجانب العلمي والتربوي ينبغي أن تتفق وتنسجم من

---

(١) د. محمد سعيد فرح: البناء الاجتماعي والشخصية. الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ١٩٨٠ م ص ٤٠٢.

حيث الإطار مع ما يقدم في وسائل الإعلام ووسائل الإعلام مسؤولة عن التنسيق بينها وبين الجهات المسؤولة الأخرى والمشاركة في التأثير وإعداد أفراد الأمة.

إذا تحقق التنسيق بين هذه الجهات جميعاً وقام الآباء والأمهات بمسؤوليتهم الأصيلة في التنشئة ضمن المجتمع توحد المصدر في تقديم القيم وتوحد أفراده مع قيم أصيلة تتفق وجهات النظر حولها واستقر وجدان الطفل والشاب واستقام سلوكه بما يتفق مع قيم المجتمع. (فإذا كانت علاقات الطفل بأسرته في ظاهرها مسألة شخصية داخلية، فإنها تشير في الوقت نفسه إلى علاقة الطفل بالمجتمع الكبير، وهذه العلاقة تحددها عادات الجماعة والأنماط الثقافية التي يجسمها لدى الطفل هؤلاء الكبار، ويرى كليد كلاكهون أن معرفة الثقافة تقوم على معرفة الأفراد الذين يكونون المجتمع أو يوجدون في الثقافة، فمعرفة الأفراد ضرورية لفهم المجتمع وإدراك الكل الثقافي، على أن أشكال الشخصية لن تعرف إلاّ في مواضعها في الكل الثقافي أو الكل الاجتماعي الذي أوجدها، وينبغي علينا أن ندرك أسباب التماثل في الشخصيات وأسباب الاختلاف بينها، فالفرد لا يعيش منعزلاً عن البيئة الاجتماعية أو الثقافية التي ينتمي إليها ولا يستطيع أن ينفصل عن دوره أو مركزه في البناء الاجتماعي فكل شخص حي هو أولاً شخص اجتماعي وجزء متفاعل في نسق التفاعل، ومن ثم يرى كليد كلاكهون أن بناء الشخصية يتباين من مجتمع لآخر، ومن طبقة لأخرى ويفسر هذا التباين في بنية الشخصية نتيجة لاختلاف التكوين البيولوجي للفرد من جهة، واختلاف أساليب التنشئة الاجتماعية، والتجارب الاجتماعية في المواقف وكذلك اختلاف مفهوم الثقافة عند الأب والأم)[1] ويشير عدد من علماء الإعلام (أنه عندما يتناول التلفزيون ـ مثلاً ـ قيماً ونماذج للسلوك لا تتفق مع القيم والنماذج التي ينقلها الآباء إلى أبنائهم، فإن ما يحدث غالباً هو أن القيم الأسرية هي التي يكون لها اليد الطولى، أما قيم التلفزيون ـ مع الاستقرار

---

(١) د. محمد سعيد فرح: البناء الاجتماعي والشخصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ١٩٨٠ ص ١٣٣.

العائلي ـ فإنها غالباً ما تسود. . ويؤكد علماء الإعلام أيضاً، أنه عندما يكتسب النشء معرفة بموضوع معين، بحيث يكونون اتجاهاً نحوه، فإن التلفزيون لا يقوى على التأثير فيهم، أما بالنسبة للأمور الجارية التي لا يكون للآباء مواقف إزاءها، بحيث لا يرشدونهم أو يوضحون لهم وجهة نظرهم، وحيث لا تكون هناك خبرة حقيقية اكتسبها الأطفال أو الناشئة، فإن التلفزيون يكون في موقف قوي يستطيع فيه أن يؤثر على المعتقدات والاتجاهات، ومن ثم يكون قادراً على بناء أنماط سلوكية)[1] وهذه النقطة الأخيرة بالذات ما تعاني منه الأمة الإسلامية في شبابها، حيث اجتمع على الناشئة ضعف التربية الأسرية في هذا الوقت بالذات لأسباب كثيرة يذكرها علماء الاجتماع والتربية، ولكثرة المواد البرامجية التي تقدم قيماً مختلفة.

الفطرة ورسوخ القيم :

إن التغير والثبات كما مرَّ في المباحث السابقة حقيقتان من حقائق هذا الوجود لا يستقيم الخلق بأحدهما دون الأخرى وإن الزمن مركب من التغير والاستمرار وإن التوازن بينهما أمر ضروري لهداية المسيرة البشرية، ومن الأمور الهامة التعرف على الثوابت والمتغيرات أو معرفة الأمور الثابتة التي لا يمكن تغيرها وإذا ما حاولت البشرية التدخل في ذلك ماجت سفينة الحياة واضطربت، وما هي الأمور التي ينبغي للإنسان أن يعمل على تطويرها وتغيرها واستغلال الكشوف العلمية لذلك التغير ليكون على هدى وبصيرة.

إن من الثوابت التي لا تتغير ولا يمكن أن تغير الفطرة الإنسانية (إن التغير الاقتصادي والاجتماعي والحضاري والعلمي الذي حدث في القرنين الأخيرين، والذي ظلَّ مستمراً في الحقيقة منذ بداية عهد الإنسان إلى العصر الحاضر، قد غير «صور» الحياة ولم يغير جوهرها، ولنأخذ مثلاً رغبة السكن. . إنها رغبة فطرية يحققها إنسان الغابات باتخاذ «عش» معلق في الشجرة وإنسان المراعي باتخاذ مثابة من البوص والغاب، وإنسان الزراعة بكوخ من الطين،

---

(١) د. إبراهيم إمام. الإعلام الإذاعي والتلفزيوني. دار الفكر العربي ص ١٣٠.

وإنسان المدينة بيت مشيد أو عمارة. . وقد يتخذ إنسان الفضاء غداً سفينة فضاء يسكن فيها وينتقل بها بين الكواكب. . . فما الذي تغير؟ تغيرت «الصورة» التي تتحقق بها الرغبة الفطرية تغيرت بتغير الإمكانيات المادية والعلمية، وتطورت قدرات الإنسان العقلية والفنية، ولكنها ظلت في خطها الأصيل وحين تطورت تطورت على قاعدتها الإنسانية المتخصصة، لا على أية قاعدة أخرى (الحيوان لا يطور مسكنه) والقاعدة الإنسانية هنا ترتكز على ركائز إنسانية متفردة هي القدرة على استخدام الأدوات والاستفادة من الأفكار السابقة. . . الجوهر إذن لم يتغير[1] ولو أخذنا بقية الرغبات الإنسانية، اللباس، رغبة الجنس، وغيرها، نجد أن الدوافع الفطرية فيها لا تتغير ولكن تتغير صور الإشباع فقط .

ونحن هنا لا ننكر أن البشرية في حياتها تنحرف عن الفطرة لكن الأمر المؤكد الذي يؤيده النظر في تاريخ البشر أن السعادة الإنسانية لا تتحقق إلاَّ إذا كان إشباع الغرائز الإنسانية لا يتم إلاَّ وفق هدى الله وفطرته التي فطر الناس عليها، وأقوى الشواهد القائمة اليوم أن الانحرافات السلوكية والشذوذ والقلق النفسي والانتحار الذي تعاني منه المجتمعات المتقدمة والمتحضرة في أوروبا وأمريكا أكثر بكثير من الدول المتخلفة، إنما ذلك دليل على أن البشرية لا يسعدها إلاَّ البقاء على فطرة الله لها وليس معنى هذا أيضاً أن فطرة الله تعارض التقدم العلمي والاستفادة من كنوز الأرض وإنما المقصود فقط أن نلتزم بهدى الله ونسير وفق فطرته التي فطر الناس عليها.

ونصل هنا إلى موضوعنا موضوع القيم والعلاقة بينها وبين الفطرة لنؤكد أن خالق الغرائز والدوافع الإنسانية هو الذي وضع الضوابط والأوامر والنواهي وهو أعلم بما يصلح الإنسانية ويتفق مع مصالحها العاجلة والآجلة ولذا ندرك أن أي نسق قيمي لا يستند إلى الأصالة الدينية المهتدية بهدى الله لا يمكن أن يوفق

(١) محمد قطب. دراسات في النفس الإنسانية. دار القلم ص ٣٤٦.

للجمع بين إشباع رغباته الشخصية واحترام حقوق الآخرين وأداء حقوق الله عليه، فالقيم التي يمكن أن تعتبر ينبغي أن تكون ملتزمة بموافقة الفطرة الإنسانية السالمة من التلوث والانحراف ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾[1].

فالفطرة أساس أوجده الله في كل نفس خلقها قبل أن تمسها أيدي البشر وقبل أن تتهيأ لحمل القيم والإيمان بها، قال ﷺ: « ما من مولود إلاّ يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء »[2].

ولا شك أن التدين والإيمان بالله فطرة فطر عليها البشر جميعاً لكن الانحراف الذي يصيب النفوس أثناء نشأتها هو الذي يجرفها عن الإيمان بالله ودينه.

وكدليل على وجود هذه النزعة الدينية نستأنس بنتائج بحث علمي أجري على شباب جامعة الكويت قام به الدكتور عبد الباسط محمد حسن عنوانه «شباب الجامعة والقيم الدينية». واشتمل الاستفتاء على عبارتين لقياس اتجاهات الشباب نحو أهمية الإيمان بالدين هما :

- سعادة الإنسان مرتبطة بإيمانه بالدين.
- ضعف الوازع الديني في نفوس الأفراد هو السبب في أغلب المشكلات النفسية والاجتماعية.

وبتحليل الاستجابات ظهر أن ٩٤ ٪ من الطلبة والطالبات يوافقون على العبارة الأولى. وهذا معناه أن الغالبية العظمى من شباب جامعة الكويت تعتقد في أهمية الإيمان بالدين من حيث أنه يكفل للإنسان الراحة النفسية. ويمنحه

---

(١) سورة الروم الآية : ٣٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.

الهدوء والاطمئنان، ويحقق له العيش في أمان مع نفسه ومع الآخرين كما يوافق ٩٠٪ من الطلبة والطالبات على أن أغلب المشكلات النفسية والاجتماعية ترجع إلى ضعف الوازع الديني في نفوس الأفراد، ذلك لأن الدين يساعد الإنسان على التغلب على ما يصادفه من أزمات ويفتح أمامه آفاق الأمل كلما واجهته مشكلة، أو انسد أمامه مسلك من مسالك الحياة.

وهذه النتيجة التي تكشف عنها هذه الدراسة تتفق مع ما يذهب إليه كثير من علماء النفس والاجتماع من أن أغلب المشكلات التي يعانيها الناس ـ أفراد أو جماعات ـ ترجع إلى إحساس الفرد بعدم الانتماء، وشعوره بالحيرة والضياع، وعدم تكامله وتوافقه مع النظم الدينية والأسرية والسياسية القائمة في المجتمع)[1].

هذا في أحد المجتمعات الإسلامية التي لا شك أن القيم الإسلامية توجه سلوكه لكن حتى المجتمعات التي لم تهتدِ إلى نور الإسلام نجد أن النظم القائمة فيها تمنى بالفشل الذريع كلما تصادمت مع الفطرة الإنسانية فالتصادم مع الملكية الفردية في النظام الشيوعي ماذا أحدث للنظام بعمومه ؟ ولماذا هذا ؟ لأنه تصادم مع الفطرة وكذلك الحرية المنفلتة في الملكية في الغرب والتي لا تراعي أي ضوابط خلقية كانت نتيجة ذلك مشكلات وقلق وتسلط الأغنياء وظهور أمراض الثروة ولماذا هذا؟ لمصادمة الفطرة، نعم إنها فطرة الله وسنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

إن الإسلام يعترف بقانون التطور العام في المجتمع الإنساني ولكن التطور لفظ مجمل يحتاج إلى تفصيل.

فأهل الفلسفات والأفكار الاجتماعية لهم مفاهيمهم الخاصة حول التطور ومداه، والإسلام له موقف محدد دقيق من التطور الاجتماعي، ينبني على

---

(١) د. مصطفى فهمي. التوافق الاجتماعي والشخصي. مكتبة الخانجي القاهرة. ط ١ ١٩٧٩ م ص ٦٨.

أساس طبائع الأشياء وقانون الفطرة، فالتطور في الحياة لا يمس حقائق الأمور بل يمس الأطر الخارجية لها، فالإنسان من حيث غرائزه، ودوافعه لا يتبدل فهو منذ أقدم العصور إلى اليوم يحتفظ بالغرائز نفسها، غريزة الحب، غريزة الكراهية، غريزة الطمع، غريزة الشبع، غريزة الجنس، فلما كانت هذه الترائز لا تتبدل، فإن غرائز فهمها وتوجيهها لا تتبدل أيضاً فيما إذا أردنا أن تسير في مسارتها دون انحراف ودون محاولة قتل لها.

والشريعة الإسلامية عندما رسمت هذه المسارات الصحيحة لسير تلك الغرائز فإنها لم تخضع لقانون التطور في مفهومه المزعوم عند أرباب الفلسفات المادية، لأن الأصل لا يتطور، ولا تتبدل حقائقه حتى يتطور الفرع ويتبدل.

مثال ذلك: الإتصال الجنسي. فقد حصره الإسلام في داخل الحياة الزوجية، وعد الاتصال الذي يجري خارجها محرماً، لماذا؟ لأن الاتصال المحرم يؤدي إلى زعزعة الأسرة، وتشريد الأطفال، وانتشار الجرائم، والأمراض الجنسية التي تقحم المجتمع الإنساني في سلسلة من الانحرافات المدمرة، إن علم الطب يؤيد ذلك تأييداً قاطعاً، وإن المربين وكثيراً من علماء النفس والاجتماع انتهوا إلى إقرار ذلك، بعد دراستهم العميقة لتطور الظواهر الاجتماعية المختلفة في بلاد الحضارة الحديثة وغيرها.

ماذا يعني هذا؟ يعني أن هذا الأمر لا يخضع للتطور، فالإنسان خلقه الله على هذه الطبيعة، وفي هذا المسار، وعندما أرسل الأنبياء والمرسلين وختمهم بمحمد ﷺ، ارتضى للمجتمع الإنساني القانون الضابط الذي يجب ألا يستبدل غيره به، إذ استبدال المعالجة، عند عدم تبدل الأصل يؤدي إلى الخراب والفساد، لأن الحلول الفاسدة لا تنتج منها إلَّا النتائج الفاسدة[1].

إن طبيعة الإنسان التي خلقه الله عليها طبيعة خاصة، ومن الصعب فهم حقيقتها خلافاً لما يراه من يأخذون الأمور ببساطة ويطلقون على الإنسان أنه

---

(١) د. محسن عبد الحميد. منهج التغير الاجتماعي في الإسلام. مؤسسة الرسالة طبعة أولى سنة ١٤٠٣ ص ٧٦.

ظاهرة مادية، أو ظاهرة حيوانية يطبق عليها قانون الحيوان في التعامل معها، أو حتى من يرى للإنسان بعض الخصائص التي تميزه عن الحيوان لكنه يمكن معرفة كل الحقائق عن طبيعة تكوينه ومن ثم التعامل معها. إلاَّ أن هذه البساطة في التفكير لم توصل إلى نتائج حقيقة في معرفة طبيعة الإنسان.

ونقول بمنتهى الثقة إنه لا يمكن الوصول إلى معرفة طبيعة الإنسان عن طريق تطبيق مناهج التجريب، والمنصفون من الباحثين وصلوا إلى هذه الحقيقة وأدركوها، ولذا يقول أحدهم: (بالرغم من أننا نملك كثيراً من الملاحظة التي كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار العلماء الروحانيين في جميع الأزمان، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا.. إننا لا نفهم الإنسان ككل، إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة، وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا.. فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح، تسير في وسطها حقيقة مجهولة.

واقع الأمر أن جهلنا مطبق، فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية ما زالت غير معروفة)[1] إن السبب في هذا الجهل المطبق أن تركيبه يتكون من جانبين، جانب مادي وجانب نفسي روحي والغموض أكثر في الجانب الروحي لاستحالة الإحاطة به لعدم خضوعه للمقاييس العلمية التجريبية، وهذا في حد ذاته عائق يستحيل تجاوزه إذا استمر الباحثون في منهجهم الملتزم بتطبيق المقاييس المادية الحسية على كل شيء فطبائع الأشياء تختلف ونوعية المنهج ينبغي أن تتناسب مع طبيعة موضوع البحث ومخالفة ذلك لن يؤدي إلى نتائج صحيحة (إذ أنه من الخطأ أن ننظر إلى الإنسان ـ عندما نحاول أن نصور طبيعته ـ على أنه مجموعة من التركيبات المادية والإحساسات الحيوية أو أنه مجموعة من التكوينات المعنوية أو الروحية

---

(١) الكسيس كاريل: الإنسان ذلك المجهول، ترجمة شفيق أسعد فريد مؤسسة المعارف بيروت الطبعة الثانية ص ١٧.

بل علينا أن ننظر إليه كشخصية تتكامل فيها الجوانب المادية والمعنوية ونتيجة لذلك يتميز بصفات خاصة به، لا نجدها لدى غيره من الكائنات)[1].

إنَّ هذه الطبيعة الخاصة التي خلق عليها الإنسان ـ دون غيره ـ خلقت متناسبة مع ما أريد له من امتثال التوجيهات السماوية التي تصل إليه من ربه، وهذه الطبيعة التي فطر عليها إذا بقيت على أصلها ولم تجتالها الشياطين فإنها تتلاءم وتتفق وتتساند مع ما جاء به الإسلام ولن يكون هناك أي تعارض بين أمر من أوامر الدين وبين تلك الفطرة. مما يؤدي في النهاية إلى استقرار قيم الفرد وانسجام سلوكه مع متطلباتها.

تبدل القيم وزوالها:

بعد استعراضنا لموضوع القيم ومعرفة أهميتها في البناء الاجتماعي وتأثيرها القوي في تكوينه واستقراره وترابط انساقه الاجتماعية المختلفة.. نتساءل عن مدى الثبات الذي تتمتع به القيم داخل المجتمع؟ وإمكانية تبدلها. وهل هذه القيم دائمة الثبات أم أن الزوال ينطبق عليها كسائر الأشياء التي تزول بعد وجودها.

وفي الواقع إن مجرد الاجابة على هذا السؤال ليست هدفاً في حد ذاتها ولكن معرفة الأسباب والعوامل هي المقصود بطرح السؤال.

فالقيم جزء من الكيان الاجتماعي وجزء هام من ثقافة كل أمة،وما دامت أحوال الأمم تخضع لسنن اجتماعية تمر بها فإن القيم تتأثر بما يتأثر به المجتمع ويقول العلامة ابن خلدون في هذا: (إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة، ومنهاج مستقر، انما هو.اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال. وكما يكون ذلك في الاشخاص والأوقات

---

(١) مقداد بالجن: الاتجاه الأخلاقي في الإسلام، مرجع سابق ص ١٧٦.

والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأزمنة والدول، سنة الله التي قد خلت في عباده)[1] ومع أن هذه الحقيقة التي يقررها ابن خلدون تنطبق كما أشار على المجتمع إلا أن مكونات البناء الاجتماعي تختلف في تأثرها بهذه السنة الاجتماعية فمظاهر السلوك الفردي أو الاجتماعي، والاتجاهات، والافكار، والقيم، والمعتقدات كلها من أحوال الأمم التي تنطبق عليها هذه الحقيقة التي قررها ابن خلدون لكن مظاهر السلوك مثلاً تختلف عن القيم في مدى تحولها وزمنه فقد يصل الأمر ببعض أنواع السلوك إلى الزوال كلية والاستبدال الكامل بسلوك آخر وفي فترة زمنية قصيرة، بينما القيم لا تستبدل بهذه السهولة والسرعة.

إلا أن الذي لا جدال فيه أن القيم خاضعة لهذه السنة الاجتماعية فهي تتبدل وتزول في بعض الأحيان، وقمة القيم هي العقائد، ومع هذا نلاحظ أن التبدل يقع عليها لكنه كما سبقت الاشارة يختلف من حيث المدئ والزمن عن بقية مكونات البناء الاجتماعي.

والقيم بسبب شمولها لمعاني كثيرة من الاهتمام والاعتقاد والرغبة والسرور واللذة والاشباع والنفع والاستحسان والاستهجان والقبول والرفض والمفاضلة والاختيار والميل والنفور فانها تتفاوت وتختلف فيما بينها ـ بسبب هذا التنوع ـ في التأثر بالتغير أو الزوال.

فالقيم تتفاوت من حيث فائدتها الاجتماعية (فالقيم تكون صالحة أو فاسدة تبعاً لدرجة قدرتها أو عدم قدرتها على اشباع الحاجات الأساسية)[2] فهذا التفاوت في مقدرة القيم يحدد من أحد الوجوه ثباتها أو الثبات عليها من قبل الأفراد والجماعات فقيم الاسلام أقدر على اشباع الحاجات الحقيقية للانسان من غيرها من القيم المستمدة من الديانات والافكار الأخرى بسبب الربط بين

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، دار احياء التراث. طبعة ٤ ص ٢٨.

(٢) د. فوزية دياب: القيم والعادات الاجتماعية، دار النهضة العربية، بيروت سنة ١٩٨٠ م ص ٦٤.

حاجات الانسان في الدنيا والآخرة والتعامل مع مصلحة الأفراد والجماعات على هذا الأساس، فقيمة الاستمتاع بملذات الحياة الدنيا إلى أعلى درجة ممكنة تسبق كل القيم في المجتمعات الغربية لعدم الربط بين الحياة الدنيا والحياة الأخرى، لكن هذه القيمة تتأخر في النسق القيمي لدى المسلمين، لأن هناك حياة أخرى يحسب حساب النجاة فيها والاستمتاع بها، فالمتعة في الدنيا مرتبطة في العقيدة الاسلامية بعدم التعارض مع النجاة والمتعة الأخروية.

فالقيم المرتبطة بالمصالح الكبرى في الثقافات المختلفة تكون على درجة أكبر من الثبات ويصعب زوالها أو استبدالها ما لم يهتز النسق القيمي كله، فلن تسقط قيمة الايمان بالحياة الأخرى والقيم المتفرعة منها في المجتمع المسلم، ولن تسقط قيمة الاستمتاع بالحياة والقيم المتفرعة منها في مجتمعات الغرب ما لم يتعرض النسق القيمي كله إلى تغيرات جذرية كبرى.

وتجدر الاشارة إلى أن احساس الافراد بمقدرة النسق القيمي الذي ينتمون اليه على اشباع حاجاتهم والتوافق معها وتعمق هذا الاحساس في شعورهم بالمعرفة النظرية والنتائج العملية المبنية على تلك المعرفة يزيد من ثبات قيم ذلك النسق في نفوسهم وايمانهم بها ودفاعهم عنها.

وإن ما نلاحظه في كثير من مجتمعات المسلمين اليوم من ضعف تمسك الكثير منهم بقيم الاسلام، نتيجة لضعف شعورهم بقدرة الاسلام على اشباع حاجاتهم الحقيقية وذلك من تقصير العلماء والحكام في البلاد الاسلامية في هذا.

فالعلماء لم يستطيعوا الوصول إلى شعور المسلمين وربط حياتهم بنظام التوازن بين الحياة الدنيا والآخرة، ولم ترتفع قيمة اليوم الآخر في نفوسهم حتى تسهل التضحيات في سبيله وذلك لضعف في الوسيلة وعدم وجود القدوة الحسنة، أما الحكام فإن نظمهم القائمة لم تحقق للأفراد المسلمين وسائل الاشباع المباحة لحاجاتهم الحقيقية مما دفع الكثير منهم إلى ارتكاب الحرام.

ولزيادة ذلك وضوحاً نضرب مثالاً بحال الشباب في المجتمعات المسلمة والذي اندفع إلى العلاقات الجنسية المحرمة بشكل مخيف، والسبب الحقيقي لهذا أن العلماء لم يصلوا إلى الشباب من خلال الوسائل التي تسيطر على عقولهم، وانما وصل اليهم الشيطان من خلال تلك الوسائل، ولم يكن كيد الشيطان قوياً إلا عندما ضعف أولياء الرحمن.

أما النظم الاجتماعية القائمة في البلاد الاسلامية فإنها جعلت الحرام أيسر وأسهل طريقا من الحلال.

ومن أسباب ثبات القيم الاصالة التي سبقت الاشارة اليها في مبحث (أصل القيم في المجتمع المسلم) فالقيم الاسلامية المستمدة من أصول ثابتة تختلف في ثباتها عن القيم التي يعترف المجتمع أنها من صنعه هو أو من صنع أفراده. كما أن التفريق بين القيم المادية والقيم الروحية يساعدنا على معرفة مدى الثبات الذي يحققه كل منها. فالقيم المادية المتصلة بالأشياء المادية كالمال والثروة وسائر الملذات الحسية، أما القيم الروحية التي تنبع من الأديان كالايمان والتقوى وحب العمل الصالح وحب الخير للغير والاحسان الى المحتاجين والقيم الاجتماعية المرتبطة بعلاقة الأفراد بغيرهم، هذه القيم تختلف عن القيم المادية بدرجة ثباتها حيث تتصف القيم المادية بكثرة التغير نتيجة لتغيرات المادة نفسها فالتغير في الماديات أسرع منه في غيرها وعليه أصبحت امكانية التغير في القيم المرتبطة بها، ومن أسباب التفريق بين مستويات الثبات في القيم درجة الالزام لتلك القيم، فالقيم الآمرة الناهية التي تحدد الحلال والحرام تختلف عن قيم المباح وعن المستحب أو المكروه (إن أكبر فرق يميز القيم الالزامية عن القيم التفضيلية هو درجة الالزام والقهر الاجتماعي المتصل بكل منهما، فمن الممكن أن يخرج الفرد أو ينحرف عن القيم التفضيلية، ومع ذلك يستمر كعضو له مكانته الاجتماعية في طبقته أو في جماعته، أما اذا تعارض سلوك الفرد مع القيم الالزامية، وما تأمر به أو تنهي عنه فإن مجتمعه يصب عليه جام غضبه ويمكننا أن نتصور مبلغ غضب المجتمع في

ثقافتنا على امرأة مسلمة تتزوج برجل على غير دينها)[١]فالاختلاف في الثبات هو من حيث الزام الفرد نفسه بهذه القيم لشعوره بالزاميتها بالاضافة إلى الزام المجتمع للافراد الخارجين على قيمه بما يسنه من وسائل للضبط الاجتماعي. ومع أن المعايير والقيم مكتسبة إلا أن منها ما يصبح جزء من اللاوعي لدرجة قد تبدو فيها تعبيراً عن رد فعل آلي)[٢]نتيجة لتأصلها وثباتها في الفرد والمجتمع بينما إن (بعض القيم بطبيعتها سريعة الزوال، وهذه القيم هي التي تلتصق وقتياً والى حين ببعض الأشياء أو بعض الأعمال)[٣].

فالتفاوت بين القيم في ثباتها وامكانية زوالها واضح إلاّ أنها كلها معرضة للزوال إذا تعرضت لأسبابه مع اختلاف تلك الاسباب في قدرتها على تحقيق الأثر المستهدف في ثبات القيم.

العادات:

العادات من الظواهر الاجتماعية التي يتكرر لفظها على ألسنة دارسي العلوم الاجتماعية وخاصة في موضوعات البناء الاجتماعي وتنال من اهتمام الدارسين عناية تتفق مع انتشارها وأهميتها وقد أورد لها الباحثون في الدراسات الاجتماعية تعريفات كثيرة تجتمع على بعض خصائص العادات وتفترق من حيث وجهة نظر كل باحث واهتمامه ونظرته الذاتية إلى مفهوم العادات وقبل استعراض بعض هذه التعريفات ننظر في الأصل اللغوي الذي استمدت منه، ففيه بعض الدلالة على شيء من الصفات المشتركة التي عني بها الباحثون.

---

(١) د. فوزية دياب. القيم والعادات الاجتماعية، مرجع سابق ص ٨١.

(٢) د. عبد الحميد محمود سعد. دراسات في علم الاجتماع الثقافي، مكتبة نهضة الشرق ص ١٠٨.

(٣) د. فوزية دياب. القيم والعادات الاجتماعية، مرجع سابق ص ٩٠.

تعريف العادات:

(العادة الديدن عـاد وعيد وتعوده وعاوده معـاوده وعواداً واعتـاده واعـاده واستعاده جعله من عادته وعوده إيَّاه جعله يعتاده والمعاودة المواظبة)[١].

فأصل المـادة يؤكد على معنى التكـرار والمواظبـة والاستمرار في فعـل الشيء والمداومة عليه وهذا المعنى نجده في معظم التعـريفات الاصـطلاحية لدى الباحثين في المجالات الاجتماعية والتي توضع لمعنى العادة سواء كانت عادة فردية أو اجتماعية مع العنـاية بـالفروق الأخـرى التي تميز كـل منهما عن الأخرى لكن المعنى اللغوي المستمد من التكرار والاستمرار يوجد في الكل.

(فالعادة ميل للتصرف بطريقة معينة يتسم بالآلية واللاشعـور وتثبت تلك الطريقة السلوكية المعينة بفضل تكرارها)[٢] مما يحقق عن طـريق هذا التكـرار ثبـات العادة وضمـان استمـرارهـا في التـأثيـر على السلوك ضمن المتغيـرات والمحددات النفسية والاجتماعية الأخرى.

ويلاحظ على التعريفات الموضوعية للعادات تداخلها مع تعريفات تلك المحددات والمتغيرات الأخرى فنجد استخدام كلمات العـادات أو الأعراف أو التقاليد الشعبية أو الطرق الشعبية متداخلة مع بعضها.

ولهـذا يقول أحـد الباحثين: (قلمـا نصـادف في بحـوث علم الاجتمـاع موضـوعاً تـسوده الفوضى في التعاريف واختيار المصطلحات كما تـسود موضـوع العادات الاجتماعية)[٣].

ولتبرير ذلك ينظر إلى التداخل في التأثير بينها وعدم القدرة على تحديد أثـر كل منهـا على حدة، لأن محصلة التـأثير تـظهر في شكـل سلوك الافـراد

(١) الفيروز أبادي: القاموس المحيط، المجلد الأول ص ٣٣١.

(٢) د. جلال مدبولي: الاجتماع الثقافي، دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة طبعة أولى سنة ١٩٧٩ ص ٧٠.

(٣) د. فوزية دياب: القيم والعادات الاجتماعية، مرجع سابق ص ١٠٤.

والجماعات دون تحديد ـ دقيق ـ لمصدر ذلك التأثير هل هو العادات أو الأعراف أو التقاليد أو القيم أو غيرها أو كلها أو بعضها، وفي هذا التبرير الذي يورده الباحثون وجاهة منهجية ودليل صدق في التعامل مع الواقع، ويضاف إلى هذا التبرير أن هذه المسميات تشترك في تمسك المجتمع بها واحترامها وانتقالها من جيل إلى جيل كجزء من الميراث الثقافي.

ومن الأمور المؤثرة في العادات الغرائز (فالغريزة أصل من أصول العادة، وقاعدة من قواعدها الركنية فإذا ما تكرر الفعل الغريزي وتواتر نجمت العادة وصارت هي الحاكمة الغالبة، ويعتقد البعض أن الغريزة والعادة شيء واحد، ولكنهما وان اتفقتا في أن كلتيهما تسوق إلى أعمال آلية قهرية وغير مسبوقة بتدبير تام، فإن الغريزة هي الدافع الفطري الأول إلى اقتراف العمل والعادة هي الدافع الثاني إلى التكرار)[1].

أنواع العادات:

يقسم علماء الاجتماع عند دراستهم للعادات هذه الظاهرة إلى عدد من الأقسام تختلف بالاعتبارات التي ينطلق منها الدارس فمنهم من يعتمد في التقسيم على طبيعتها الفردية أو الجماعية فهناك عادات يلتزم بها الأفراد ويمارسونها دون ضغط من المجتمع أو اكراه بل تتصف أحياناً بمحبة الأفراد إلى ممارستها فهي (متأصلة في حركاتهم وفي مشارعهم النفسية فهم يؤمنون بها ويفعلونها بشكل تلقائي ولا يجدون صعوبة إذا ما فكروا أن ينفذوها عن طيب خاطر وعن رضا ويأتون بها بسهولة في مناسبات مختلفة باعتبارها مغروسة فيهم تردد بالسليقة والفطرة وليست هذه العادات الفردية فطرية بل هي مكتسبة عند الأفراد تأتيهم من المحيط الخارجي بالتجربة الذاتية)[2] وقد ترتفع هذه العادات الفردية إلى صبغ الفرد بالآلية حيث تصبح أفعاله استجابات آلية يخضع لها خضوعاً آلياً تلقائياً، وقد تبقى الاستجابة تابعة للتفكير الإرادي والتدبر عند فعلها.

---

(١) د. جلال مدبولي: الاجتماع الثقافي. مرجع سابق ص ٧٢.

(٢) د. عبد الله الخريجي: علم الاجتماع المعاصر، الطبعة الأولى ١٢٩٧ هـ ص ٤٤٣.

وهناك العادات الاجتماعية التي تكتسب وتتعلم وتمارس وتنتقل اجتماعياً مما يجعل ممارستها تختلف عن العادات الفردية التي يمكن للفرد أن يمارسها بمفرده وفي حالة عزلته.

ومن الدارسين من يقسم العادات بناء على نفعها أو ضرها فيكون التقسيم مبني على القيمة الفعلية للعادة دون نظر إلى كيفية تكونها أو ممارستها فما كانت في عرف المجتمع ومقاييسه ذات نفع فهي عادات نافعة وعكسها الضارة، ولا يخفى أن هذا التقسيم يصعب ضبطه حيث أن من العادات ما يعتبر نافعاً في وقت وضاراً في الوقت الآخر بل إن من الجماعات ما يعتبر العادات النافعة في مجتمع ما عادات ضارة بالنسبة لهوهكذا فعادات النذور للأولياء والقرابين التي تذبح لهم من دون الله مع أنها تعتبر بمقاييس الشريعة الإسلامية شركاً بالله وهو أكبر الأمور ضرراً على الانسان في الدنيا والآخرة نجد من الناس من يعتبرها عادات نافعة[1].

وتقسم العادات باعتبار القدم والحداثة فالعادات التقليدية هي العادات المتأصلة في الثقافة الخاصة بالمجتمع والتي توارثها الخلف عن السلف واستمرت من جيل إلى جيل بعد فناء الأفراد الذين أنشأوها، فهي عادات متوارثة تقليدية، بينما العادات المستحدثة عادات يخترعها الأفراد والجماعات وتمارس ابتداء دون اتصال بماضي الجماعة، ولا شك أن كل عادة تقليدية كانت عادة مستحدثة عند نشأتها فالتقسيم هنا نظر إلى اعتبار الزمن الذي نشأت فيه العادة، ولعل أبرز ما يلاحظ في الفرق بين العادات التقليدية والعادات المستحدثة طبيعة الانتقال، فالتقليدية تنتقل رأسياً من الجيل السابق إلى الجيل اللاحق بينما العادات المستحدثة تنتقل أيضاً بين أفراد المجتمع الواحد أو حتى بين أبناء الثقافات المتعددة وأوضح مثال على انتقال العادات الحديثة ما يتعلق بعادات اللباس فالموضات والموديلات التي تتنوع كل عام تجد لها في أبناء الثقافات المختلفة أنصارا ومؤيدين.

---

(١) انظر د. عبد الله الخريجي علم الاجتماع المعاصر، والمرجع السابق نفس الموضع.

وهـذه التقسيمات للعـادات تنحصر فـائدتهـا الفعلية في تـنظيم دراستها للباحثين والا فهي بعمومها صفات مميزة لتلك العادات توجد بها أو لا توجد تبعاً لطبيعة نشـأتها وعـلاقتها بـالأفراد والجمـاعات ومعهمـا اختلفت الصفات التي يمكن أن تصنف على ضـوئها العـادات إلاّ أنها (تشـمـل تصرفـات النـاس في مختلف المواقف والمناسبات الاجتماعيـة، وتسـتوعب كـل الطرق والأسـاليب التي أقرتها الجماعة وتعارفت عليها لمعـالجة مشـاكل ومـواقف الحياة العـادية الروتينية الجارية، وكذلك لمقابلة المناسبات التي لها دلالات اجتماعية خاصة كالاعياد الدينية والقومية مثلاً)[١].

أهمية العادات:

تمثـل العادات الجـانب السلوكي لثقافـة الجمـاعـة وطـريق الأفـراد في ممارسة حياتهم وفق ضوابط مجتمعهم ولا شك أن أهميتها تنبع من شمولها لهذا الجانب من ثقافة الأمم وهي بهذه الصفة تعمل على وحدة المجتمع عن طريق تشابه الأفراد في ممارساتهم السـلوكية وهذا التأثير المتـبادل بين الفرد والمجتمع مكن المجتمع من حفظ ثقافته بطريقة عملية تصب الأفراد في قوالب متشـابهة مما يغير أحيانا من طبيعة الفرد بما يتفق مع مصلحة المجتمع ويقول ابن خلدون في هذا: (إن أهل البداوة أقرب إلى الشجاعة من الحضر، وأصله أن الانسـان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه فالذي ألفه في الأحوال حتى صار خلقاً وملكه وعاده تنزل منزل الطبيعة والجبلة)[٢]فقدرة المجتمع تقـوى في السيطرة على الأفراد وتشكيلهم من خلال العـادات ولذا تعـد العادات من أهم عـوامل التنظيم والضبط الاجتماعي لعلاقات الأفراد بثقافتهم الاجتماعية والتقريب بين أساليبهم في ممارسة الأنشطة التي يؤدونها بأسلوب معتاد مما يجعل العـادات تشكل أهم جانب عملي في روح الجماعة.

---

(١) د. فوزية دياب. القيم والعادات الاجتماعية. مرجع سابق ص ١١٦.
(٢) ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق ص ١٢٥.

وتأتي أهمية العادات بالاضافة إلى تحقيق روح الجماعة، من الوظائف التي تؤديها في البناء الاجتماعي، فالعادات تساعد الأفراد على أداء أعمالهم بشكل أكثر اتقانا وأسرع زمناً، وأقل مجهودا من الناحية العضلية أو الذهنية فهي تقدم التوجيه والارشاد للافراد، بطريقة تلقائية تيسر لهم النجاح في أداء عملهم ومن ثم التوافق مع مجتمعهم، ولنا أن نتخيل مجموعة من الأفراد يكلفون جميعا بالحضور إلى مؤسسة علمية أو اقتصادية لأول مرة للقيام بكل الأعمال التي تحتاجها تلك المؤسسة لأداء وظيفتها المعتادة، وهؤلاء الأفراد لم يسبق لهم أن مارسوا عملاً شيهاً لهذه الأعمال، فكم من الارباك، وكم من التأخير وكم من الأخطاء ترتكب بسبب غياب العادات فقط.

تكوين العادات:

تتكون العادة ابتداءً بوجود ميل النفس إلى فعل ما، ثم بتحقيق هذا الميل أولاً، ثم تكرار هذا الفعل عدد من المرات حتى يصبح عادة، وهذه الأجزاء الثلاثة لتكون العادات تبرز لنا فرقاً هاماً وجوهرياً بين العادات والقيم، ومع أن كل منهما جزء من ثقافة المجتمع وتراثه إلا أن القيم تتميز بأنها ترتبط بأصالة فكرية ترفعها إلى درجة المعيارية التي تقاس بها أفعال الأفراد والجماعات، أما العادات فهي مجرد سلوك متكرر قد يبدأ به شخص شاذ أو منحرف وبتكراره وانتشاره يصبح عادة اجتماعية لها ممارسوها ومؤيدوها، وتنتقل في التراث الثقافي كجزء من موروثاته بين الأجيال، مع أن أصل نشأتها عديم الأصالة، ومخالف لقيم ذلك المجتمع، ويجد من المفتونين بالتراث من يدعو إلى التمسك به والمحافظة عليه، مع أنه باطل الاصل بمقاييس المجتمع نفسه لمخالفته لقيمه الأصيلة، وهذا جانب هام قلما نجد من ينبه له عند دراسة العادات الاجتماعية، والأخطر من هذا أنه مع الاستمرار على هذه العادات المنحرفة في أصل نشأتها تصبح مع تعاقب الأجيال قيمة اجتماعية يقاس عليها سلوك الأجيال الجديدة، ولهذا ورد في الشريعة الاسلامية الوعيد الشديد على

من سن في الاسلام سنة سيئة بأن يحمل وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، وذنبه هنا أنه ابتدأ تكوين عادة على خلاف مقاييس القيم الاسلامية الأصيلة (من سن في الاسلام سنة سيئة، فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء)[1].

وما ذلك إلا لأثر العادات المبتدعة على سلوك الفرد والمجتمع في عقيدته أو أخلاقه أو معاملاته وبعده بسبب تلك العادات المبتدعة عن النسق القيمي المستمد من الثقافة الاسلامية الأصيلة.

سهولة تكون العادات:

ومع أن العادات تعتبر جزءاً من التراث المتوارث عبر الأجيال إلّا أن المجتمعات خاصة في العصر الحديث كثر فيها تكون العادات من قبل الأفراد وهذه العادات الفردية بانتشارها تصبح عادات اجتماعية حيث أنه (إذا نشأت عادة فردية معينة في ظروف مشتركة بين أفراد كثيرين ومارسها عدد كبير أيضاً من أعضاء جماعة ما. فمن الممكن أن تصبح عادة جماعية وعلى هذا الأساس تتكون العادات الجماعية، أي على أساس من العادات الفردية)[2].

وهذا الأمر يجعلنا ننظر إلى العادات من ناحيتين إحداهما تخص العادات التقليدية والأخرى تخص العادات المستحدثة. فالعادات التقليدية مادام الأمر هكذا في نشأتها، وأن أصلها قد يكون فرديا، بناء على ميل فرد وممارسته لنوع من السلوك، الذي قد يكون شاذاً أو منحرفاً عن معايير المجتمع، فينبغي الا تكون العادات التقليدية بهذا المستوى من الاحترام والاتباع قبل النظر اليها بمعايير المجتمع والحكم عليها أو لها بالموافقة أو المخالفة للقيم الصحيحة المتبعة.

---

(١) الامام مسلم، صحيح الامام مسلم. كتاب العلم المجلد الثالث ص ٢٠٥٩ طبعة استامبول سنة ١٤٠١ هـ.

(٢) د. جلال مدبولي: الاجتماع الثقافي، مرجع سابق ص ٧٥.

فبعض العادات الاجتماعية اليوم في المجتمعات الاسلامية لا تتفق مع قيم الاسلام بل تتعارض معها تعارضا واضحا، ونظراً للتمسك بتلك العادات المنحرفة فإن كثيراً من القيم الاسلامية لا تمارس دورها الاجتماعي في ضبط سلوك المجتمع وفق معايير الاسلام بسبب التمسك بتلك العادات. فمثلا رفع تكاليف الزواج التي تسيطر على كثير من الجماعات داخل المجتمع المسلم تتعارض مع قيمه الأصيلة التي حددها الرسول ﷺ في أحاديث كثيرة تدعو الى تخفيف مؤنة النكاح.

فالنظر في العادات القديمة ينبغي أن يكون إلى موافقتها لقواعد الدين فإن وافقته ثبتناها واعتبرناها امتداداً له وعاملا من عوامل التمسك به وإن خالفته وجب اتخاذ ما يلزم لازالتها وتطهير المجتمع المسلم منها لأن بقاءها يصادم الدين ويحول دون تحقيق مقاصده.

أما بالنسبة للعادات المستحدثة فإن قاعدة النهي عن المنكر في الشريعة الاسلامية تنطبق عليها فلا يباح للمجتمع المسلم أن يسكت على ظهور أمر من الأمور المخالفة للاسلام، فإذا كانت تلك الممارسة لتلك البدعة تخالف قواعد الدين فإنه يجب على الأمة انكارها على فاعلها (ولا يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل أحد بعينه، بل هو على الكفاية كما دل عليه القرآن)[١] قال تعالى: ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون﴾[٢].

فمسؤولية المجتمع المسلم الآ يتيح الفرصة للسلوك المخالف للاسلام أن ينتشر في المجتمع المسلم حتى يصبح عادة متبعة وسنة ماضية في المجتمعات بل عليه انكاره ومعاملة البدع حتى يزول، (فإذا لم يقم به من يقوم بواجبه أثم كل قادر بحسب قدرته كما قال النبي ﷺ : «من رأى منكم منكراً

(١) شيخ الاسلام ابن تيمية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مرجع سابق ص ١٥.

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٤.

فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »[1].

وهنا ينبغي ملاحظة أن انكار المنكر لا يكون إلا في المنكر الظاهر أما المنكرات المسترة فإنه لا يشملها الانكار لعدم الظهور، وهنا ينبغي التنبه إلى أن من العادات الفردية المنحرفة عن مقاييس الاسلام ما يمكن انتشارها في المجتمع وربما تحولت إلى عادات اجتماعية دون أن تقع تحت طائلة مسؤولية الانكار مما يجعل المجتمع المسلم في حاجة إلى وسائل أخرى ـ مع قيامه بواجب الأمر والنهي ـ ليحقق حمايته وحماية أفراده من العادات المستحدثة الضارة.

ومع انتشار وسائل الاعلام القوية اليوم استطاعت العادات الفردية والاجتماعية أن تنتقل بين المجتمعات الانسانية بشكل أسرع مما يشكل تهديدا على عادات بعض الثقافات التي تجابه بغزو ثقافي مكتسح عبر وسائل الاعلام القوية والتي تسيطر عليها جماعات معينة بسبب تفوقها التكنولوجي في هذا المجال. وقد كان علماء الاجتماع يشيرون في حديثهم عن التغير في العادات الى أثر عادات الحكام وأصحاب السلطان وفي هذا يقول ابن خلدون: (والسبب الشائع في تبدل الأحوال والعوائد أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه كما يقال في الأمثال الحكيمة الناس على دين الملك، وأهل الملك والسلطان إذا استولوا على الدولة والأمر فلابد من أن يفزعوا الى عوائد من قبلهم ويأخذون الكثير منها ولا يغفلون عوائد جيلهم مع ذلك فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل الأول، فإذا جاءت دولة أخرى من بعدهم ومزجت من عوائدهم وعوائدها خالفت أيضاً بعض الشيء وكانت للأولى أشد مخالفة ثم لا يزال التدرج في المخالفة حتى ينتهي إلى المباينة بالجملة فما دامت الأمم والأجيال تتعاقب في الملك والسلطان لا تزال المخالفة في العوائد والأحوال

---

(١) شيخ الاسلام بن تيمية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مرجع سابق ص ١٥.

واقعة) وهذه حقيقة اجتماعية تشير إلى تأثير أخلاق وعادات ذوي السلطان في أخلاق وعادات أفراد المجتمع)[1] وهذا أمر كان في الماضي إذ ينحصر نقل العادات في محيط الحكام أما اليوم فإن التلميع الاعلامي لم يقصر ذلك عليهم فالقدوة في الأخلاق والسلوك لأبناء البلاد النامية هم في الغالب من خارج محيط ثقافتهم، فإذا سيطر نوع من الاعلام الخارجي، فإن العادات التي يحتويها ستكون أكثر تأثيرا من أي عادات غيرها سواء كانت عادات ذوي السلطان أو غيرهم ودراسات تأثير وسائل الاعلام على الثقافات المحلية خير شاهد في هذا، في دراسة لتأثير وسائل الاعلام قام بها أحد علماء النفس في أميركا الجنوبية أثبت (إن المثل الأعلى للبطولة بالنسبة للطفل الفنزويلي كان يتمثل في شخصية أمريكية في ٨٦,٣ ٪ من الحالات بينما لم تتجاوز نسبة الأطفال الذين تمثلوا شخصية فنزويلية ٧,٩ ٪)[2]. وهذه النتائج تتكرر أمثالها في معظم الدراسات التي أجريت لقياس تأثر الثقافات المحلية بالبرامج الاعلامية مما يثبت أن حصر القدوة في أصحاب السلطان كما قال ابن خلدون وغيره من دارسي أحوال المجتمعات كان قبل ظهور وسائل الاعلام الجماهيرية التي سيطرت على عقلية الناس وأصبحت تقدم لهم القيم والعادات والأذواق وتساهم في تشكيل اتجاهاتهم وآرائهم بنسب متزايدة، ومما يثبت ذلك أن أصحاب السلطان أنفسهم يستفيدون من قدرات وسائل الاعلام للتمكين لما يعتقدونه من قيم، ونشر السلوك الذي اعتادوه ويرغبون في نشره بين الناس.

المنكر في وسائل الاعلام:

إن القاعدة الشرعية في موضوع النهي عن المنكر مستمدة من قول رسول الله ﷺ (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق ص ٢٩.

(٢) د. ر. مانكيكان: تدفق المعلومات، ترجمة فائق فهيم، دار العلوم بالرياض سنة ١٤٠٢ ص ٩٤.

يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الايمان)[1] فإذا كان المنكر ظاهراً وجب انكاره على فرض الكفاية بما يحقق المصلحة التي يهدف اليها الشرع بايجابه هذه الفريضة.

والنهي عن المنكر في الاسلام يهدف إلى:

١ ـ زجر صاحب المعصية وتأديبه.

٢ ـ رجوع العامة عن مثل حاله.

وذلك لأن المعصية إذا خفيت لم تضر صاحبها، ولكن إذا أعلنت فلم تنكر ضرت العامة (فما دام الذنب مستوراً فمعصيته على صاحبه خاصة، فإذا ظهر ولم ينكر، كان ضرره عاما، فكيف إذا كان في ظهوره تحريك غيره اليه، ولهذا انكر الامام أحمد وغيره أشكال الشعر الغزلي الرقيق، لئلا تتحرك النفوس إلى الفواحش)[2].

والمنكرات التي تظهر في التلفزيون ونحوه من وسائل الاعلام المرئية هل تتحقق فيها شروط الانكار؟ أم أن وسائل الاعلام تختلف؟.

إن المسألة ذات جانبين جانب صاحب المعصية الذي يظهر في وسائل الاعلام من الممثلين والمغنين والراقصين ومقدمي البرامج، والجانب الأخر هو ضرر ذلك على المجتمع، والذي يهمنا هو جانب المجتمع وأثر ذلك عليه، ولاشك أنه جانب معتبر في الشرع في حالة ظهور المنكر، بل هو السبب الأهم وذلك لخطورة السكوت على المنكرات عند ظهورها لما يترتب على ذلك من انتشارها وخطورة عقوبتها العاجلة من الله.

ولا شك أن الانحرافات الفكرية والخلقية والسلوكية التي تظهر في وسائل

---

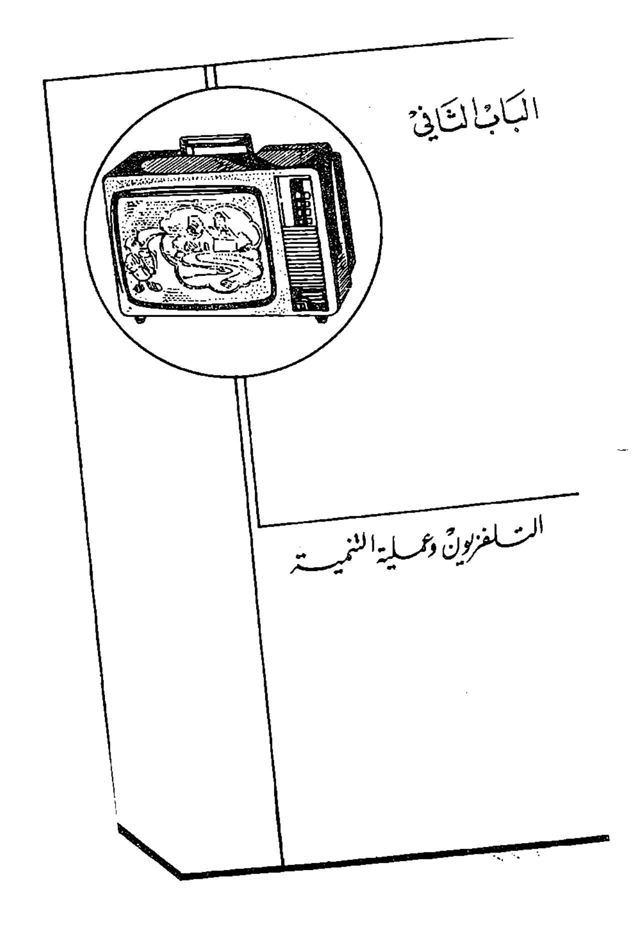
(١) الامام مسلم، صحيح مسلم، كتاب الايمان، المجلد الأول ص ٦٩. طبع في استامبول ١٤٠١ هـ.

(٢) شيخ الاسلام ابن تيمية: الفتاوي، المجلد ٢٨ الطبعة الأولى من ص ٢١٥.

الاعلام أكثر انتشارا من الانحراف والمعصية التي يرتكبها فرد في أحد شوارع المدينة أو القرية ولا يراه إلا المحيطون بالفاعل، ومع قلتهم إلا أن الشرع اعتبر ذلك تهديدا للمجتمع بأسره إذا لم يتدارك بالانكار أوشك الله أن يعم بالعقوبة الجميع لسكوتهم، فشرط اعلان المنكر متحقق بوسائل الاعلام أكبر من تحققه بغيرها، وخطر انتشار الجرائم والانحرافات عن طريقها أكبر كذلك. كيف وفي ظهور المنكر تحريك غير الفاعل إلى الفعل كما أشار ابن تيمية، فهذا الظهور للمنكر ليس ظهوراً عاديا بل تتحقق به الدعوة العلنية ـ ولو بطريق غير مباشر ـ لارتكاب المنكرات ولاشك أن من يدعو إلى فعل المنكرات أشد ضرراً على المجتمع ممن يرتكبها بنفسه فقط ويقتصر ضرره على نفسه دون سواه، فهذا مع أن الاسلام أمر بمنعه من الحاق الضرر بنفسه ـ كشارب الخمر الذي لا يضر أحداً ـ إلا أن من يدعو غيره إلى ارتكاب المنكرات يجب أن تكون معاقبته أشد من مرتكبيها، وهذا أمر مطرد في أحكام الشريعة وفي الممارسات القانونية فمستعمل المخدرات تختلف عقوبته عن التاجر المروج لها لافساد المجتمع.. وهكذا.

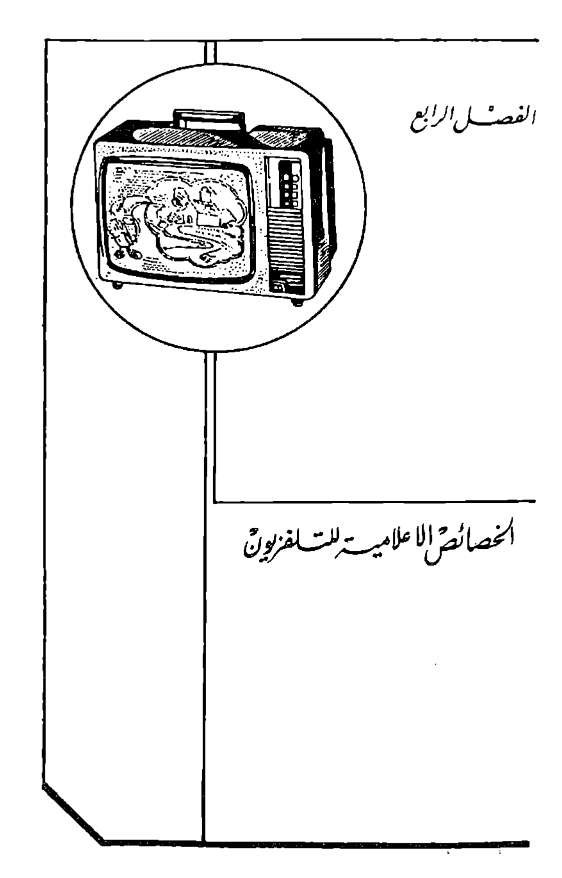
وعلى هذا فإن ازالة المنكرات من وسائل الاعلام أوجب من انكارها على أفراد الناس وذلك بالنظر إلى مصلحة المجتمع الذي يهددها اعلان المنكر والدعوة إليه واستمالة الناس إلى فعله.





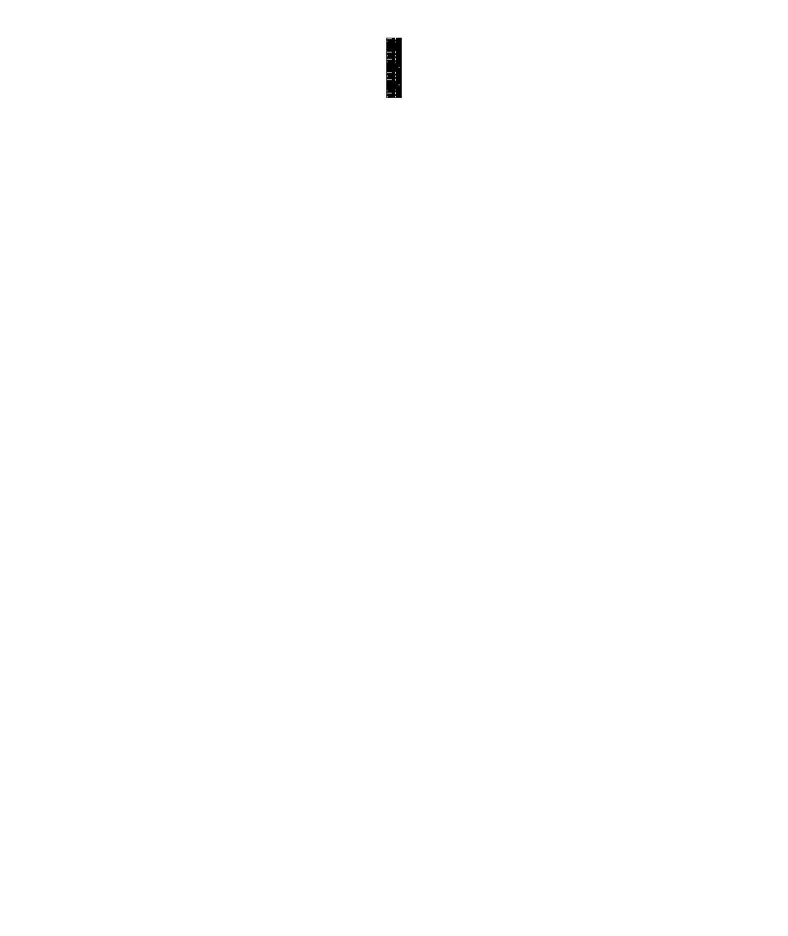
الباب الثاني

التلفزيون وعملية التنمية



الفصل الرابع

الخصائص الاعلامية للتلفزيون



الفصل الرابع

الخصائص الاعلامية للتلفزيون

القوة التأثيرية لوسائل الاعلام

ساد الاعتقاد في بداية القرن العشرين بقوة وسائل الاعلام وقدرتها على رسم الأفكار ودفع الأفراد لفعل ما يراد منهم وأن الرسائل الاعلامية تعتبر منبّهات تحدث استجابة شرطية لدى المشاهد مما (أشعر الناس بالقلق لاحساسهم بأن وسائل الاعلام قد حلّت محل العنف أو القهر في اخضاع الجماهير واقناعها بتقبّل الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية القائمة. باختصار ساد الشعور بالخوف في الولايات المتحدة من قوة ونفوذ وسائل الاعلام والتهديد الذي يكمن في استخدام الدعاية وتأثير الثقافة الجماهيرية التي تضعف القدرة النقدية للجماهير وتجعلها تقبل بلا مقاومة ما يقدّم لها، وتستسلم بلا تفكير لاولئك الذين يسيطرون اقتصادياً على وسائل الاعلام من الرأسماليين. فقد ظهر في الثلاثينات أن الرأسمالين. يسيطرون على وسائل الاعلام، إمّا بالملكية المباشرة أو بالتمويل عن طريق الاعلان. معنى هذا أن أقليّة صغيرة من الأفراد من الذين لا يمثّلون الجماهير العريضة؛ أصبحوا يسيطرون على عقول وتفكير السواد الأعظم من الناس ويعملون على تثبيت مكانتهم بالمحافظة على الأوضاع الراهنة، وبالتأثير السيكلوجي على الفرد العادي الذي أصبح لا يمكنه الاستغناء عن وسائل الاعلام الجماهيرية. وقد عبّرت لجنة حرّية الصحافة التي شكّلت عام ١٩٤٣ م وأصدرت تقريرها عام ١٩٤٧ م عن هذا القلق حينما قالت إن وسائل الاعلام اصبحت من الضروريات الأساسية في حياة الفرد في المجتمع الحديث، وأنه بالرغم من ازدياد أهمية تلك الوسائل إلّا أن نسبة الأفراد

القادرين على استخدامها قلّت كثيراً، لأن وسائل الاعلام أصبحت مؤسّسات ضخمة تسيطر عليها أقلّية مما يهدّد النظام الديمقراطي. هذا الخوف والقلق كان يعكس في الواقع حقيقة أساسية وهي أنه كان هناك ايمان شديدة بقوة تأثير وسائل الأعلام)[1]. الاّ أن فترة الأربعينات وما بعدها وما حدث فيها من نتائج الانتخابات العامة في الولايات المتحدة الأميركية جعلت الباحثين يعيدون حساباتهم في القدرة التأثيرية لوسائل الأعلام، وأن نظريات التأثير المباشر لوسائل الأعلام، والمنبّه الشرطي، والحقنة تحت الجلد، والرصاصة التي تصيب الهدف لم تعد صالحة لتفسير تأثير وسائل الاعلام، وأن عملية التأثير أكبر وأصعب من أن تفسّر بهذه السهولة، وأن الأمر يحتاج الى دراسات طويلة الأجل لمعرفة حقائق التأثير، ولعلّ أسرع الأحكام التي قيلت في هذه الفترة أن قوة تأثير وسائل الأعلام أسطورة سقطت، وإنها ليست حقيقة، وأن الذين يؤمنون بقوتها يعيشون بعيداً عن الحقائق العلمية، وواضح أن هذه المقولة المستعجلة رد فعل معاكس للايمان المطلق بقوة وسائل الاعلام والذي لم يقم على أسس علمية، وانّما اعتمد على ادّعاءات رجال الدعاية في الحرب العالمية الثانية والذين كانوا يتفاخرون بما حقّقته دعايتهم من انتصارات. وعلى أسلوب الدعاية خلطت الحقائق الثابتة بغيرها من الادّعاءات فالتأثير حقيقة، لكنه ليس حقنة تحت الجلد مضمونة التأثير.

وقد أظهرت الدراسات التي استمرت الى وقتنا الحاضر أن تأثير وسائل الاعلام عملية مستمرّة متفاعلة ذات جوانب متعدّدة لا تخضع لعامل واحد، وأن التأثير يخضع لظروف الرسالة وظروف المستقبل والعوامل المساعدة، وأن غالب التأثير لا يظهر الاّ بعد فترات طويلة (فوسائل الأعلام تعمل - في أغلب الأحوال - كعامل مكمّل لأحداث التأثير وان كانت في بعض الأحوال قد تكون السبب الرئيسي أو السبب الضروري لاحداث التأثير، وقد يكون في أحوال أخرى السبب الوحيد الذي ينتج عنه تأثير. كما ظنّ ان وسائل الأعلام التي

---

(١) د. جيهان رشتي. الأسس العلمية لنظريات الأعلام. ص ٥٦٧ دار الفكر - لم تحدّد الطبعة ولا سنة النشر.

تعمل في أغلب الأحوال من خلال عوامل وسيطة، قد يكون لها أحياناً تأثير مميّز ومباشر[1]. ويجدر بنا أن نشير الى ان معظم الآراء التي قيلت والدراسات التي تمّت في الثلاثينات والأربعينات عن قوة أو ضعف وسائل الاعلام كانت تعتمد على أن الصحافة هي الوسائل المؤثّرة حيث أن التلفزيون لم يظهر بعد أو انه في بداياته، ولم تظهر له آثار قوية بحكم محدودية انتشاره. أمّا اليوم، وبعد أن أصبح التلفزيون يملك هذا الانتشار العريض والاهتمام الكبير ـ فان من المغالطة العملية التقليل من تأثيره ـ لأن المنطق والخبرة والواقع تؤيّد هذا التأثير (أما المنطق فإن جهازاً خطيراً كالتلفزيون لا يمكن أن يظلّ تأثيره حيادياً، وقد صار جزءاً من حضارتنا المعاصرة، وعنصراً كبيراً في تشكيل آرائنا واتجاهاتنا وسلوكنا.

أمّا الخبرة، والواقع فقد برزت مشكلات كثيرة بسبب هذا الجهاز يحسّها الآباء والمربّون ورجال الدين، وقد يدعّمها بعض أرباب التخصّص وذوو الخبرة في المشكلات الاجتماعية من وقت لآخر[2]. وقد اقترحت لجنة وطنية شكّلت في جمهورية المانيا الاتحادية بمناسبة العام الدولي للطفل فرض حظر على جميع اعلانات التلفزيون قبل الساعة «الثامنة مساءاً»، وذلك لحماية الأطفال من أن يصبحوا «ضحايا للمجتمع الاستهلاكي» وقال أحد علماء الطب النفسي للأطفال في شهادته أمام جلسته للجنة التجارة الاتحادية الأمريكية، حول القيود المقترحة على اعلانات التلفزيون: ان الأطفال الصغار قد يصبحون متشكّكين في والديهم ومدرّسيهم أو أي شخصيّات أخرى تنتقص من أهمية منتجات غذائية مسكّرة أو لعبة للأطفال سيئة الصنع يجري الاعلان عنها بدهاء. وأضاف «إن الشعور بعدم الثقة ينشأ عندما تصمت شخصيّات لها سلطة شرعية، مثل الأبوين أو تفقد حجيّتها، اذا ما استخدمت أساليبها الضعيفة للاقناع في

(١) جيهان رشتي. الأسس العلمية لنظريات الاعلام. ص (٥٧١). دار الفكر.

(٢) د. عدنان الدوري. أثر برامج العنف والجريمة على الناشئة ص (٦). وزارة الاعلام الكويتية عام ١٩٧٧ م.

مواجهة قوة الاعلان التلفزيونية لدى الأطفال الصغار)[1]. هذا في قوة تأثير الاعلان ـ فكيف تكون قوة تأثير الدراما التي تعتمد على الخيال، والحبكة الفنية التي تشد انتباه الكبار والصغار والتي تقدّم الاعلانات خلالها اعتماداً على قدرتها في شدّ الانتباه. إن إنكار تأثير التلفزيون أو التقليل منه أمر يخالف المنطق والواقع، والتجربة على رأي الدكتور/ عدنان الدوري.

وبالرغم من اختلاف وجهات النظر في هذه النقطة ـ فإن الدراسات العديدة قد أثبتت بأن التلفزيون يؤثّر على الصغار والكبار على حدّ سواء ـ وأن التلفزيون أثّر عملياً على المشاهدين. وقد أثبتت دراسات في جامعة شمال كارولينا على أطفال الحضانة، حيث خصّص أطفال لرؤية احدى عشرة حلقة من برامج العنف، والآخرون لرؤية احدى عشر حلقة من برامج تخلو من العنف في نفس الوقت، وعند مراقبتهم عن بعد في أثناء لعبهم العادي وجد الفرق واضحاً في مسلك الأطفال.

كما أوضحت أبحاث أخرى أن ما يعرض في روايات الهنود الحمر، والكاوبوي، والجريمة، والتجسّس، والكوميديا وغيرها من برامج التلفزيون المحبّبة قد أثبتت فعاليتها في توضيح أساليب العنف الانساني، والانتقام، والسطو ، والفرار والقتال ـ وبالتالي سهل تعلّمها وتقليدها، ومع أن التلفزيون ليس وحده الأداة المثيرة للعنف واللاأخلاقية ـ الاّ أنه أكثر الأدوات فعاليّة)[2].

واذا كانت الدلائل والدراسات والأبحاث والتجارب في معظمها تؤيّدهذه القدرة التأثيرية المتنامية للتلفزيون وبعضها يقف حائراً مدّعياً أن الأدلة غير كافية لاثبات هذه القوة التأثيرية، فان هذا أمر طبيعي لأسباب منها:

---

(١) شون ماكبرايد ورفاقه. اصوات متعددة وعالم واحد ص (٣٢٩) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر ١٩٨١ م.

(٢) محمد محمود متولي. الاعلام في العصر الحديث. رسالة دكتوراه مقدّمة لكلية الدعوة الاسلامية بالقاهرة ص (٥٣٩) بحث مقدّم الى كلية أصول الدين بالقاهرة /جامعة الأزهر للحصول على درجة التخصّص الدكتوراه في الاعلام الاسلامي. ربيع الثاني عام ١٤٠١ هـ.

١ ـ ان طبيعة الدراسات النظرية والتي لا يمكن أن تخضع للتجريب المدرك بالحواس كالدراسات الطبيعية يغلب على نتائجها هذا الخلاف في وجهات النظر وهذا أمر طبيعي، ومع ذلك ـ فان أكثر الأدلّة هي التي تؤيّد قوة التأثير ـ بل منها ما يجزم به، والرأي الآخر لا ينفي التأثير ولا قوته ولا يدعي أدلّة على ذلك، وإنّما يعتبر الأدلّة التي تؤيّد قوة التأثير غير كافية كأسلوب علمي قطعي.

٢ ـ ان غالبية من يقلّل أهمية تأثير التلفزيون السلبي يعترفون بتأثيره الايجابي في التثقيف، والتعليم، والتوجيه، والدعاية، وهذه أمور لا تتحقّق الاّ بعد التسليم بقدرته على التأثير.

٣ ـ ان الذين يقلّلون من خطر الآثار السلبية لبرامج التلفزيون أغلبهم أصحاب مصالح، أمّا الشركات المنتجة للبرامج ويهمّها رواج انتاجها بغضّ النظر عن آثاره، أو المسؤولون عن محطّات الارسال ـ خاصّة في الدول النامية ـ وهم عاجزون عن تقديم البديل الجيّد لتلك البرامج فيبرّرون عجزهم بالتقليل من أخطار تلك البرامج، ولا يخفى أن صاحب المصلحة مجروح العدالة فيما يخص مصلحته. وما يؤكّد هذه النقطة الأخيرة أن أحدهم عندما يكون مسؤولاً يدافع عن البرامج التي تقدّم ولا يرى بأساً أو يقلّل من ضررها، واذا انتقل من المسؤولية أو انتقلت منه بدأ يحذر وينذر من أخطار تلك البرامج، وهذا دليل على ان تقليله للأخطار في السابق لم يكن بناءا على دليل، ولكنه الدفاع عن المصلحة فينبغي ألا ينظر الى تلك الآراء على أنها آراء علمية قوية حيث ينقصها الدليل والحجّة، والبرهان. وهي لا تضعف بحال من دلالة الدراسات والأبحاث والتجارب التي تجزم بقوة تأثير التلفزيون.

وهذه الأدلّة القوية التي كوّنت اقتناعاً بقوة تأثير التلفزيون لا تنفي أو تتعارض اطلاقا مع حقيقة أن الاتصال عملية معقّدة تتحكّم فيها مجموعة متشابكة من العوامل النفسية، والثقافية، والاجتماعية.

ونحن نبحث في موضوع تأثير وسائل الاعلام ينبغي أن ندرك أن معظم الدراسات والبحوث في هذا المجال ـ وهي تشكّل نسبة كبيرة من المراجع المتاحة في هذا المجال ـ قد تمّت في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي تحكمها ـ أو تغلب عليها ـ قيم ومعايير مادّية، ومن دلائل ذلك أن معظم تلك الدراسات تتجه الى مجال الاعلان التجاري أو اعلانات المرشّحين السياسيين، وهذين المجالين يظهر فيهما تحكّم المعايير المادّية أكثر من أي معيار آخر، مما يجعل اثبات التأثير أو عدم التأثير بشكل حاسم لا يحقّق مصلحة أي طرف في القضية.

فالمرشّح السياسي مع اقتناعه بدور الحملة الاعلانية وتأثيرها لا يرغب أن يُثْبِت علمياً فعاليتها، لأن معنى ذلك أنه وصل الى المنصب من خلال الدعاية فقط.

وكذلك بالنسبة لصاحب البضاعة لا يريد أن يثبت علميًا أن بضاعته أو خدماته وصلت الى المستهلك بسبب الدعاية المؤثرة، لأن معنى ذلك التقليل من جودة البضاعة الحقيقية. وهذه النقطة، ذات دلالة على عدم الحسم في قضية التأثير، فالوصول الى أن وسائل الاعلام تؤثّر أو لا تؤثّر، ليس هدفاً لأصحاب الحملات السياسية أو الاعلان التجاري وإن كانوا في قرارة نفوسهم يدركون تأثيرها ويتعاملون على ضوء دراسات دقيقة، ويموّلون الحملات على هذا الأساس بمبالغ خيالية، لا يمكن أن يقدموا على إنفاقها إلّا وهم يدركون (جدواها التأثيرية) خاصة وهم أهل دراسة الجدوى الاقتصادية وينبغي أن نربط بين هذا وبين الاتجاه إلى تمييع قضية التأثير، لأن اثبات قوة التأثير ضد مصلحة النفعيين من رجال السياسة، ومن أصحاب رؤوس الأموال.

أمّا ما يتعلّق بالقيم الأخلاقية والسلوكية في أمريكا (فإن الجمعيات الدينية والاجتماعية تطلب مراقبة ما تنتجه هوليود من أفلام سينمائية، وبدأت هذه الجهود من خلال ما عرف بعد ذلك بالحصيفة الخضراء، وهي مجموعة قواعد تشكّل دستوراً أخلاقيّاً لتقييم الأفلام السينمائية التي تنتجها صناعة

هـوليود)[1]. واشتملت تلك القائمة على معايير تمنـع منعاً مـطلقـاً نـوعيـة من الأفلام التي ترى أن الشعب الأمريكي يرفضها ويطلب تحريمها كما قالت المنظمة الأخلاقية الأمريكية المعروفة باسم (جماعة أخلاق الأغلبية) بحملات أخلاقية ضد البرامج التي تعرضها شبكات التلفزيون وأصدرت قائمة بالبـرامج التي تعتبـرها منـافية لـلأخلاق ودعت الى مقاطعة الشركات التي تكفـل هذه البرامج، وكانت الحملة تستهـدف بالتحـديد ثلاث شـركـات وهي: «شـركـة المنتجات المنزلية، والشركة العامة للأغذية، ومؤسسة واريز ولابـرت». ولكن هذه الحملة ذهبت أدراج الرياح بل ووجّهت الاتهامات للمنظمـة بأنهـا تفرض رقـابتهـا على أذواق وعـادات المشـاهـدين الأمـريكيـن)[2]. وأصبحت رغبـة المشاهدين سيفاً مسلّطاً على من يحاول الوقوف أمام السيل الجارف من الأفلام والبرامج التي لا تضع للأخلاق والقيم الاجتماعية أي اعتبار، وفي الحقيقة أن رغبات المشاهدين هي من تكوين هذه المواد المنحرفة فلم يكن المشـاهدين في الســابق على هذا المستوى من الذوق الرديء ومن خلال هـذه البـرامـج الهـابطة تعـوّد المشـاهـد على هذه النـوعية الـرديئة التي تسيطر على ساعـات العرض، وقصّة فيلم «الأرملة جونز» والذي رفضه الشعب الأمريكي لاحتوائـه على قبلة واحدة تدل على أن أذواق المشـاهدين تتأثر بالمواد التي تعرض، وأن الأثر التبادلي بين المواد البرامجية وأذواق المشـاهدين أمر ملاحظ.

وأمـام سيطرة الاعـلان على برامـج التلفزيـون في الغرب وعـدم تحمل المحطات التلفزيونية مسؤولية الارتقاء باذواق المشـاهـدين وافادتهم، نجـد أن الأهـداف تتجه الى ابقـاء المشاهـد أكبر قـدر ممكن أمام التلفـزيـون لضمـان مشـاهدته للاعلان، أمّا موضوع محتوى برامج التلفزيـون فيخضع اولاً وأخيـراً للتحليلات الاحصائية عن تكلفة توصيل الرسـالة الاعلانية للألف مشـاهد، فهذه

---

(١) د. عدنان الدوري. أثر برامج العنف والجريمة على الناشئة. مرجع سابق ص (٥١).

(٢) د. غازي زين عوض الله. التلفزيون التجاري في الولايات المتحدة. تهامة. الطبعة الأولى عام ١٤٠٤ هـ ص (٣٦).

الغايات المادّية المسيطرة على ذهنية منتج البرامج تجعل اهتمامه بنوعية البرامج أمر ثانوي وهذه حقيقة ما يقوله كبار العاملين في مجال الانتاج البرامجي يقول «سوني فوكس» نائب المدير العام لاحدى الشبكات سابقاً وأحد المنتجين للبرامج حالياً: (إن الحقيقة العارية للتلفزيون التجاري في أمريكا ـ هي أنه وسيلة لتسويق المنتجات أولاً، ثم وسيلة ترفيه بعد ذلك) ويضع أحد مديري الاعلانات هذه الحقيقة بوضوح أكثر فيقول: (يخدعك من يقول لك إن التلفزيون الأمريكي أي شيء آخر عدا أنه وسيلة اعلانية مؤثرة) ولا نتصوّر من هذا أن التلفزيون لا يهتم بالبرامج غير الاعلانية، إنه يهتم بالبرامج ولكن اهتمامه محكوم بخدمة الاعلان أولا، وأن البرامج في خدمة الاعلان، أمّا البرامج الجيّدة والموجّهة الى جمهور واع فليست من مسؤولية التلفزيون، وإن من يهتم بذلك يكون مجالا للسخرية على حدّ تعبير المعلن السابق.

وما دام الأمر كما رأينا، فان نتائج الدراسات عن تأثير التلفزيون والتي تمت في بلاد الغرب بشكل عام وفي الولايات المتحدة الأمريكية بشكل خاص لا تنطبق على واقع البلاد الأخرى لاختلاف ظروف كل بلد، وللتباين الواضح في اهتمامات القائمين على محطّات التلفزيون، والاختلاف في معدلّات التغيّر لاختلاف طبيعة القيم الاجتماعية، والعادات، والمعايير الاجتماعية، وسائر مكوّنات البناء الثقافية، وطبيعة الانساق الاجتماعية، مما يجعل نتائج الدراسات لا تتفق بالضرورة.

ولا يخفى أن معظم المواد البرامجية التي تصدر الى البلاد النامية ـ هي من تلك المواد المستهلكة في الغرب وهي تحمل كل تلك التناقضات بين الأهداف والغايات بين مصادر الانتاج وأماكن الاستهلاك ـ وأن تلك المواد الوافدة هي أحد العوامل المساعدة على التغريب الذي يتم في البلاد النامية بمعدّلات كبيرة خاصة تلك الدول التي تدور في فلك الغرب.

خصائص التلفزيون :

في هذا الفصل الذي تعرّضنا فيه لتطور الوظيفة الإعلامية للتلفزيون، وذلك ضمن التعرّف على الوظائف الإعلامية بشكل مجمل والتطوّر الذي طرأ عليها وما دخل إليها من وظائف جديدة لم تكن من الوظائف الإعلامية في يوم من الأيام الماضية بل وحتى الوقت الحاضر لا تزال تصنّف ضمن وظائف الدعاية أو الاتصال الإقناعي، والتطوّر الذي طرأ على وسائل الإعلام باختراع التلفزيون، فوظّف هذه الوسيلة القوية لتحقيق الوظائف الإعلامية بمختلف أشكالها.

وفي هذا المبحث نحاول تحديد الخصائص التي تميّز بها التلفزيون عن غيره من بقية وسائل الإعلام الأخرى خاصة ما يتعلّق بمقدرته على التأثير أو رفع أسهمه في هذا الجانب.

وقبل دراسة هذه الخصائص والمميّزات، تحسن الإشارة إلى مجالين كبيرين يختلف كل منهما عن الآخر في دراسة الأثر وإن كانت الدراسة ينبغي أن تشملها، إلّا أن معظم الدراسات الإعلامية التي تهتم بدراسة أثر وسائل الإعلام تعنى بأحدهما دون الآخر؛ أو بشكل أدقّ تعنى بالأول أكثر من الآخر.

المجال الأول : دراسة المضمون.
المجال الثاني : دراسة الوسيلة ذاتها وتأثيرها.

واضح أن دراسة مضمون الرسائل الإعلامية وما يقدّم فيها من معلومات أو ترفيه والأهداف التي يُرمى إليها بتقديم ذلك المضمون، كان هو الهدف الواضح في معظم الدراسات المهتمة بجانب أثر وسائل الإعلام. أمّا الوسيلة، فمن روّاد الاهتمام بدراستها «مارشال ماكلوهن» والذي عني بدراسة الوسيلة الإعلامية كثيراً وظهرت نظريته القائلة ـ بأن الوسيلة هي الرسالة مما يوحي بتقديمه تأثير الوسيلة واهتمامه بها أكثر من تأثير مضمون الرسالة نفسها ـ بل تجاوز هذا ورفض رأي نقّاد وسائل الإعلام الذين يدّعون أن وسائل الإعلام

الجديدة ليست في حدّ ذاتها جيّدة أو رديئة، ولكن الطريقة التي تستخدم بها هذه الوسائل هي التي تحدّ أو تزيد من فائدتها. ويقترح ماكلوهن بدلاً من ذلك أنه علينا أن نفكّر في طبيعة وشكل وسائل الإعلام الجديدة، فمضمون التلفزيون الضعيف ليس له علاقة بالتغيّرات الحقيقية التي يسبّبها التلفزيون نفسه)[1].

والحقيقة أن الوسيلة عظيمة الأثر بدون شك، لكن المضمون له أهميته الواضحة من الدراسات الكثيرة التي تفرّق بين الأثر المترتّب على المضامين المختلفة في مجتمعات مختلفة. فهل يستطيع أحد أن ينكر الفرق الواضح بين آثار الإعلام في كل من المجتمعات الغربية، والمجتمعات الشيوعية. لكن هذا أيضاً لا يدفعنا إلى إغفال الآثار الكبيرة المترتّبة على الوسيلة في حدّ ذاتها. فالتلفزيون عندما وجد ظهرت له آثار كبيرة غير المحتوى والمضمون الذي تحتويه الرسائل الإعلامية التي ينقلها، فله تأثيره الاقتصادي على الأسرة، وله تأثير على ترتيب أوقات الأسرة، وقضاء فراغها، واجتماعها، وتفرّقها، وله تأثيره على بقية وسائل الإعلام السابقة له، وهذه التأثيرات لها تأثيراتها الأخرى المتفاعلة والمستمرة، فلا شك أن الوسيلة لها تأثيرها الواضح الجليّ قبل النظر في مضامين الرسائل التي تحتويها، ومن ثم فإن مضامين الرسائل لها تأثيرها الآخر والذي يتفاوت قوةً، وضعفاً ـ إيجابياً وسلبياً،حسب ما بذل في إعدادها وإخراجها، وبقدر اتّفاق أهدافها مع قيم المجتمع الذي تنتمي إليه والتزامها بتحقيق تلك الأهداف ومدى قوّة الوسيلة التي اختيرت لحمل تلك الرسالة.

والتلفزيون يتميّز عن غيره من وسائل الإعلام الأخرى ببعض الإمكانات التي ينفرد بها، كما أنه يختلف عن غيره من الوسائل التي تشاركه في بعض الخصائص، مما يجعل تأثيره يتميّز عن تلك الوسائل ـ ومن هذه الخصائص :

---

(١) د. جيهان رشتي. الأسس العلمية لنظريات الإعلام. دار الفكر العربي. ص (٣٨٤).

١ ـ الصورة، والحركة، واللون:

إنَّ أهم ما يميِّز التلفزيون عن سائر وسائل الإعلام هو اعتماده على حاسّة البصر بالدرجة الأولى إلى جانب حاسّة السمع. وعن طريق حاسّة البصر يكتسب الإنسان ثمانية أعشار معلوماته، كما أن استيعاب المرء للمعلومات يزداد بنسبة (٣٥ ٪) عند استخدام الصورة والصوت في وقتٍ واحد، كما تطول مدة الاحتفاظ بهذه المعلومات عندئذٍ بنسبة (٥٥ ٪)[١] هذه الصفة التي جعلها الله لحاسّة البصر دون سائر الحواس الأخرى في الإنسان قد اختص بها التلفزيون دون سائر وسائل الاتصال الجماهيرية الأخرى تقريباً ومكّنته من التفرق الطبيعي لأن هذه الخاصيّة متفوقة بطبيعتها وهي ليست من صنع مخترع التلفزيون أو العاملين فيه، ولكنها خاصيّة طبيعية للمعلومات التي تكتسب عن طريق حاسّة البصر دون سواها من الحواس الأخرى وتنحصر مهارة العاملين في الإنتاج التلفزيوني في حسن استغلال هذه الإمكانيّات الهائلة للصور في اختيارها وترتيبها مع ما يسبقها أو ما يتبعها من صور، لأن معنى الصورة يتغيّر من خلال ذلك الترتيب ويمكن تحديد المعاني التي يراد تقديمها للمشاهد، ومن هنا تأتي خطورة الرسائل الإعلامية الموجّهة، لأنه يمكن تقديم معاني عديدة من خلال تركيبات الصور بطريقة معيّنة وتدخل إلى نفس المشاهد بشكل معين)[٢]. فهذه الخاصيّة تجعل الرسائل التلفزيونية أكثر قدرة في الوصول إلى المستقبل (فعملية الاتصال هي أساساً عملية نفسية وهي بهذا المعنى تجعل هدفها إثارة الاهتمام الذي يسمح وحده بخلق الحالة النفسية من الانفعال التي تجعل المستقبل على استعداد لتلقّي القذيفة الاتّصالية)[٣]. ثم هذه الصور

---

(١) د. فوزية فهيم. التلفزيون فن. سلسلة اقرأ العدد ٤٦٥ ص (٢١) عدد يونيو ١٩٨١ م. دار المعارف.

(٢) فاروق المجري. لقاء علمي تم بقسم الإعلام بالكلية يوم السبت ١٤٠٥/٧/٣٠ هـ الساعة ٧ مساءاً.

(٣) د. حامد ربيع. أبحاث في نظرية الاتصال وعملية التفاعل السلوكي. محاضرات القاها الدكتور على طلبة كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ومعهد الإعلام الجامعي بالقاهرة ١٩٧٣ مكتبة القاهرة الحديثة. ص (١٤٠).

تعتبر رمزاً اتصالية يعطيها المجتمع معانيها ودلالتها المعيّنة في ثقافته الخاصة، فالصور الجنسية العارية التي تغلب على الإنتاج الغربي تُفهم في المجتمع المسلم أنها إثارة جنسية غير مباحة شرعاً، لما فيها من النظر إلى الحرام والدافع إلى الحرام والاعتداء على الحرمات وإشاعة الفاحشة بين المؤمنين، لأن كل ما يتعلّق بالجنس محكوم بنظام من الحلال والحرام شأنه شأن بقية العلاقات الفردية والاجتماعية في المجتمع المسلم. في حين أن هذه الصور في المجتمع الغربي تعتبر من الأمور العادية ـ عند غالبية الناس ـ وذلك لعدم تحريمها قانوناً، وربّما وجد من علماء النفس والاجتماع هناك من يرى أنها من عوامل الإشباع الجنسي الذي يؤدّي إلى الاستقرار النفسي، والاجتماعي.

فالصورة في التلفزيون عامل جذب، وإثارة نفسية لتلقّي الرسالة الإعلامية مهما كان نوع الرسالة ومضمونها، لكن عملية فهم الرسالة وإدراكها يختلف حسب ثقافة كل مجتمع وتفسيره لرموز الرسالة (ومن أبرز صفات التلفزيون استحواذه على مشاهديه، وهذه صفة تجليها الطبيعة المادّية للتلفزيون، فهو يسيطر على سمع الرائي وبصره)[1] فالصورة أعطت التفزيون هذه الخاصيّة التي مكّنته من السيطرة والاستحواذ على مستقبلي الرسائل أكثر من أي وسيلة إعلامية أخرى، وهذا يؤدّي بدوره إلى اختلاف نسب التأثير. ولعلّ أهمية الصورة بالنسبة للتلفزيون واعتماده عليها تتّضح من المقولة التي تروى عن مدير هيئة الإذاعة البريطانية والتي نصح بها العاملين في التلفزيون أن يتخيّلوا دائماً أنهم يخاطبون من فقدوا نعمة السمع. ولا شك أن الاهتمام بفنون التصوير التلفزيوني، وحسن استخدامها أحد العوامل الرئيسية لنجاح المواد البرامجية أو فشلها. فنجد التفاوت الواضح بين برنامج وآخر للاختلاف في العناية والاعتماد على الصورة أو الكلمة، فالبرامج الوعظية

---

(١) د. فتح الباب عبد الحليم سيد. الناس والتلفزيون. مكتبة الإنجلو المصرية عام ١٩٦٣ م ص (١٤).

والتوجيه المباشر إذا لم تستفد من فنون التلفزيون ـ فإن تقديمها من خلاله يعتبر عامل ضعف لها ـ مما يخفض نسبة نجاحها وتحقيق أهدافها.

أمّا الحركة، فإنها أضافت إلى قدرة التلفزيون إمكانيات جديدة ولا تزال مهارات المصوّرين تبرز في تقديم الحركة بشكل يشدّ المشاهد ويطرد عنه السأم والملل مما يحقّق الهدف الأساسي وهو إيصال المعلومات والتأثير بها في جمهور المشاهدين، فمن نقل الحركة الطبيعية للإنسان أو للأشياء عن طريق تثبيت الكاميرا على حامل وادارتها في حركة رأسية على محورها لمتابعة المشهد الذي يجري تصويره، أو وضع الكاميرا على عربة متحركة لتكون حركة الكاميرا في محاذاة حركة المشهد الذي يجري تصويره. أو اقتراب عدسة التصوير من المشهد وابتعادها عنه شيئاً فشيئاً يعطي إحساساً بالحركة، أو تحريك الكاميرا في جميع الاتجاهات من أعلى إلى أسفل ومن اليمين إلى اليسار يخلق الشعور بالحركة، أو التحكم في وضوح الصورة وعدم وضوحها بمعنى إظهار الشيء غير واضح في البداية ثم توضيحه شيئاً فشيئاً يعطي إحساساً بالحركة أو استخدام عدسة الزوم وهي عدسة يمكن تغيّر بعدها البؤري في أثناء التصوير دون توقّف، بحيث يتغيّر حجم اللقطة عند عرضها على الشاشة من اللقطة الشاملة إلى اللقطة المركّزة في حالة الدخول بعدسة الزوم أو من اللقطة المركّزة إلى اللقطة الشاملة في حالة الخروج بعدسة الزوم وهناك فرق جوهري بين استخدام حركة الزوم واستخدام حركة الابتعاد والاقتراب في الحركة الأولى يشعر المشاهد كما لو كان المشهد هو الذي يقترب أو يبتعد عنه، أمّا في الحركة الثانية يشعر المشاهد وكأنه هو الذي يقترب من الموضوع أو يبتعد عنه، وكذلك في الحركة السريعة والحركة البطيئة يستطيع المصوّر أن يتحكّم في سرعة التحركات بحيث تبدو أسرع من الواقع أو أبطأ منه. والحركة السريعة تعني عرض الحركة على الشاشة بسرعة تفوق سرعتها في الحقيقة والتي تم التصوير الأساسي بها.. كما يستدعي القفز بين الزمان والمكان استخدام الحركة السريعة، والقفز بين الزمان يشكّل أقصى استخدامات الحركة السريعة، حيث

تمرّ الثواني والدقائق والساعات بين اللقطات خاصة الأفلام العلمية مثل تصوير الطريقة التي تستدير بها الزهرة لتتبع الشمس طوال اليوم. وتوجد آلات تصوير أتوماتيكية مخصّصة لهذا الغرض وهي مزوّدة بساعة كهربائية تحدّد مواعيد التصوير في حالة غياب المصوّر. . . وقد بلغ فن التصوير التلفزيوني حدّاً جعل في الإمكان عمل أفلام تلفزيونية من الصور الفوتوغرافية الثابتة تبدو وكأنها متحرّكة[1].

أمّا استخدام اللون، فقد أكّدت الدراسات على أن استخدام الألوان في التلفزيون يزيد من قوته على الإقناع بصورة هائلة، كما تزداد فعاليته على التأثير على المشاهدين بشكل مثير ـ وذلك لأن ما يعرض في التلفزيون الملوّن له مزايا لا يحققها التلفزيون الأبيض والأسود أهمها :

١ ـ إن الألوان تضفي على الأشياء المعروضة واقعية كما هي في الطبيعة.
٢ ـ إن الألوان تساعد على التفرقة بين الخصائص المميّزة للأشياء.
٣ ـ إن الألوان تساعد المشاهد على التذكّر[2].

وفي ألمانيا الغربية أجري اختبار متزامن على أربع مجاميع من الطلبة، حيث ألقيت محاضرة عن أشكال الكتابة القديمة. تلقّتها المجموعة الأولى عن طريق التلفزيون الملوّن والمجموعة الثانية عن طريق التلفزيون الأبيض والأسود والمجموعة الثالثة عن طريق الإذاعة. أمّا المجموعة الرابعة فتلقّتها عن طريق القراءة، وكان المضمون واحداً في جميع الحالات ـ كما كان المحاضر واحداً فيما عدا القراءة حيث كان الكتاب هو الوسيط وجاءت النتيجة بالنسبة للقدرة على الاستيعاب في صالح المجموعة التي تعرّضت للتلفزيون الملوّن تلتها مجموعة التلفزيون الأبيض والأسود، ثم الاذاعة وأخيراً القراءة[3]. وهذه

---

(١) د. فوزية فهيم. التلفزيون فن. سلسلة اقرأ العدد (٤٦٥) ص ٩٠.
(٢) يحيى بسيوني، التلفزيون الإسلامي ص ٩٩ عالم الكتب ود. عادل الصيرفي عام ١٤٠٥ هـ.
(٣) د. فوزية فهيم. التلفزيون فن ص ٤٢.

المميّزات الفنية الطبيعية مكّنت منتجي التلفزيون من التصرّف بحريّة أكبر وبإمكانيات أقدر على التأثير بغضّ النظر عن المضامين والمحتويات التي يقدّمونها من خلال برامجهم، فهذه إمكانيّات فنيّة طبيعية مهيأة للاستخدام والتأثير بغضّ النظر عن نوعية الاستخدام أو التأثير المستهدف.

٢ ـ **قدرته على الالتقاء بالجماهير :**

لا يختلف اثنان في أن الالتقاء بالجماهير من أهم أهداف وسائل الاتصال الجماهيرية وتسميتها مشتقة من ذلك وبقية أهدافها لا تتحقّق إلاّ من خلال ذلك اللقاء. لكن هذه الرسائل تختلف في قدرتها على تحقيق الهدف من حيث سعة انتشارها أو قدرتها على جذب الجمهور إليها وتفاعله معها وتأثّره بمضامين رسائلها، وفي الدراسات الإعلامية تكثر المقارنة بين وسائل الاتصال الجماهيرية والاتصال الشخصي من حيث قوة التأثير وفي نظر الباحث أن هذه مقارنة غير منهجية لعدم التشابه أصلاً بينهما وأي حكم يصدر لأحدهما لا يكون منطقيّاً لا من حيث المقدّمات، ولا النتائج. فمستقبل الرسالة يختلف تماماً في كل من حالة الاتصال الشخصي عنه في جميع أشكال الاتصال الجماهيري، فأي مقارنة والحالة هذه ستكون نتائجها مضلّلة للباحث ولمن يريد الاستفادة من نتائج البحث. إلاّ أن ما نريد الحديث عنه الآن هو القدرة على الالتقاء بعدد أكبر من الأفراد من القائم بالاتصال الشخصي ـ إلاّ أن هذه الوسائل الجماهيرية تختلف فيما بينها في تلك القدرة ـ فالإذاعة قبل اختراع التلفزيون كانت الوسيلة ذات الانتشار الواسع خاصة بعد اختراع جهاز الترانزستور الذي وصل إلى كل صقع من الأرض وبعد اختراع التلفزيون ظهرت في البداية عوائق تحول دون سعة انتشاره كان في مقدمتها صعوبة بناء أجهزة الارسال القوية، ثم ارتفاع قيمة أجهزة الاستقبال في تلك الفترة، ونعرض نسبة انتشار أجهزة التلفزيون في الولايات المتحدة الأمريكية خلال أربع سنوات متتالية ليتّضح لنا منها سرعة الانتشار التي خطى بها التلفزيون منذ البداية :

السنة	نسبة الانتشار
١٩٥٠	٤٣ ٪
١٩٥١	٦٨ ٪
١٩٥٢	٨٨ ٪
١٩٥٣	٩٢ ٪ [١]

ولا شك أن هذه النسب تدل بوضوح على سرعة الانتشار المبكّر للتلفزيون، فحينما يبلغ الطالب الأمريكي الثامنة عشرة من عمره يكون قد أنفق (٢٥ ألف) ساعة أمام التلفزيون وهي تزيد على ضعف ما أنفقه من عمره في الدراسة، وهذه دلالة على قدرة هذا الجهاز العجيب في اجتذاب المشاهدين والتأثير عليهم، ولم يكن انتشار هذه الوسيلة بسبب الاقبال الجارف من الأمريكيين فقط ـ بل إن الرأي قد انقسم حوله إلى فريقين مؤيّد ومعارض، وعلى الرغم من المعارضة إلاّ أن التلفزيون قد اكتسح منازل معارضيه[٢]. وهذه الظاهرة العجيبة التي تتّضح في علاقة الأفراد والجماعات بالتلفزيون حيث لا يستطيع كثير من المعارضين مقاومة جاذبيته دليل جديد على قوة هذه الجاذبية والإغراء في إقناع المعارض أو وقوعه تحت ضغوط اجتماعية لا يستطيع مقاومتها، وهذا واضح في كثير من مجتمعاتنا المحافظة، فكثير من أرباب الأسر غير مقتنع بالمادّة الإعلامية المقدّمة في التلفزيون إلاّ أنه لا يستطيع المقاومة وهذه الظاهرة جديرة بالدراسة الجادّة للتعرّف على جوانبها وتقديم الحلول المناسبة لها حتى لا يذهب أبناء المجتمع المسلم ضحايا لإغراء المواد الإعلامية التي لا تتفق مع قيم الإسلام والتي تعجّ بها أسواق المواد البرامجية في العالم كلّه. ويرى د. عبد القادر طاش في هذا أن وسائل الاتصال الجماهيرية أصبحت من الانتشار بحيث أن الإنسان لا يمكنه أن يستغني عنها ولا ينفك منها أو يتخلّص

---

(١) د. عبد الرحمن عيسوي. الآثار النفسية والاجتماعية للتلفزيون العربي. ص ٢٦. الهيئة المصرية العامة للكتّاب. عام ١٩٧٩ م.

(٢) يحيى بسيوني مصطفى. التلفزيون الإسلامي. مرجع سابق.

ـ أي أنها أصبحت تحاصره في كل مكان وهذا عامل قوي لا بدّ أن ندخله في حسابنا، ولو قسنا بقية العوامل لوجدناه أقوى منها ـ فالطفل يجلس مع التلفزيون خمس وأربع ساعات أو ثلاث ساعات في المتوسّط يومياً ـ فكم الساعات التي يجلسها مع والده أو صاحبه أو أصدقائه ؟ فهذا جزء أساسي من البيئة الاجتماعية المعاصرة ولم يكن موجوداً في البيئة الاجتماعية في الأجيال السابقة، مما يجعل المقاييس تختلف وما يقال في الماضي ينبغي أن يخضع للتمحيص والدراسة قبل التسليم به[1].

ومن دلائل إمكانية التقاء التلفزيون بالجماهير آثاره المبكرة على السينما، ففي الولايات المتحدة انخفض متوسّط روّاد السينما أسبوعيّاً من (٩٠ مليون) في عام ١٩٤٦ م إلى (٤٦,٥ مليون) في عام ١٩٥٥ م، وفي إنجلترا حدث بين نهايتي عام ١٩٥٥ م، ١٩٥٧ م أن أغلقت (٢٩٥) داراً للسينما أبوابها من بين الدور البالغ عددها (٤٤٣٧) والذي لا نزاع فيه هو أن التلفزيون قد قام بدور رائد في إحداث هذا الاضمحلال، إذ أنه بديل رائع للسينما عند كثيرين من الكبار[2]. هذه قدرته في بلاد وجدت فيها السينما مبكّراً وأصبحت صناعة مستقرة لها أنصارها ومؤيّدوها وجمهورها وتأثيرها، فكيف يكون الحال بالنسبة للبلاد النامية التي دخلها التلفزيون منفرداً في الساحة دون منافسة من السينما بالكلية أو بمنافسة ضعيفة، لا شك أن انتشاره وشعبيته وتأثيره سيكون أكبر وأشدّ.

إنَّ التلفزيون هو المثال لوسائل الاتصال الجماهيرية إذ يشاهده عدد هائل من الناس، كما أنه يتطلّب كميّات ضخمة من المواد البرامجية لإذاعتها ومن ثم يمكن القول إن تاريخ الإنسانية بأسره لم يشهد من قبل تلك المواد المذاعة ـ كالأخبار والبرامج الترفيهية، والدراما، والبرامج الإنسانية والشخصية ، بمثل

---

(١) لقاء علمي بقسم الإعلام بالكلية يوم السبت ١٤٠٥/٧/٣ هـ الساعة ٧ مساءاً. أعد له الباحث.

(٢) هيلد. ت. هيملويت. التلفزيون والطفل ترجمة أحمد سعيد عبد الحليم ص ١٣٥ جـ ٢. مؤسسة سجل العرب عام ١٩٦٧ م.

هذا القدر من الضخامة الكمية التي تشهدها أعداد غفيرة من الجماهير البشرية. وهذه الملاحظة تنمّ عن أوضح الخصائص الكمية لظاهرة التلفزيون في بريطانيا. . . فعدد المشاهدين يزيد على ثلث السكان وهو جمهور يتراوح بين ١٦، ١٧ مليوناً من المشاهدين للتمثيلية الواحدة أو الاستعراض الترفيهي الخفيف أو المسلسلة[١]. وإذا قارنا هذه الأرقام بجمهور أي مسرحية، فإن مشاهدي التلفزيون يساوي جمهور تلك المسرحية لو استمر عرضها ثلاثون سنة وهذا أمر مستمر في التلفزيون وليس أمراً عارضاً.

ومن الأمور التي تؤثّر على فرصة الانتشار والالتقاء بالجماهير الوضع الاقتصادي، وذلك من جانبين أحدهما القدرة على شراء جهاز التلفزيون، والأمر الآخر عدم الانشغال كثيراً في سبيل تحصيل لقمة العيش وهذا الوضع الاقتصادي يلاحظ في البلاد العربية الغنية عامة وفي البلاد الخليجية بشكل خاص مما يجعل الفرصة مهيأة للتلفزيون للالتقاء بالجمهور بشكل أكبر في تلك المناطق التي تعتبر ظروفها أفضل من الناحية الاقتصادية. كما أن وجود التلفزيون في المنزل يعفي المشاهد من مشقّة الذهاب لحضور العروض السينمائية أو المسرحية، مما يجعل هذا العامل سبباً من أسباب قدرة التلفزيون على الالتقاء بالجمهور والاستئثار بهم بشكل أكبر.

٣ ـ القدرة على التكرار :

من الأمور المسلّم بها أن المعلومات التي يتلقّاها الإنسان لا تستوعب بكاملها، كما أنه يفقد نسبة كبيرة منها بمرور الوقت وقد أثبتت الدراسات أن الإنسان يستوعب ما لا يزيد على (١٠ ٪) مما يسمعه أو يشاهده وينسى (٦٠ ٪) مما تعلّمه خلال ساعة، و(٩٠ ٪) خلال ٢٤ ساعة[٢]. مما يجعل عملية إعادة عرض المعلومات وتكرارها أمر ضروري ليتم تثبيتها ووعيها وتذكّرها والاستفادة

---

(١) د. إبراهيم إمام. الإعلام الإذاعي والتلفزيوني. دار الفكر ص ١٧٤.

(٢) د. سمير حسين. محاضرة ألقيت يوم السبت ١٤٠٤/٦/٨ هـ على طلبة الإعلام بالكلية.

منها. ومن الأمور المدركة أيضاً أن التكرار من الأمور المملّة وغير المحبّبة إلى النفوس، ومن الملاحظات المؤيّدة لهذا ما ندركه جميعاً من أن الأستاذ عندما يعيد بعض النقط من محاضرته يصاب الكثير من الطلاب بالملل من المحاضرة ما لم يكن الأستاذ قادراً على إعادة ما يريد إعادته بأسلوب وشكل جديد يبعده عن دائرة التكرار الممل، ولا شك أن كل محاضر يرغب أن تكون محاضرته بتلك المواصفات المرغوبة إلّا أن القدرة على تحقيق ذلك تختلف من فرد إلى آخر والعزائم والإخلاص لتحقيق الأهداف كلّها تتفاوت وبالتالي تختلف النتائج. وإذا رجعنا لموضوعنا وجدنا التلفزيون من أقدر وسائل الاتصال عموماً على التكرار والإعادة وتقديم الموضوع والفكرة الواحدة بأشكال وقوالب متعددة بحيث يظهر في كل مرّة وكأنه موضوع جديد ـ بل إن المشاهد العادي غير المتخصّص في فنون التلفزيون لا يدرك ذلك التكرار أو لا ينتبه له، وهذه الخاصيّة في التلفزيون هي من أبرز عناصر التأثير فاعتماد الأسلوب غير المباشر يجعل الأثر أبلغ وأشدّ، حيث أن برامج التلفزيون تصل إلى أفراد الأسرة مثلاً وهم مجتمعون وفي حالة تخلّي عن ميكانزم الدفاع عن النفس وعدم التحفّظ أو الانتباه لما يقدّم فيتقبّلون أشياء ما كان لهم أن يتقبّلوها لو كانوا في حالة من الانتباه التام والاستعداد للتحقّق من صحّة وصدق ما يقدّم[1]. فخصائص التلفزيون في التأثير مع خصائص المستقبل في عدم تحفّظه واندماجه مع البرامج المثيرة هيأت للتلفزيون القدرة على إعادة كثير من المعلومات والقيم التي يريد عرضها مرّات ومرّات دون شعور من المشاهد بهذا التكرار فإذا قست البعد التراكمي وجدته يختلف عن بقية أشكال الاتصال الأخرى. فالأب مثلاً يوجّه أبناءه ببعض الكلمات، لكن التلفزيون يقول له اليوم شيء وغداً الشيء نفسه وبعد غد حتى لفترة عشر سنوات وبهذا الأسلوب لو كان المستقبل صخراً لتأثر، وأنا أعتقد أن في حياتنا اليومية الشخصية كثير من الآراء

(١) د. كرم فتحي محمد سالم. اللقاء العلمي.

التي ربّما ما كنّا نتبنّاها قبل عشر سنوات أو خمس عشرة سنة، لكن وسائل الإعلام بمحاصرتها الشديدة وبتكرارها بطرق جذّابة وقوالب فنيّة مختلفة حتى أنك أحياناً لا تدرك مغزى الرسالة التي توجه إليك، فأنا أعتقد أنه بهذه العوامل أن تأثير التلفزيون وتأثير وسائل الاتصال بشكل عام تأثير قوي[1]. وهذا التكرار المقبول لدى المشاهد نتيجة لإمكانية الإخراج الجيّد لدى التلفزيون مكّنت للرسائل التلفزيونية في نفسية المشاهد أكثر من أي وسيلة أخرى وهذا أمر طبيعي ما دام التلفزيون قادراً على تكرار الموضوع بشكل مرغوب كلّ مرّة.

والتكرار في التلفزيون مع أنه خاصيّة مكّنته من التأثير بشكل أكبر، فإن طبيعة التلفزيون (المتعطّشة والشرهة للمواهب الفنيّة والمادة التلفزيونية لملء ساعات الإرسال الطويلة)[2] فهذه دفعت بالقائمين على محطّات الإرسال إلى تكرار بعض المواد ـ مما جعل التكرار صفة ملازمة لبرامج التلفزيون وهذا بدوره يتيح الفرصة لمحتويات البرامج المكرّرة من التأثير بشكل أكبر (وتحليل الحملات الإعلامية الناجحة يشير إلى أنه بالرغم من أن للتكرار فوائد، إلاّ أن إعادة ذكر ما قيل يضايق الجمهور. من ناحية أخرى فإن التكرار بتنويع يقوم بتذكير المستمع أو القارىء باستمرار بالهدف من الاتصال ويثير في نفس الوقت احتياجاته ورغباته)[3]. والتكرار الممل نجده في مختلف الوسائل الإعلامية بشكل واضح لكنه قليل جداً في التلفزيون، وإذا تجنبه القائمون على التلفزيون فإنهم يستطيعون التخلّص تماماً من عيوب التكرار مما يجعل هذه الخاصيّة في صف إيجابيات التلفزيون في مجال قدرته على التأثير.

ومن الملاحظ أن من يتعامل مع التلفزيون من مقدّمي البرامج ومعدّيها دون إدراك لخصائص التكرار المفيد من الناحية الفنية يوقع البرنامج في أخطاء فنية ضارّة تنعكس على الرسالة بعمومها وتفشل في تحقيق أهدافها، فالتلفزيون

---

(١) د. عبد القادر طاش. اللقاء العلمي.

(٢) د. فتح الباب عبد الحليم سيد. الناس والتلفزيون مرجع سابق ص ١٥.

(٣) د. جيهان رشتي. الأسس العلمية لنظريات الإعلام. دار الفكر العربي ص ٥٠٠.

يعتمد أساساً على الصورة والحركة وإذا لم يتعامل معه المرسل في خصوصيته هذه حوّله إلى «راديو» كما هو المشاهد في برامج التوجيه المباشر فإن فشل الرسالة في تحقيق أهدافها كبير الاحتمال ويصبح الراديو في هذه الحالة أفضل من استخدام التلفزيون دون اتقان، فالراديو يجعل الاستجابة للكلمة المسموعة أكبر بما يتيحه لخيال المستمع وتفاعله، فحاسّة البصر إذا لم يقدم لها من خلال البرنامج التلفزيوني ما يشدّها ويثيرها، فإنها تصبح عامل تشتّت ولا تؤدي إلى قوة التأثير، وفي هذه الحالة يصبح استخدام الراديو أفضل[1]. فالتكرار في التلفزيون ليس تكراراً بمعناه اللغوي بمعنى الإعادة فقط ، ولكنه تكرار فني يتفهّم خصائص التلفزيون وخصائص المشاهد، ويقدّم فيه ما يتناسب مع الوسيلة وجمهور المشاهدين وإلاّ فإن الرسالة لا تصل أو تصل مشوّهة وناقصة والنهاية عدم تحقيق أهداف المرسل .

خصائص جمهور البلاد النامية :

بعد تحديد خصائص التلفزيون التي تميزه عن بقية وسائل الإعلام الأخرى وبالتالي تحدّد قدرته التأثيرية على الجمهور المتلقّي للرسائل الإعلامية عبر التلفزيون، نجد أن منهجية البحث تستدعي تحديد خصائص الجمهور، وموضوعنا بشكل خاص يعنى بالدول النامية عموماً، والدول الإسلامية بحكم وقوعها جميعاً في هذه الدائرة لا من حيث المستوى الاقتصادي، الذي يعتبر في عرف الأمم المتحدة مقياساً لتحديد مكانة الدولة في سلّم النمو. ولكن في خصائصها ذات العلاقة بتأثّرها بوسائل الإعلام عموماً والتلفزيون بشكل خاص.

وعندما نذكر خصائص تلك الدول النامية ينبغي أن ندرك ان هذه التسمية «الدول النامية» وإن كانت مصطلحاً عالمياً يعترف به في أعلى الدوائر المتخصصة بدراسة النمو وفي أدناها إلاّ أنها لا تمثّل حقيقة تلك الدول، إذاً المقياس الوحيد هنا كما سبقت الإشارة هو المستوى الاقتصادي، أمّا بقية

---

(١) د. عبد الصّمد دسوقي. اللقاء العلمي.

الثقافة) فهي لا تدخل في تحديد المستوى.

كما ينبغي أن ندرك أيضاً أن هذا التحديد الاقتصادي، ليس دقيقاً فهو يجمع في هذا المصطلح دولاً بينها من التفاوت الاقتصادي أكبر مما بين بعض الدول النامية وبعض الدول المتقدمة[1] وأبرز تلك الخصائص ذات العلاقة بالتأثر ببرامج التلفزيون هي :

١ ـ ارتفاع نسبة الأميّة .
٢ ـ ارتفاع نسبة الأطفال في مجموع السكان.
٣ ـ انتشار البطالة.
٤ ـ محدودية ثقافة الآباء.
٥ ـ انشغال الآباء في سبيل تحصيل أسباب العيش .

وهذه الخصائص الخمس ذات علاقة بحصانة المستقبل في التأثر بالمواد البرامجية المعروضة (فأثر التلفزيون يتعمّق ويمتد أكثر في طائفتين من الناس. الأمّيين، والأطفال. وأسباب التأثير مشتركة بين الطائفتين تقريباً وهي : الانبهار وفقدان الحصانة الثقافية، وعدم القدرة على الانتقاء، والاختيار)[2]. أمّا البطالة فإنها تعطي أصحابها من الوقت ما يعجزون عن قضائه مما يجعل الفرصة مهيأة للبرامج لتصل إليهم وهم في حالة نفسية عاجزة عن أدنى مقاومة.

وفي فئة الأطفال ذات النسبة العالية في تلك المجتمعات يتضافر انشغال آبائهم عنهم وثقافة الآباء المحدودة لتكون إمكانية التعرّض لبرامج التلفزيون والتأثر بها أكبر.

---

(١) انظر د. محمد الجوهري. علم الاجتماع وقضايا التنمية في العالم الثالث. دار المعارف. الطبعة الثالثة ص ١٧

(٢) زين العابدين الركابي. النظرية الإسلامية في الإعلام والعلاقات الإنسانية. مرجع سابق ص ٣٠٧ ـ ١٩٨٢ م.

٦ ـ عدم وضوح الأهداف لمحطّات الإرسال التلفزيوني في تلك الدول.
إن القصة المكرّرة لإنشاء محطّات التلفزيون في الدول النامية، أن المحطة تؤسس وتهيأ للبث دون أن يكون لدى القائمين عليه أنظمة واضحة أو أهداف محدّدة أو وظائف يمكن أن يعمل على تحقيقها، ومن ثم يستورد من البرامج ما يسدّ ساعات البث، وهذا المستورد يأتي من منشأ ثقافي يختلف عن ثقافة البلد. وخلال فترة تكوين الكفايات الفنية ورسم الخطط البرامجية، وإعداد السياسات الإعلامية ـ وهي مدة تطول ـ تتكون لدى الجماهير معايير القبول والرفض لنوع البرامج ومواصفات المواد المفضّلة ويمدّ الذوق الفني من خلال المواد التي عرضت خلال الفترة السابقة وهي بالضرورة مقاييس دخيلة على الثقافة المحليّة.

٧ ـ اغتراب معظم القائمين على محطّات التلفزيون بحكم التكوين الثقافي.

إن إعداد الكفايات اللازمة لتشغيل وإدارة محطّات التلفزيون في الدول النامية استدعت ابتعاث أعداد كبيرة من أبناء تلك البلاد للتحصيل العلمي والتدريب الفني في مجالات التلفزيون المتعددة، وفترة الابتعاث صبغت الكثير من أولئك المبتعثين بثقافات وأخلاق وسلوك المجتمعات التي ذهبوا إليها وعندما يتولّى عمله في تلفزيون بلده تظهر آثار الثقافة الوافدة ويصبح داعية لها، وربّما لا يكون هذا من باب عدائه لثقافته المحليّة، ولكنه الانبهار والاعجاب بما شاهده في بعثته من مظاهر الحضارة المادية المتقدمة وارتبط هذا في ذهنه بنبذ ثقافته، وهو حال البعض من أبناء الدول النامية عند عودتهم من بعثاتهم.

٨ ـ قلّة الإنتاج المحلي :

لا شك أن الخطر الداهم على الثقافات المحلية هو ما يقدم من خلال المواد البرامجية من أفكار وقيم وعقائد وعادات وتقاليد تختلف عن النسق الثقافي المحليّ، ولا شك أن الإنتاج المحلي إذا وجد يخفّف هذا التأثّر ويحول دون الانتشار الخطير لمحتويات الثقافة الوافدة، إلّا أن التأخّر في قيام الإنتاج

المحلي يتيح الفرصة لبناء مقاييس قبول ورفض على أسس دخيلة (وخطورة هذا تأتي عندما يتبنى المنتج المحلّي الأفكار والقيم لذلك المنتج الأجنبي وهي بالطبع نتاج لفكرة)[1] فغياب الإنتاج المحليّ يفتح الباب لاستيراد المواد أولاً والاستيراد سبب لتكوين مقاييس الجودة بمعايير دخيلة، مما يجعل الإنتاج المحلي - في ضوء هذه المقاييس - ضعيفاً في نظر المشاهد، أو أن الإنتاج المحلي يبدأ في التقليد والتبعية للبرامج الوافدة مما يجعله امتداداً لها وتصبح حقيقة المحطّات المحليّة فروع تابعة للمحطّات الأجنبية من الناحية الفكرية مع اختلاف في نسب تلك التبعية.

العلاقة التبادلية المفترضة بين خصائص التلفزيون وطبيعة الجمهور :

تعتمد الرسالة الإعلامية اعتماداً كبيراً مهما كان نوعها ومهما كان مصدرها على طبيعة الوسيلة المستخدمة في توصيلها من جهة وطبيعة الجمهور المستهدف من جهة ثانية (ولكي يتم اختيار الوسائل الإعلامية المثلى من بين العديد من الوسائل المتاحة، يجب أن تتم دراسة جميع الوسائل، حتى يمكن تحديد الوسائل الملائمة على ضوء نتائجها، لكي لا يقع القائم بالاتصال في خطأ الارتجال في عملية اختيار الوسائل التي قد تؤدي في النهاية إلى عدم توصيل رسالته الإعلامية بالكفاءة والفاعلية المطلوبة إلى مختلف فئات الجمهور المستهدف)[2] وتوجد مجموعة من المعايير تميّز للقائم بالاتصال صفات كل وسيلة ومدى تناسبها مع طبيعة الرسالة وطبيعة الجمهور، وتركّز تلك المعايير على مقدرة الوسيلة على التغطية الجغرافية ومدى الانتشار والخصائص الفنية لكل وسيلة، وإذا عرفنا خصائص التلفزيون وما يتميّز به من مقدرة على استخدام عناصر الصوت والصورة والحركة وما يتبع ذلك من فنون استخدام

---

(١) الباحث. التكامل بين أقسام الإعلام ومعاهد التدريب والمؤسسات الإعلامية ورقة عمل مقدمة لندوة الإعلام بالجامعات العربية، والمنعقدة في الفترة من ٢٤ - ١٤٠٥/٢/٢٦ هـ والذي شارك فيها الباحث عضواً لوفد جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(٢) د. سمير حسين. الإعلام والاتصال بالجماهير. مرجع سابق. ص ١٤٦.

الصورة والمؤثرات الصوتية والضوئية بما يسمح أن تكون الرسالة سمعية وبصرية وبمؤثرات حسيّة قوية. أمكننا أن نقول (إن التلفزيون أصبح أخطر وأهم أقنية الاتصال الجماهيري في هذه الأيام، إذ قل أن نجد بيتاً في أي جزء من أجزاء العالم غنيه وفقيره، يخلو من جهاز تلفزيوني، ولعلّ أبلغ وصف يوضّح مدى التأثير الذي يتركه التلفزيون ما ورد في الموسوعة الأمريكية (١٩٨٠ م) حيث وصفت التلفزيون بأنه أصبح عين الإنسان وأذنه في العصر الحديث)[١].

وهذه الخصائص الفنية والاجتماعية مكّنت لهذا الجهاز في تفاعله الاجتماعي مع جمهور المشاهدين بكفاءة عالية لم تتوفّر لأية وسيلة أخرى في تاريخ وسائل الإعلام (ولما كانت عملية الاتصال الفعّالة تأخذ في اعتبارها طبيعة الجمهور الموجه إليه الاتصال كمحدّد وأساس للعملية الاتصالية، فإن خطوة تحديد معالم فئات الجمهور تعتبر خطوة أساسية ولازمة لنجاح الاتصال الفعّال[٢]، فالعناية بالمعلومات الجيدة التي تحتويها الرسالة وإعدادها إعداداً جيداً واختيار الوسيلة المناسبة للرسالة والإنفاق السخي على ذلك كلّه قد يذهب سدى إذا أهملت دراسة الجمهور (فمن الحقائق الواضحة أن الجمهور هو أهم متغيّر في عملية الاتصال، فإذا لم يكن لدى القائم بالاتصال فكرة جيّدة عن طبيعة الجمهور العقلية والعاطفية وخصائصه الأولية، فسوف يحدّ ذلك من مقدرته على التأثير عليه وإقناعه. . فهناك العديد من المتغيّرات التي تؤثر على المضمون الذي سوف يعرض المتلقي نفسه إليه مثل خلفيته وتجاربه السابقة وعواطفه وتعلميه وجنسه وسنّه وشخصيته)[٣]. ولذلك فإن عناية الدراسات الإعلامية في بلاد الغرب عموماً وفي الولايات المتحدة بهذا الجانب عناية كبيرة تتناسب مع النجاح الهائل الذي تحققه المؤسسات الإعلامية هناك ودراسة الجمهور لا تقف عند تحديد فئات الجمهور وطبيعة كل فئة عند البدء بإعداد

---

(١) زياد أبو غنيمة. السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية. دار عمار / عمان ـ الطبعة الأولى ص ٦٥ عام ١٤٠٤ هـ.

(٢) د. سمير حسين. الإعلام والاتصال بالجماهير. مرجع سابق ص ١٣٠.

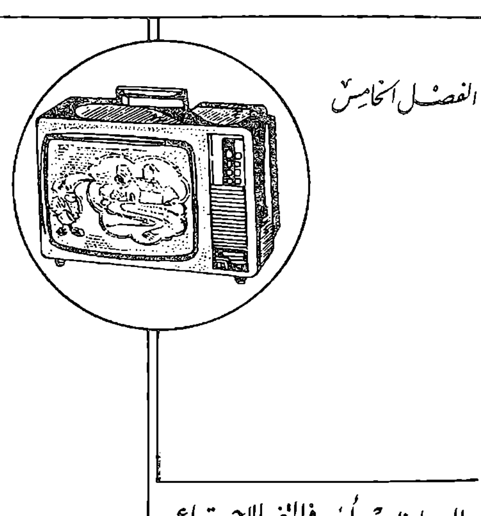
(٣) د. جيهان رشتي. الأسس العلمية لنظريات الإعلام مرجع سابق. ص ٥١٥.

الرسائل الاعلامية، ولكنها تستمر للتعرف على أثر الرسالة والنسبة التي تحققت في إعداد الرسائل التالية ليتحقق الهدف بشكل أكبر. فما يلاحظ من قوة تأثيرية للرسائل الإعلامية الوافدة من خارج البلاد الإسلامية، ليس نتيجة لقوة الوسائل التي تعرض فيها تلك البرامج فقط، ولكنه يعتمد بشكل كبير على طبيعة الجمهور والخصائص التي يتميّز بها ومعرفة المداخل النفسية السليمة التي تصل الرسالة من خلالها إلى إدراك المتلقي وترتيب المعلومات بشكل متناغم يبعد مخاطر تنافر المعلومات الجديدة مع معلومات الجمهور وآثارها السلبية على أهداف الرسائل الإعلامية.

حقيقة أن الإنسان المتأمّل في قوة تأثير الرسائل الإعلامية الوافدة على مجتمعات الدول النامية خاصة تأثيرها في جيل الشباب يستغرب كيف حصل كل هذا التأثير مع أن تلك الرسائل تحتوي على نسب عالية من معلومات تتنافر أصلاً مع ثقافة البلاد النامية بشكل عام وثقافة البلاد الإسلامية بشكل خاص - مع أن تنافر المعلومات يعتمد عائقاً أساسياً للتأثير - إلاّ أن معرفة حقيقة الدراسات النفسية والاجتماعية لمعرفة طبيعة الجمهور والتعامل معه وفق تلك النتائج بتقديم الكمية المناسبة من المعلومات وفي سياق منهجي يتفق مع الحالة المزاجية التي يعيشها الأفراد، مما يجعل تلك الرسائل تجمع الحقائق العلمية وتقدمها في قوالب عاطفية وجدانية تخاطب الشعور وتكوّن الاستجابة المناسبة مع موضوع الرسالة، كل ذلك ما كان ليتحقّق لولا ما سخّر له من معلومات وافية حول كل جزئية مهماكان حجمها وأهميتها.

ومع هذا الاهتمام العلمي من قبل دول الغرب بإعداد الرسائل الإعلامية، فإن البلدان النامية لا تزال تعتمد في كثير من برامجها المحليّة على الأساليب المباشرة في التوجيه وإعداد الرسائل وفق توقّعات القائم بالاتصال عن طبيعة الجمهور ورغباته دون معرفة حقيقة تعتمد على دراسة علمية جادّة. وهذا أحد الأسباب الرئيسية لضعف تأثير الرسائل الإعلامية المعدّة محلياً.

الفصل الخامس



التلفزيون ودوره في التغيير الاجتماعي

الفصل الخامس

التلفزيون وأثره في التغير الاجتماعي

منذ أن وجد الإنسان على وجه الأرض وحاجته قائمة لمعرفة كثير من الأمور التي تهمُّه في مستقبله القريب والبعيد، ولا شك أن هذا يدفعه إلى التحرِّي والتعرُّف والبحث عن حقائق الأمور لأن الكثير من الأمور المجهولة بالنسبة للإنسان يمكن التعرُّف عليها وإزالة الجهل بها والاستفادة من المعلومات المتوفِّرة عنها.

وقد دفعت هذه الحاجة المجتمعات الإنسانية البدائية منها والمتقدمة إلى تحقيق هذه الرغبة وتكليف من يقوم بهذه المهمَّة: مهمَّة جمع المعلومات الهامَّة وتقديمها وتفسيرها وربطها بمصالح الفرد والمجتمع.

وفي العصور الحديثة، أصبحت الأجهزة الإعلامية بمختلف أشكالها تؤدي هذه المهمَّة للفرد وللمجتمع. حتى أصبح هذا الدور الهام الذي يقوم به الإعلام محلَّ إجماع على أعلى المستويات العالمية: جاء في تقرير الجمعية العامة للأمم المتحدة للدورة الرابعة والعشرين عام ١٩٧٠ م (الملحق رقم (١)»: إن الوظيفة الرئيسية للاعلام هي مباشرة جمع المعلومات الموضوعية الدقيقة وإذاعتها مباشرة حرَّة مسؤولة، ويشبِّه الدكتور / إبراهيم إمام، الحاجة إلى الاعلام بالحاجة إلى الدم وتدفُّقه في الشرايين البشرية. وإذا كانت الدول المتقدمة تعتمد على الاعلام - فإن الدول النامية والدول المتخلِّفة أحوج ما تكون إليه، لهذا فقد حظي الأعلام باهتمام الباحثين بشكل خاص بعد

أن تطوَّرت وسائل الاتصال، وظهرت آثارها القوية، ومن الدراسات الهامة في مجال الأعلام، دراسة وظائف الأعلام، يقول هارولد لاسويل أستاذ العلوم السياسية ورائد من رواد البحث في الاتصال الجماهيري في كتابه «تركيب الاتصال ووظيفته في المجتمع»: أن لأخصائي الاتصال ثلاثة أنشطة بارزة:

الأول : رصد البيئة ومراقبتها.

الثاني : إيضاح التعالق (أي العلاقة المتبادلة المتلازمة) بين أجزاء المجتمع في رد الفعل نحو البيئة.

الثالث : بثّ التراث الاجتماعي من جيل للجيل الذي يعقبه.

فإذا استخدمنا تصانيف لاسويل بشيء من التعديل، ثم أضمنا إليها منشّطاً رابعاً وهو الترفيه يكون لدينا تصنيف للأهداف الرئيسية للاتصال[1] والذين كتبوا في وظائف الأعلام أكثروا التفريع والتصنيف والتعديد للوظائف بأسس ومسمَّيات يرونها، لكنها في مجملها لا تخرج عن هذه المجالات الأربعة (الأخبار، التعليم، التوجيه، الترفيه) واستطاعت وسائل الاعلام الحديثة تحقيق هذه الوظائف بنجاح كبير لما تتمتّع به من قوّة وانتشار.

والأعلام يعتمد في تحقيق وظائفه على (تقديم المعلومات السليمة، والحقائق الثابتة، التي تساعد على تكوين رأي صائب في واقعة من الوقائع أو مشكلة من المشكلات، بحيث يعبِّر هذا الرأي تعبيراً موضوعياً عن عقلية الجماهير واتجاهاتهم وميولهم. ومعنى ذلك أن الغاية الوحيدة للأعلام هي الإقناع عن طريق المعلومات، والحقائق، والأرقام، والإحصاءات ونحو ذلك... والمفروض أيضاً أن الأعلام يقوم على التنوير والتثقيف، ونشر الأخبار والمعلومات الصادقة التي تنساب إلى عقول الناس وترفع من مستواهم، وتنشر

---

(١) تشارلز. د. رايت.. المنظور الاجتماعي للاتصال الجماهيري. ترجمة محمد فتحي. الهيئة المصرية للكتاب ص (١٨) عام ١٩٨٣ م.

تعاونهم من أجل المصلحة العامة، فهو يخاطب العقول ـ لا الغرائز[1] إلا أن الملاحظ أن الإعلام بدأ يأخذ في بعض ممارساته شكلاً من أشكال الدعاية وذلك نتيجة لما حدث من تزييف وعبث في الأرقام والمعلومات، وبعد عن الموضوعية، واستخدام الأخبار للتأثير على الناس، وعن طريق اختيار بعضها دون البعض الآخر، وعن طريق أساليب العرض في الصفحات المختلفة والمساحات المتنوِّعة، وكذلك إهمال بعض الأخبار وعدم الإشارة إليها أو وضعها في أماكن غير ملفتة للأنظار، وأصبحت الموضوعية نهباً للاستغلال والتحريف لخدمة قضايا معيَّنة بأساليب ظاهرها الموضوعية وحقيقتها البعد عن ذلك. ولا شك أن أول من يمارس هذا البعد عن الموضوعية وكالات الأنباء العالمية التي هي أكبر مصدر للمعلومات في العالم ـ مما يجعل عقول البشرية اليوم تصاغ تحت تأثير التحيُّز وعدم الإنصاف، وفي هذا الإطار ينبغي أن نفهم الخلاف القائم حول تدفُّق المعلومات بين الدول المتقدِّمة والدول المتخلِّفة أو ما يسمَّى بالتدفُّق بين الشمال والجنوب والذي دخلت فيه منظَّمة اليونسكو منذ عام ١٩٦٤ م، حيث أصدر المؤتمر العام لليونسكو سلسلة من الاقتراحات للدول الأعضاء حول إجراءات تشجيع التدفُّق الحر للمعلومات، وفي عام ١٩٦٨ م عهد المؤتمر العام إلى المدير العام بتنفيذ برنامج بحث طويل المدى، وتشجيع دراسة دور وآثار وسائل الاتصال على المجتمع، وعقد بعده بعام واحد اجتماع خبراء في مونتريال بكندا، أوصى هو أيضاً أن تتولَّى اليونسكو القيام بدراسة شاملة على النطاق العالمي للآثار الراهنة والقادمة للاتصال على العلاقات بين المجتمعات المتغيِّرة والجماعات الاجتماعية والأفراد الذين يكوِّنون هذه الجماعات، والتعرُّف على أفضل الطرق التي يمكن لوسائل الاتصال من خلالها أن تخدم احتياجات المجتمع الحاضر والمستقبل، واستمرَّت اليونسكو في دراساتها إلى أن اقتربت من الحقيقة وقدمت بعضها في شكل بيانات وتوصيات ورد في أحدها (إن الندوة تشعر بأن تدفُّق المعلومات

---

(١) د. إبراهيم إمام ـ الإعلام والاتصال بالجماهير ط ٣. الأنجلو ص (١٢).

بين الدول يجب أن يقوم على مبدأ التعايش السلمي. وأن دول العالم بحاجة لأن تتعلّم من بعضها البعض، ولكنها في الوقت نفسه تحدِّد لنفسها أسلوب تعلّمها وحياتها)[1]. وهذا يشعر بمدى المرارة التي يشعر بها مندوبو دول العالم الثالث من سيطرة وسائل الاتصال العالمية وهيمنتها على تدفُّق المعلومات كمًّا وكيفاً وتأثير ذلك على صياغة أساليب الحياة في تلك البلاد النامية، وأن الموضوعية أصبحت شعارات لا تجد لها مجالاً في عالم الواقع الإعلامي. وأوضح من هذا ما جرى في اجتماع وزراء اعلام اثنين وخمسين دولة من دول عدم الانحياز في نيودلهي عاصمة الهند في شهر يوليو عام ١٩٧٦ م واعرابهم عن استيائهم الشديد أزاء نوعية ومضمون التغطية الإخبارية التي تقدِّمها الدول المتقدِّمة للدول النامية من خلال وسائل الأعلام الدولية واتِّخاذهم قراراً بضرورة تنظيم مصادرهم الإخبارية وتكوين مجموعة خاصة بهم من وكالات الأنباء. وقد توصَّل الوزراء في هذا الاجتماع إلى أن تدفُّق الأخبار بالطريقة السائدة الآن ومن خلال وكالات الأنباء العالمية الاحتكارية هو اتصال من جانب واحد يتِّسم بالانحياز وعدم التوازن، ويسيء إلى صورة ومصالح دول العالم الثالث، وإذا عرفنا أن ردَّ فعل الصحافة الغربية الشديد عندما أنشئت المجموعة الإخبارية بدول عدم الانحياز، وزاد الانتقاد موافقة اليونسكو وترحيبها بهذه الخطوة من دول عدم الانحياز ووصفت صحافة الغرب هذه الخطوة بأنَّها غير عملية، وخبيثة، وتهدف إلى إعاقة حريَّة الاعلام في العالم. . ! ـ فأين موضوعية الإعلام؟ أم أن الحواجز الفاصلة بين الاعلام والدعاية قد سقطت. إن الأمر جدير بالعناية، لماذا كل هذا الخلاف والأمر حول تدفُّق المعلومات؟ ومن يعارض تدفُّق المعلومات الموضوعية؟ والناس في أمسِّ الحاجة إلى الحقائق؟! إن الأمر يعود إلى الموضوعية، هل المعلومات المتدفِّقة موضوعية فعلاً؟. . أم ماذا؟

لو رجعنا للتاريخ قليلاً لوجدنا الأمريكيين يعانون من هذه المشكلة،

---

(١) د. ر. مانكيكان. تدفُّق المعلومات ترجمة فائق فهيم دار العلوم عام ١٤٠٢ هـ ص (١١٤).

مشكلة تدفُّق المعلومات عندما كانت وكالات (رويتر ـ رولف ـ هافاس). هذا الثلاثي الأوروبي الذي أرغم وكالة الأسوشيتدبرس الأمريكية على توقيع اتفاقية عام ١٨٩٣ م تنازلت الوكالة بموجبه عن حقِّها في توزيع الأخبار خارج الولايات المتحدة في مقابل إطلاق حرِّيتها في الحصول على الأخبار الأجنبية من الوكالات الثلاث وتوزيعها داخل الولايات المتحدة. غير أن مدير وكالة الأسوشيتدبرس «كنت كوبر» شنَّ حملة من أجل حرِّية الاعلام، ولكي يصبح لمؤسَّسته الحق في الاتصال بالعالم، وهذا بالضبط ما يحصل اليوم للعالم الثالث حينما يمنع من الاتصال العالمي ليس بموجب اتفاقيات، ولكن لضعف إمكانيَّاته وقوة وسائل الغرب في الاتصال. ولقد بذل مدير شركة الأسوشيتدبرس من أجل هذه الحريَّة المستحيل ولم يدَّخر وسعاً في سبيل تسديد الضربات، وتوجيه الشتائم واللعنات وقال بأعلى صوته: (إنهم ينقلون للعالم حروبنا مع الهنود الحمر في الغرب، وجرائم الغوغاء والرعاع في الجنوب، والجرائم الشَّاذة في الشمال). والاتهام الذي وجَّهته الولايات المتحدة إلى رويتر وهافاس بصفة عامة كان يتلخَّص في أن الوكالتين صوَّرتا الولايات المتحدة في صورة بلد غارق في الصراعات العنصرية، وبأنها أكبر مسرح لحوادث القطارات، والعواصف، والفيضانات والجريمة. وهذا تقريباً ما تفعله الوكالات العالمية اليوم في تعاملها مع البلدان النامية والبلدان المتخلِّفة فهل تذكَّرت الأسوشيتدبرس مطالباتها في القرن الماضي والتزمت الموضوعية فيما تقدِّمه من أخبار عن العالم؟. إنها أماني لن تتحقَّق إلا عندما تقوم الوكالات الوطنية بدورها الحقيقي بتقديم الصور الحقيقية لبلدانها وتعمل على معادلة التدفُّق للمعلومات.

إن حاجة الفرد والمجتمع لوسائل الاتصال اليوم أمر واضح الأهمية لقيامها في هذا العصر بوظيفة البحث عن المعلومات وإشباع رغبته منها ـ بل وترتيبها وعرضها بأساليب مناسبة وذلك كلُّه أمر مهم وضروري، فالمعرفة الوافية بالبيئة المحيطة تساعد الأفراد والجماعات على تحقيق التفاعل الجيِّد معها

والاستفادة من الخدمات الكثيرة التي يقدِّمها الاعلام، كما أن المعرفة الوافية بالبيئة تساعد على تجنُب الأخطار المحيطة أو تخفيفها بقدر المستطاع، ولا يخفى أن هذا كلَّه لا يتحقَّق ما لم يتعامل الاعلام مع الحقيقة بتجرُّد كامل خدمة للأفراد والجماعات التي يفترض أنه لا يهدف إلَّا لتحقيقها بأكبر قدر ممكن، وأن أي انحراف عن الموضوعية في الاعلام يبعده عن تحقيق أهدافه أو ينحرف به عن المسار الموصل إليها. لكن الفرق بين ما ينبغي أن يقوم به الاعلام والواقع الفعلي للممارسات الاعلامية يشكِّل فجوة كبيرة يصعب على الدارس المتفحِّص أن يجد في الأفق نقطاً عملية على طريق التقريب بين طرفي تلك الفجوة خاصة إذا علمنا أن البلدان الصناعية لا تزال تسيطر على ميدان العلم والتكنولوجيا لدرجة أنها تقوم بحوالي (٩٥ ٪) من كافَّة أعمال البحث، في حين أن البلدان النامية التي تمثِّل (٧٠ ٪) من سكَّان العالم، لا تمثِّل قدرتها في مجال البحث أكثر من (٥ ٪) فقط).

تطور الوظائف الإعلامية:

كانت الوظيفة الإخبارية هي الوظيفة الأساسية التي تمارس الأجهزة الإعلامية نشاطها اعتماداً عليها، والوظائف الأخرى تحتل مرتبة تالية تبتعد عن مستوى الوظيفة الإخبارية (إلَّا أن الاتصال خلافاً للمفهوم الشائع ليس مجرَّد عملية تبادل للأخبار والمعلومات فقط، ولكنه عملية متكاملة تنطوي على مجموعة متنوِّعة من الوظائف)[1]، ولا أريد أن انفي أهمية الوظيفة الإخبارية أو أقلِّل من شأنها، لكن واقع العمل الاعلامي اليوم يدل على أن الوظائف الاعلامية الهامة لم تعد الوظيفة الأخبارية فقط.

ونورد هنا قضيتين أعلاميتين كبيرتين يتبين من خلالهما مدى التطوُّر

(١) د. سمير حسين. الاعلام والاتصال بالجماهير. عالم الكتب. ط أولى عام ١٩٨٤ م ص: (٣٠).

للوظائف الإعلامية والمهام الكبرى التي اضطَّلع بها الإعلام اليوم ـ بل منذ تطوُّر الوسائل التكنولوجية للاتصال.

قضية كندا والغزو الثقافي الأمريكي:

إن الفرد البعيد عن محاور الخلاف داخل أمريكا الشمالية لا يدرك مثل هذا الصراع لأن عوامل اللغة، والدين، والمستوى الحضاري المشترك تقريباً بين الأمريكان والكنديين يجعلنا لا ندرك هذه القضية، لكن الحجم الكبير الذي شغلته جعلت الكنديين يضيقون ذرعاً بالواقع الذي يعيشونه (ظلَّت كندا على مدى عقدين من الزمن تخوض معركة خاسرة للحفاظ على شخصيَّتها في مواجهة غزو ثقافي متعدِّد الأشكال يهدِّد بطمس كندا كأمَّة لها كيانها. فالأنباء والمعلومات الأمريكية تغمر أعمدة الصحف الكندية التي تسيطر عليها الأسوشيتدبرس واليونايتدبرس والخدمات الاخبارية للنيويورك تايمز والواشنطن بوست واللوس أنجلس تايمز والكتَّاب الأمريكيون المعروفون، كما أن المجلات الأمريكية مثل التايم والريدرز دايجست تؤثِّر في تفكير الكنديين وتسهم في صناعة آرائهم، بالإضافة إلى أن الأفلام السينمائية الأمريكية وبرامج التلفزيون بأنواعها الترفيهية والأخبارية والإعلانية التي تعرضها محطَّات الإرسال الأمريكية على الشعب الكندي من وراء الحدود تغرق عقول الكنديين ونفوسهم)[1]. القضية إذن لم تعد أخبار، وإنَّما تجاوزتها إلى الغزو الثقافي والتأثير على النفوس والعقول مما أدَّى إلى تكيُّف العقلية الكندية مع هذه الأوضاع لدرجة أن الكنديين يولون الثقافة والأخبار السياسية الأمريكية الأولوية على ثقافة وأخبار كندا بشكل لا إرادي على حدِّ تعبير وزير خارجية كندا مستر ج. هـ. فوكلنر.

والقضية الثانية التي نوردها هنا هي من العالم الثالث، وهي أكثر تشابهاً

---

(١) د. ر. مانكيكان. تدفُّق المعلومات. ترجمة فائق فهيم. ط ١٤٠٢ دار العلوم ص: (٨٣).

مع البلدان العربية والإسلامية بحكم اشتراك الجميع في مسمّى دول العالم الثالث أو الدول النامية، وربّما لا توجد منطقة في العالم الثالث أسوأ من أمريكا اللاتينية من حيث وقوعها ضحيّة عاجزة للسيطرة الثقافية والاقتصادية، فبينما تقف كندا في موقف أفضل بحكم الإمكانيّات لمقاومة السيطرة لأنها إحدى الدول العشر المتقدمة صناعيّاً أو مجموعة دول العالم الأول ـ فإن دول أمريكا اللاتينية لا تستطيع ذلك وقد ظهر ذلك جليّاً في مؤتمر لوزراء خارجية مجموعة دول الأنديز لقلقهم إزاء «الكميّات الهائلة من الأعلام الدولي الذي يتم تداوله في بلادهم بينما تم إعداده وتجهيزه في الخارج» وقد شغلت هذه القضية علماء الاجتماع والاقتصاد في تلك البلاد لعشر سنوات مضت قبل هذا التاريخ أو أكثر، فأمريكا اللاتينية تقع تحت سيطرة شبه كاملة لوسائل الأعلام الأمريكية سواء في مجال الصحافة أم التلفزيون. فوكالات الأنباء الأمريكية والخدمات الصحفية الخاصة والكتّاب الأمريكيون يتولّون احتكار أعمدة الصحف في أمريكا اللاتينية ولهذه السيطرة آثارها الظاهرة (فمنذ فترة أجرى سانتورد، وهو أحد علماء النفس في أمريكا الجنوبية دراسة عن التلوث الثقافي في فنزويلا. وثبت أن (٨٠ ٪) من برامج التلفزيون التجاري الفنزويلي مستوردة، منها (٥٤,٥٤ ٪) من أمريكا الشمالية، (٢٧,٤٥ ٪) أنتجته وكالات الإعلان التي تعمل داخل البلاد. وأوضحت دراسة سانتورد أن المثل الأعلى للبطولة بالنسبة للطفل الفنزويلي كان يتمثّل في شخصية أمريكية في (٨٦,٣ ٪) من الحالات، بينما لم تتجاوز نسبة الأطفال الذين تمثّلوا شخصية فنزويلية على (٧,٩ ٪) وكان هذا المثل الأعلى يتحدّث الانجليزية في (٨٢,١ ٪) من الحالات، بينما يتكلّم الأسبانية بنسبة (٧و١٤ ٪) وكانت نسبة البطل الأبيض إلى البطل الأسود في مخيلة الأطفال ١١ ـ ١، وكان هذا البطل ثريّاً في (٧٢ ٪) من الحالات التي أجريت عليها الدراسة.

وفي مسح أجري في إطار دراسة جامعة تامبير مع اليونسكو في عام ١٩٧١ م ثبت التحليل التالي: إن ما يقرب من ثلث وقت البرامج التي تذاع

في أمريكا اللاتينية تشغله برامج أمريكية وتتفاوت نسبة البرامج المستوردة في القارة بين (١٠ ٪، ٨٤ ٪)[1].

نستطيع أن نقول هنا إن الهيمنة الثقافية وما يتبعها من تبعية فكرية تحقِّق أشكال التبعية الأخرى من بعدها أصبحت وظيفة جديدة من وظائف الاعلام، وقد نجح في تحقيقها بشكل كبير دلَّت عليه الإحصاءات العالمية التي أجريت على مستوى المنظَّمة العالمية (اليونسكو) وذكرنا طرفاً منها، ولا شك أن هذه الوظيفة الجديدة التي تحقِّق الدول الكبرى من خلالها انتشار فكرها وتبعية الدول النامية لها بهذا الأسلوب المهذَّب والمحبَّب إلى النفوس والمسالم إلى أقصى درجات السلم هو الأسلوب البديل لأشكال الاستعمار العسكري البغيض إلى الشعوب لكنه يصل في تأثيره إلى العقول والنفوس ويطمس شكل الأمَّة كما ذكر الكنديون آنفاً، ويجعل أطفال فنزويلا لا يرون البطولة إلا في الشخصية الأمريكية وبنسبة تبلغ أكثر من (٨٦ ٪) وقد يظنُّ البعض أن الصراع الثقافي الإعلامي يأتي في المرتبة الثانية بعد الصراع الاقتصادي، غير أن شواهد الأمور تدل على أن هذا الصراع له أهميته الكبرى وآثاره المتغلغلة في جميع نواحي الحياة. بل إنه لمن المرجَّح أن هذا الصراع سوف يمثِّل جوهر النزاع بين فئات المجتمع، سواء من الناحية الكميَّة بقيمة الأموال المستثمرة وأعداد العاملين في الإنتاج أو من الناحية الكيفية من حيث النفوذ والسلطة في إصدار القرارات. وهذا ما بدأ يحدث داخل المجتمعات الرأسمالية وخارجها حتى أصبح الصراع الآن في أوجه من أجل السيطرة على القوى التي تشكل المعتقدات وتبني الاتجاهات وتبلور الآراء سواء كانت فردية أو اجتماعية... وذلك أنه في الدول الصناعية الرأسمالية الكبرى مثل: أمريكا، وأوروبَّا واليابان عنصر جديد من المواجهة بين الطبقات، يقوم على أساس السيطرة على أجهزة الإعلام والثقافة وتوجيه الرأي العام بل إنه قد نشأت في تلك

---

(١) نفس المصدر السابق ص (٩٤).

المجتمعات صناعة جديدة، يمكن تسميتها صناعة الرأي العام، أو تشكيل اتجاهات الجماهير أو صياغة الفكر والإقناع، ومن أهم أسمائها المعلنة: العلاقات العامة تارة، والاعلام تارة، والتوجيه المهني تارة أخرى، وكل ذلك قد يتم من خلال الترفيه الذي يعد من طابع الأعلام في تلك الدول[1]. نستطيع القول إن وظائف الاعلام تطوَّرت عن شكلها التقليدي المعهود، وبدأ الأعلام يمارس وظائف جديدة لم يكن يمارسها من قبل وأصبحت الوظائف التقليدية بمسمّياتها أطراً شكلية وأسماء للمسمَّيات الجديدة تمارس من خلالها، ومن المؤكَّد أن السرَّ الذي يكمن وراء ذلك، هو التقدُّم التكنولوجي والاختراع والتخصُّص في إدارة المؤسسات الاعلامية الذي خضع في العصر الحديث لأساليب البحث العلمي، وإذا كان الاستعمار قد أخذ يحمل عصاه الغليظة على كاهلة ويرحل من الباب، فإنه يعود من النافذة ـ لا بالعصي الغليظة، وإنَّما بقفَّاز حريري وابتسامة مرسومة، لينسج فخاخاً جديدة من الخيوط الاقتصادية والثقافية والاعلامية بحيث يفرض في نهاية الأمر سيطرته الأيديولوجية الأجنبية على الشعوب النامية، ولذلك فإن رؤساء دول وحكومات البلاد النامية يشدُّدون على ضرورة تأكيد الشخصية القومية، والثقافة الوطنية)[2]. ولا شك أن شبكة المشكلات المتداخلة في الدول النامية اليوم يشكِّل الاعلام أحد خيوطها الرئيسية خاصَّة في برامج الترفيه التي قتلت طاقة الإنتاج التي تحتاجها تلك البلاد النامية للنهوض من تخلُّفها، لكن الأعلام العالمي يعمل على تبديدها بما يقدِّم من موَّاد تقضي على الوقت دونما إنتاج، بالإضافة إلى التخريب الفكري والعقيدي، والتخدير لكل المواهب، وهذه النتائج تحدث نتيجة لتخطيط سابق أحياناً وبطرق عرضية أحياناً أخرى، لكنها في النهاية تحقِّق أهدافاً كبرى مرسومة من قبل الدول المتقدِّمة وهي استدامة التخلُّف في الدول النامية أطول فترة ممكنة أو إلى الأبد.

---

(١) د. إبراهيم إمام. الاعلام الإذاعي والتلفزيوني. دار الفكر العربي ص (٤) ١٩٧٩.
(٢) د. إبراهيم إمام. المرجع السابق ص (٥).

الإعلام والإقناع :

من المعلوم لدى دارسي الاتصال أن هناك فرقاً بين الاتصال بفرض الإعلام، والاتصال بهدف الإقناع ـ فالاتصال الاعلامي (اتصال بالجماهير يستهدف ـ بصفة عامة ـ الاعلام والشرح والتفسير والتحليل وتقديم المعلومات والموَّاد المعرفية والتسلية)[1]. إلَّا أن الاتصال الإقناعي لا ينطبق عليه هذا التعريف، فهو نشاط اتصالي آخر يعني (الاتصال الذي يحدث عندما يوجِّه القائم بالاتصال ـ عن قصد ـ رسائله الإعلامية لإحداث تأثير مركَّز محسوب على اتجاهات وسلوك مجموعات معيَّنة مستهدفة من الجمهور)[2]. فنجد فرقاً واضحاً بين هذين النوعين من الاتصال من حيث الهدف المنشود منهما، فالاعلام في تعريفات دارسي الاعلام وإن كان يهدف للتأثير ـ إلَّا أن ذلك التأثير يكون من خلال الحقائق والمعلومات فهو لا يتجاوز (تزويد الناس بالأخبار الصحيحة والمعلومات السليمة والحقائق الثابتة التي تساعدهم على تكوين رأي صائب في واقعة من الوقائع أو مشكلة من المشكلات، بحيث يعبِّر هذا الرأي تعبيراً موضوعياً عن عقلية الجماهير واتجاهاتهم وميولهم)[3] خلافاً للاتصال الإقناعي الذي يشبه الدعاية في تعريفها من حيث الهدف ومن حيث التعامل مع الحقيقة حيث تهدف إلى محاولة التأثير في الأفراد والجماهير والسيطرة على سلوكهم، حيث لا يكتفي هذا النوع من الاتصال بوصول الرسالة إلى جمهور المستقبلين ـ بل يحرص على إحداث الأثر. ويرى الباحث أن الاعلام اليوم خاصَّة المواد البرامجية التي تنتج في الدول المتقدِّمة وتعتمد الدول النامية في استهلاكها الاعلامي عليها لا تلتزم بالتعريفات الاعلامية المعروفة من الالتزام بالحقيقة والموضوعية في تقديم المعلومات، وهذا هو المبرِّر المنطقي الذي جعل اليونسكو تقود حملة الدعوة إلى التوازن في تدفُّق المعلومات بين الدول

---

(١) (٢) د. سمير حسين. الاعلام والاتصال بالجماهير والرأي العام. عالم الكتب ١٩٨٤ ص : ١٦٦.

(٣) د. عبد اللطيف حمزة. الإعلام والدعاية ط ١٩٧٨/٢. دار الفكر العربي. ص : ٧٥.

المتقدِّمة، والدول النامية وما ذلك إلاّ لأن الاعلام بدأ يمارس أوجه نشاط لا يمكن أن تصنَّف داخل دائرة تعريفات الأعلام الملتزم بالموضوعية وتقديم الحقائق فقط.

والواقع أن الاعلام اليوم بدأ يشارك مشاركة كبيرة في تكوين اعتقادات الأفراد والجماعات من خلال تقديم المعلومات الوفيرة مما يجعل مخزون العقل لدى الفرد من هذه المعلومات يؤثِّر في قراراته وأحكامه عن الأفراد والأشياء، وعلاقات الأفراد وتقيمهم، والحكم عليهم من خلال تلك المعلومات.

(يتَّضح من هذا أن الفرد يمكن أن يكوّن عدداً كبيراً من الاعتقادات حول شخص أو موضوع بعينه. هذه الاعتقادات تتكوَّن ببطء وكنتيجة للتعرُّض لرسائل كثيرة يتم إدراكها وتفسيرها والتفكير فيها لفترة من الوقت. مجموع هذه الاعتقادات يمثِّل ما يعرفه الفرد «المعرفة» عن الموضوع أو الموقف أو الشخص الذي تدور حوله. .) ويمكن تصنيف الاعتقادات من عدَّة نواحي، ولعلَّ من أقرب هذه التصنيفات علاقة بالدراسات الإعلامية، ذلك التصنيف الذي قدَّمه (مارتين فيشابين وايسك أجزين)، والذي يقوم على مصدر المعلومات التي ينبني عليها الاعتقاد:

١ ـ الاعتقادات الوصفية: وهي الاعتقادات التي يتم تكوينها بناء على الملاحظة المباشرة (المشاهدة أو الرؤية، السمع، اللمس. . إلخ).

٢ ـ الاعتقادات الاستنباطية: وهي الاعتقادات التي يتم التوصُّل إليها عن طريق التأمُّل، والتفكير، والتحليل الذي يقوم به العقل للمعلومات والاعتقادات الوصفية المختزنة في الذاكرة وذلك باستخدام المنطق الاستدلالي أو المنطق الاستقرائي.

٣ ـ الاعتقادات الإعلامية: وهي التي تكوَّن بناء على التعرُّض لوسائل الإعلام الجماهيري أو الاتصال المواجهي. . ويقول «فيشابين واجزين» عن النوع

الثالث من أنواع الاعتقادات (الاعتقادات الإعلامية) إنّها تشكّل الغالبة العظمى من الاعتقادات لدى الفرد فيما يتعلّق بالغالبية العظمى من الأشخاص أو المواقف[١]. وهذه السيطرة الإعلامية على ذهنية المستقبل بالكم الهائل من المعلومات تشكّل بدون شك تأثيراً على عقليته وعواطفه، إلاّ أن هذا التأثير يتفاوت من شخص لآخر فقد يتلقّى شخصان رسالة واحدة، لكن تأثرهما بها لا يكون بالضرورة متساوياً بناء على المعلومات السابقة التي لدى كل منهما، وما كوّنه من اعتقادات سابقة حول مضمون الرسالة الجديدة كما أن خبرة كل فرد ذات تأثير على نوعية ومدى استجابته للرسالة الإعلامية تظهر آثارها جليّة في مدى استجابة كل منهم وتفاعله معها، وبالتالي تأثره بها. فأمر تأثُر الجمهور بأي رسالة إعلامية ليس متوقّفاً على مضمون الرسالة أو مستواها الفني فحسب ـ بل إن خصائص الجمهور وثقافته، وخبراته السابقة ذات تأثير بالغ في ذلك.

فجمهور البلاد النامية الذي يتعرّض لرسائل إعلامية معدّة خارج نطاق ثقافته الخاصة (بمعنى أنها تحمل مضامين ثقافية دخيلة) مهدّد في عقيدته وقيمه، وعاداته وكل مكوّناته الثقافية لما تميّز به تلك الرسائل من قوّة فنيّة في إعدادها، ولما يتميّز به هذا الجمهور من ضعف في بنائه لقلّة ثقافته وخبراته حول مكوّنات الحضارة المعاصرة ـ مما يجعل هذه الرسائل تصيبه بالانهيار الحضاري ويقع فريسة سهلة لمضامين تلك الرسائل الدخيلة وواقع الجماهير في البلاد النامية بشكل عام يشهد بذلك.

حقيقة وظائف الاعلام:

إن الموضوعية في البحث تلزمنا بالقول إن الوظائف المعلنة أو المتداولة في عرف دارسي الاعلام والتي مرّت في بداية هذا الفصل، ليست هي الوظائف الإعلامية أو بعبارة أوضح ليست كل الوظائف الإعلامية التي يمارسها

---

(١) د. فرج الكامل. تأثير وسائل الاتصال. مرجع سابق ص ١٦.

الأعلام ـ وإذا أردنا معرفة وظائف الاعلام على حقيقتها ـ فإنه يجب توسيع نظرتنا إلى النشاط الاتصالي لإخراجه من تلك النظرة الوظيفية المحدَّدة، حيث إنه أصبح نشاطاً واسعاً من جانب الأفراد والجماعات، وآثاره الواضحة تظهر في معظم أوجه النشاط الإنساني، مما جعل النشاط الاتصالي نشاطاً اجتماعياً يشكِّل ظاهرة جديرة بالدراسة والعناية في إطار هذه النظرة الموسعة ومن خلال الدور غير المحدود الذي يمارسه في واقع الحياة. وقد كانت النظرة إلى الاعلام تحصره في العلاقة بالسلطة وأنه يؤدِّي الأدوار التي ترسمها له ويوظَّف لتحقيقها، ومع واقعية هذه النظرة بالنظر إلى تحقيق كثير من أهداف السلطات بواسطة أجهزة الاعلام ـ إلَّا أن اتِّساع نطاق الاتصال.. وكبر حجمه، وقدرته التأثيرية ـ جعلته يتجاوز مرحلة الموظَّف المطيع للأوامر حيث أصبح له من السلطة الذاتية والقدرة ما مكَّنه من التمرُّد على الوظائف المحدَّدة. وبدأ يمارس وظائف جديدة لا تخضع بالضرورة لرأي الحكومات ـ بل أصبح الولاء نهباً بين الحكومات والشركات المنتجة وممولي البرامج، ومع تنامي أهمية الاتصال فإنه (يتعيَّن على الدولة فرض قدر من التنظيم حتى في المجتمعات التي تكون فيها وسائل الاعلام مملوكة ملكية خاصة. وبوسع الدولة أن تتدخَّل بكافَّة الأساليب ابتداء من السيطرة السياسية الشاملة حتى اتِّخاذ تدابير لتعزيز التعدُّد. وتجد بعض الحكومات أنه من الطبيعي أن تمارس تحكُّماً كاملاً في محتوى المعلومات مبرِّرة ذلك بالأيديولوجية التي تعتنقها. فإذا ما حكمنا على هذا النظام بمعايير عملية تماماً. فإنَّنا نشك في إمكان وصفه بأنه نظام واقعي)[1].
فالتطوُّر الهائل لوسائل الإعلام جعل إمكانية السيطرة عليها أمراً صعباً، وربَّما يصل إلى درجة الاستحالة في بعض الأحيان، ونستطيع القول إن الاعلام بدأ يمارس أدواراً غير محسوبة ويحدث آثاراً غير مرغوب فيها من قبل السلطات التي تشرف عليه ومن ذلك التنميط والتشويه الذي تحدثه وسائل الاعلام في

---

(١) شون ماكبرايد. أصوات متعدِّدة وعالم واحد مرجع سابق ص ٦٥.

عقليـة الأفراد وصبُّهم في قـوالب تكاد تكـون متـاويـة، وذلك بسبب عـرض الرسائل المتشابهة على كافَّة المتلقِّين لتلك الرسـائل الإعـلامية، ممـا جعل الفروق بين المشاهدين تطمس وتشوِّه، مما قضى على عوامل الابتكار والإبداع لدى الأفراد الذين لا يجدون ذاتهم المتميِّزة في تلك البـرامج ذات النمط الواحد، ولا شك أن الحكومات في حاجة إلى المواهب المتنوِّعة من أبنـاء بـلادهـا للمسـاهمـة في نهضتهـا؛ إلَّا أن وسـائل الأعـلام ـ رغمـاً عن الحكومات ـ بدأت تشكِّل الأفـراد تشكيلاً متشـابهاً ينمِّي الصفـات المشتركـة ويقضي على الخصوصيَّات التي لم تجد في البرامج ما ينمِّيها ويرعاها.

كمـا أن المجـالات التي استفـادت منهـا السلطات في تـوظيف وسـائل الاعـلام لتحقيق بعض أهـدافهـا التنمـويـة بـدأت تضيق أمـام مخطِّطي البـرامج خـاصـة في البلاد النـاميـة وذلـك لأسبـاب من أهمهـا تـأثُّر الجمـاهير في البـلاد النـاميـة بـالانفتـاح الاعـلامي ـ إن صـحَّ التعبير ـ فـأصبحت أذواق الجمـاهيـر تميـل إلى البـرامـج الأجنبيـة أكثـر من البـرامـج المحليَّـة لضعف هـذه البـرامـج من النـاحيـة الفنيَّـة ولتـركيـز تلك البـرامج ـ الـوافدة ـ على أسـاليب الإثارة، واستغـلال الغرائـز البشـريـة لشدِّ الجمهور إليها وتخديره عبر برامج الترفيه التي لا تتطلَّب منه أي مجهود ـ بـل تتلمَّس رغباته الغريزيـة «الحيوانيـة» وتحاول إثـارتها وإشبـاعها حتى تتضخَّم وتزاحم بقية مكوِّنات شخصيَّته، مما يجعله فرداً ضعيف التوازن تحكمه غرائزه ووسـائل إشباعها، وهذا حال الكثير من شباب البـلاد النامية الذين يعتمدون في ثقافتهم وتكوينهم على تلك البرامج المصدَّرة لهم من الخارج والتي لا تتفق مع القيم حتى في البلاد التي صدرت منها لمخالفتها لمعايـير تلك المجتمعات. وقد صنِّفت بعض الدراسات العلمية لتقييم البرامج السينمائية والتلفزيونية في الغـرب تلك المـوَّاد إلى خمسـة أصنـاف تـتراوح بين القبـول[1]، والقبــول

النسبي[٢]، والحياد[٣] والرفض النسبي[٤]، والرفض المطلق[٥]، والصنفان الرابع والخامس ترفض في أمريكا لدخولها في طائفة هذا المعيار :

أولاً : تشجيعها للسلوك الجنسي اللا أخلاقي.

ثانياً : تشجيعها للسلوكيّات اللا أخلاقيات بصورة عامة .

ثالثاً : تشجيعها للطلاق وإسهامها في فساد الحياة الزوجية.

رابعاً : تشجيعها لظاهرة السلوك العدواني والقسوة والساديّة، والعنف.

خامساً : تشجيعها للسلوك الإجرامي والانحراف.

سادساً : تعرُّضها للدين ومساسها بالعقيدة الدينية.

سابعاً : تقليلها من أهمية حياة الإنسان وتشجيعها للانتحار.

ثامناً : لأسباب غير ما ورد في أعلاه[١].

ومع أن هذه النوعية الهابطة من الموَّاد البرامجية تجد من يعارضها ويطالب بمنعها في بلاد الغرب ـ إلاَّ أنَّها تنتشر في البلاد النامية بشكل مخيف عبر المحطَّات الرسمية أو عبر أشرطة الفيديو والمحصلة النهائية صنع شباب وأطفال تلك البلاد وفق القيم والسلوكيَّات والأخلاق الوافدة في تلك الموَّاد البرامجية، خاصة إذا عرفنا النسب العالية للأميَّة والبطالة والفراغ في البلاد النامية والتي تشكِّل عوامل مساعدة للتأثُّر بالموَّاد البرامجية، فقد أثبتت الدراسات الكثيرة أن التأثُّر بمضامين الرسائل الإعلامية يتناسب طرديّاً مع تلك العوامل (والملاحظ ازدياد عدد المنتجين الذين يصنعون أفلاماً موجَّهة خصِّيصاً لمشاهدي التلفزيون[٢] وسوف يؤدِّي النمو الراهن في صناعة كاسيتات الفيديو

(١) د. عدنان الدوري. أثر برامج العنف والجريمة على الناشئة. وزارة الاعلام الكويتية ـ الشؤون الفنية مراقبة البحوث والدراسات الإعلامية. دراسة نظرية تحليلية عام ١٩٧٧ م. ص ٥١.

(٢) قدم في السوق الدولية السنوية لبرامج التلفزيون لمدينة كان (فرنسا) أكثر من ١٥٠٠ فيلم من الأفلام الروائية الطويلة إلى عدد كبير من الوكلاء، واشتريت الحقوق الإذاعية لنحو نصف هذا العدد.

إلى زيادة عدد الأفلام التلفزيونية والعروض المنزلية)[1]. كل هذا الكم الهائل من المـوَّاد البرامجية أو من الثقافات والقيم والعقائد والتصوُّرات الوافدة أضعفت قدرة الدول النامية على خلق الاتِّجاهات أو تشكيل الآراء بين شعوبها، حيث إن هذه المهمَّة قد أصبحت من اختصاص القوى الأجنبية القادرة)[2]. والقدرة المقصودة هنا هي القدرة الإعلامية التي تمكِّن تلك الدول من توصيل فكرها إلى الدول النامية ـ بل تفرض على تلك الدول أن لا تسمع ولا ترى إلَّا ما تريده لها تلك الدول القادرة (ولعلَّ بعض الأرقام تعطي بعض الدلالة في هذا الصدد. فالدول النامية المعرضة لهذا الغزو الثقافي الذي يتَّخذ التكنولوجيا المتقدِّمة أداة له تمثِّل (٧٠ ٪) من سكَّان العالم ولكنها لا تملك سوى (٥ ٪) من أجهزة الإرسال التلفزيوني، (١٢ ٪) من أجهزة الاستقبال التلفزيوني، (١٨ ٪) من أجهزة الاستقبال الإذاعي و (٢٧ ٪) من محطَّات الإرسال الإذاعي وهي لا تستهلك سوى (٩ ٪) من ورق الطباعة، ولا تمثِّل أكثر من (١٧ ٪)من توزيع الصحف[3]، وقد أوضحت الإحصائيَّات والدراسات التي أجرتها منظَّمة اليونسكو أن (٩٠ ٪) من الأخبار التي يتداولها العالم يوميًّا هي من إنتاج وتوزيع وكالات عالمية لا يزيد عددها عن أصابع اليد الواحدة، وواحدة من هذه الوكالات توزِّع وحدها (١٧ مليون) كلمة في اليوم، في حين أن وكالات العالم الثالث لا توزِّع أكثر من (٢٠٠ ألف) كلمة يوميًّا ولكن الأدهى والأمرُّ هو ما تتضمَّنه هذه الأخبار)[4].

إن عجز حكومات الدول النامية عن التوجيه والإشراف على المحتوى الثقافي الذي يقدِّم لأبنائها عبر وسائلها الخاصة أو عبر الرسائل العالمية أمر

---

(١) شون ماكبرايد وآخرون. أصوات متعددة وعالم واحد مرجع سابق ص (١٧٢).

(٢) د. مانكيكان. تدفُّق المعلومات. مرجع سابق ص (٨٢).

(٣) مع أن جزء من هذه النسبة يذهب لاستعمالات أخرى غير الاستعمال الصحفي.

(٤) د. محمد عبده يماني. أقمار الفضاء غزو جديد. جهاز تلفزيون الخليج. سلسلة بحوث ودراسات تلفزيونية عام ١٤٠٤ هـ رقم ٩ ص ٥٤.

واضح، وإلا فهي تدرك حقيقة الأمر وما الأصوات التي ترتفع في منظّمة اليونسكو إلاّ دليل على هذا الشعور. إن تلك الحكومات تدرك أن الأمر لم يعد تشويهاً لصورها في الخارج فقط. بل إنه وصل إلى تخريب المجتمعات في الداخل بهدم مكوّنات ثقافتها الخاصة.

إن كل الحكومات القادرة على التصدّي للغزو الثقافي تفعل ذلك، وما سكوت حكومات الدول النامية على ذلك الغزو إلاّ دليل على عجزها أو عمالتها.

وإذا نظرنا إلى الدول المتقدّمة التي تدرك خطورة هذا الغزو، تقدر في نفس الوقت على التصدّي له، وتتحمّل مسؤوليتها تجاه شعوبها، نجدها توصد أبوابها دون الغزو الثقافي القادم حتى من الدول الصديقة. ففي بريطانيا مثلاً وضعت نسباً متوالى في الانخفاض للإنتاج الوارد من الولايات المتحدة، وكذلك كندا فعلت مثل ذلك، وفي فرنسا أعلن وزير الثقافة الفرنسي أنه خائف من وقوع الشعب الفرنسي ضحيّة للاستعمار الثقافي الأمريكي. نعم هكذا الاستعمار الثقافي الأمريكي، فما بالنا معشر المسلمين ألا نخاف؟ أم أن الثقافة الفرنسية عزيزة على الشعب الفرنسي أكثر من اعتزازنا بثقافتنا الإسلامية؟ في الواقع إنه ليس هذا ولا ذاك، ولكنه العجز عن التحدّي وعدم الجديّة في تحمّل المسؤولية بالحجم الذي يتناسب معها - وإلاّ فإن القناعة موجودة بأن المواد البرامجية التي تفد من خارج البلاد تمثّل فكراً دخيلاً ينتمي إلى عقيدة رئيه تخالف الإسلام في أمور جوهرية، ويقدّم من خلالها منظوراً للحياة يخالف وجهة النظر الإسلامية التي تنسجم فيها كل أجزاء الكون في نظام عقيدي سليم بعيد عن الانحرافات التي تظهر في مضامين تلك البرامج، ولا غرابة في ذلك فهي تمثّل المجتمع الذي أنتجت فيه.

فالنظرة الساذجة التي يروّج لها تجّار المواد البرامجية والتي يوهمون بها أصحاب التفكير السطحي، وهي إمكانية استيراد موّاد برامجية محايدة، هذه

النظرة الساذجة لا تصدر إلّا عن قاصر نظر أو جاهل بأمور الإنتاج ومراحله وطبيعة الولاءات التي ينتمي إليها. كما أن هذه النظرة تبنى على فرضيّات مستحيلة. فهل منتج البرامج العالمية لا يحمل فكراً؟ وهل كاتب ومعد تلك البرامج لا ينتمي إلى ثقافة محدّدة؟ وهل الممثّلون الذين يؤدُّون أدوار تلك المواد البرامجية لا يمثّلون قيماً أخلاقية وسلوكيّات معيَّنة يقدِّمونها من خلال تلك المواد. إن الإجابة على هذه الأسئلة الثلاثة فقط ـ دون بقية الأسئلة التي ينبغي أن تثار لتحديد هويَّة كل جزئية في تلك المواد ـ توضّح لنا أن تلك المواد البرامجية منتمية بالضرورة إلى فكر وثقافة معيَّنة. ذات عقيدة خاصة وقيم خاصة، وهي بالضرورة تخالف فكر وثقافة وعقيدة وقيم الأمَّة الإسلامية، على الأقل، وإن كانت غالباً تخالف قيم ومصالح كل مجتمع غير المجتمع الذي أعدَّت فيه مهما كانت ثقافة وانتماء ذلك المجتمع ما لم يكن امتداداً أو تابعاً لذلك المجتمع أو يراد له أن يكون كذلك (إن ثقافة أي بلد هي هويته الوطنية التي لا يجوز لأيٍّ كان، ولأيِّ سبب السماح بتشويهها أو تطعيمها بثقافات هجينة غير ذات مستوى.... وإن هناك فرق بين الغزو الفكري والتفاعل الفكري، الغزو الفكري هو عملية استعمارية عدوانية تسلُّطية لا شك فيها وهو ما يجب علينا أن نحاربه، أمَّا التفاعل الفكري فهو ممارسة حضارية نأخذ فيها من العالم أيّاً كان ونعطيه ضمن ضوابط ديننا وأخلاقنا ومجتمعنا وثقافتنا الخاصة، وإذا كان الاستعماريون يحاولون الخلط بين الاثنين لتضليلنا عن حقيقة الغزو الفكري وإبرازه كتفاعل حضاري، فإن مهمَّتنا هي بالتحديد التصدِّي لذلك النتاج وفرزه بوعي وذكاء، فما يتلاءم منه أخذناه بعد أن نطمئن إليه، وما تعارض مع قيمنا ومبادئنا نبذناه وحاربناه ودعونا إلى مقاطعته والابتعاد عنه)[1].
ولكن كيف تتم المقاطعة والابتعاد؟ وهل ذلك ممكن فعلاً؟ وما هو البديل؟ أين الإنتاج المحلِّي الذي يؤمل أن يسد الاحتياج؟ وما العمل والعالم اليوم مقبل على الغزو الجديد المتمثِّل في أقمار الاتصال؟. في الواقع لا نزعم أن هذا

---

(١) د. محمد عبده يمانيّ. أقمار الفضاء غزو جديد. مرجع سابق ص ٦٠.

البحث سيجيب على كل هذه الأسئلة بما تستحقه، ولكنه قد يكون فيه شيء من الإيضاح لبعض جوانبه ـ أمًا المشكلة بكاملها، فإن حجمها الكبير يطرح ثقله كلّه على الأمّة بكاملها ويتحدّى الجميع فهي مشكلة كبيرة حقّاً وتحتاج إلى دراسة وافية ترصد لها من الإمكانات المالية والعلمية الشيء الكثير. وإذا استطاع هذا البحث أن يجلي المشكلة ويحدّد حجمها ويضع تصوُّرات واضحة لأبعادها فحسبه هذا، ولعلَّه أن يحقّقه، والله المستعان.

وبعد ـ ما هي حقيقة وظائف الأعلام؟ في الواقع أن حصر المجالات التي لا يدخلها الاعلام تأثيراً وتأثُّراً أسهل من حصر المجالات التي يدخلها، وليس هذا مبالغة، فالاتصال سابقاً ينظر إليه كظاهرة منعزلة أو يمكن عزلها وتقرير التعامل معها أو عدمه وكان ذلك ممكن إلى حدٌ ما (لكنه يعتبر حاليَاً وعلى نطاق واسع عملية اجتماعية يتعيَّن دراستها من كل زاوية، ليس بمعزل عن غيرها، وإنما في إطار اجتماعي واسع إلى أقصى حد. ففي العالم الحديث أصبح الوعي بهذه الحلقات المترابطة أكثر انتشاراً من أي وقت مضى)[1]. واتَّسعت النظرة إليه إلى أن اعتبر نشاطاً فردياً جماعياً يشمل كل عمليات الأفكار والحقائق والبيانات والمشاركة فيها، وإنه ليس عملية تبادل الأخبار والمعلومات فقط، وقد خلص تقرير اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال إلى تحديد (وظائف الاتصال الأساسية في الاعلام، والتنشئة الاجتماعية، خلق الدوافع، والحوار والنقاش والتربية، والنهوض الثقافي، والترفيه والتكامل)[2]. وارتبطت هذه الوظائف بطموحات الأفراد وحاجات الكيانات الاجتماعية المختلفة، وأصبح قوَة مؤثِّرة في العديد من أوجه النشاطات المختلفة الاجتماعية، والثقافية، والتربوية، والسياسية يؤثِّر ويتأثر مع كل تلك الأنشطة ـ فأصبح عنصراً لا ينفصم عن الكيان الاجتماعي، والثقافي، والاقتصادي. ويدخل في كافة أوجه النشاط البشري فله ارتباطه وتأثُّره وتأثيره في القضايا الاجتماعية،

---

(١) شون ماكبرايد واخرون. أصوات متعددة وعالم واحد. مرجع سابق ص ٥٦.
(٢) د. سمير حسين. الاعلام والاتصال بالجماهير. مرجع سابق ص ٣٠.

والمعلومات، والتعليم، والثقافة، والتربية، ومحو الأميَّة، والسياسة، والتنمية، والاقتصاد.

فكل هذه المجالات يمارس الاتصال دوره فيها تأثيراً وتأثراً مهماً اختلفت المعتقدات والانتماءات والمذاهب. ولكن طبيعة ذلك التأثير تختلف بين ثقافة، وثقافة أخرى، فالكل يريد من الاعلام تحقيق أهدافه وغاياته ونشر أفكاره وقيمه أو بمعنى اعلامي أوضح الكل يريد توظيف الاعلام لتحقيق أهدافه.

لكن تحقيق ذلك محكوم من جانبين:

١ ـ جانب القدرة الفنيَّة والعلمية لدى الكفايات العلمية التي تشرف وتدير أجهزة الاعلام.

٢ ـ الجانب الآخر وضوح العقائد والأفكار والالتزام بها لدى العاملين في المجال الاعلامي.

ولا يخفى أن الجانب الفني والعلمي لدى الكفايات الأعلامية في معظم البلاد النامية جانب متخلِّف إذا قيس بالمستويات الفنية المتقدمة لدى البلاد الغربية، وهذا أمر واضح بالفرق بين المستويات الفنية للإنتاج البرامجي لكل منهما. وهذا الضعف الفني لدى المنتجين في البلاد النامية هو أحد الأسباب الهامة لضعف البناء الثقافي في تلك البلاد، فالإعلام اليوم يعتمد على القوة الفنية في الإنتاج أكثر من اعتماده على المضمون والمحتوى.

والجانب الثاني الذي يتعلَّق بوضوح المقائد والأفكار والالتزام بها تأثر بالجانب الأول كثيراً، فالقدرة الفنية المتفوقة لدى البلاد الغربية مكَّنت لفكرها وقيمها وسلوكها من خلال المواد البرامجية القوية، وأصبح أبناء البلاد النامية ـ ومنهم القائمون على أجهزة الاعلام ـ تحت تأثير تلك البرامج الوافدة.

فمن غير المنطقي أن يدعى أحد أن أبناء البلاد النامية تتم تنشئتهم الاجتماعية وفق الأهداف الوطنية المرسومة في بلادهم ـ بل إن واقع الأمر

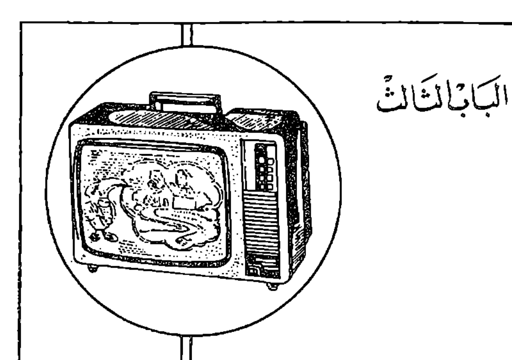
خلاف هذا ـ فالأهداف والغايات الوطنية لم تجد من المواد البرامجية ما يخدمها ووقعت الجماهير في البلاد النامية ـ ومنها البلاد الإسلامية والعربية ـ تحت تأثير قيم الغرب وأفكاره وعقائده وسلوكه وأسلوب حياته من خلال تلك المواد، وما يقدم من برامج محلية في وسائل الاعلام في البلاد النامية، فإن ضعفه من الناحية الفنية يحول دون تمكن مضامينه ومحتوياته الفكرية في أذهان الأفراد بل إن هذا الضعف الفني يحول دون وصوله أحياناً، فكثيراً ما نسمع من الأطفال أو الشباب أنهم يقومون بإطفاء التلفزيون أو الإعراض عنه عند ظهور البرنامج المحلي الفلاني، والسبب الأساسي في هذا التصرف هو الضعف الفني وعجز المنتج المحلي من الوصول إلى نفسية المشاهد.

وهذا أمر جدُّ خطير، لأنه إن استمر على هذا الحال فإن القيم الغربية ستتمكن داخل المجتمع ـ لأن الجماهير تقبل على البرامج التي تحتويها.

بل إن هذه الخطورة قد تحققت في كثير من البلاد النامية، فكثير من أبنائها لا ينتمون من الناحية الفكرية والسلوكية إلى قيم مجتمعهم، والنماذج الموجودة في هذا البحث توضح ذلك[1].

---

(١) انظر الفصل الخاص بالدراسة التحليلية للنماذج المختارة من بعض المجتمعات.



الباب الثالث

الآثار الاجتماعية للتلفزيون في الدول النامية



نتناول في هذا الباب بالتحليل دراسات ميدانية تمَّت في عدد من مناطق العالم النامي وفي البلاد الإسلامية على وجه الخصوص، والتي درس القائمون بها علاقة البرامج التلفزيونية بجمهور المستقبلين في تلك المناطق، وعن طريق التحليل والمقارنة يمكن الاستفادة من هذه الدراسات العلمية الدقيقة التي توفَّرت لها إمكانيَّات بحثية جيِّدة لا يستطيع باحث واحد مهما كانت عزيمته وإمكانياته أن يقوم بها. خاصَّة إذا لاحظنا المساحة الجغرافية التي تمَّت فيها، والظرف الزمني الذي غطَّته، فهي ممتدة منذ السنوات الأولى لدخول التلفزيون إلى البلاد النامية ومستمرة حتى وقتنا الحاضر. وقد تم اختيار هذا الأسلوب للأسباب التالية:

١ - إن هذا البحث يهدف إلى الوصول إلى تعميمات واسعة تنطبق على أكثر من منطقة، وهذا لن يتحقَّق إلا بدراسة أكثر من منطقة، أو الاستفادة من الدراسات التي تمَّت في تلك المناطق.

٢ - إن أسلوب دراسة العيِّنة الواحدة وفي منطقة واحدة لن يحقِّق أهداف هذا البحث، كما أنه سيوجَّه إليه النقد بعدم الاطِّلاع على أحوال المناطق الأخرى.

٣ - إن معظم الدراسات والأبحاث التي تمَّت في مجال أثر البرامج تنهج أسلوب العينة الواحدة، مما يجعل تحليل تلك الدراسات وعقد مقارنات

بينها أمراً ضرورياً لإظهار أوجه التشابه والاختلاف بين المناطق، مما يوضِّح للمهتمين بالبرامج التلفزيونية حقائق الأمور العامة التي تتشابه في مختلف الظروف تقريباً، وترك خصوصيَّات كل منطقة ليتعامل معها أصحاب الشأن في مناطقهم. والاستفادة من هذه النتائج أو الاستئناس بها على الأقل.

وعلى هذا ستكون خطة هذه الجزئية من البحث كالآتي:

١ ـ آثار التلفزيون (الوسيلة):

ويدرس في هذا القسم الآثار العامة لدخول التلفزيون في حياة الفرد والمجتمع، والتي ترتَّبت على وجود التلفزيون مهما كانت مضامين الرسائل الإعلامية ومحتوياتها، وسندرس فقط الآثار التي تتعلَّق بتأثير التلفزيون على الوقت الذي كان يقضى في مناشط أخرى من حياة الفرد، وما قد يسبِّبه من مشكلات في حياة الفرد والأسرة.

٢ ـ آثار برامج التلفزيون:

وندرس في هذا القسم من آثار التلفزيون، الآثار المترتبة على محتوى الرسائل التلفزيونية ومضامينها وما تحدثه في معلومات، وأفكار، واتجاهات، واعتقادات، وسلوكيَّات المشاهدين. ويجزأ هذا القسم إلى المباحث التالية والتي يتَّضح من تسلسلها المنهجي أن كل مبحث منها مبني على المبحث السابق له.

أولاً: كثافة المشاهدة:

يدرس في هذا المبحث كثافة مشاهدة التلفزيون وبيان الإقبال على مشاهدته من قبل الجمهور المستقبل في مختلف المناطق التي تشملها الدراسة لنصل من هذا إلى مدى وصول الرسائل إلى المشاهدين.

ثانياً: البرامج الغالبة والمشاهدة:

في هذا المبحث نتعرَّف على تفضيل الجمهور للبرامج وأي الأنواع

يحوز على إعجابه وذلك من خلال التعرُّف على قوائم تفضيل المشاهدين للبرامج في مناطق الدراسة مع محاولة تفسير أسباب التفضيل، وتحليل تلك النتائج ومقارنتها، والتعرُّف أيضاً على ترتيب البرامج من واقع ما قدَّمته المحطَّات التلفزيونية، سواء اتفق ذلك مع رغبات الجمهور أو لم يتفق. والتعرُّف أيضاً على أقلِّ البرامج فرصاً على هيكل البرامج.

ثالثاً: القيم السائدة في البرامج المفضَّلة:

تحاول الدراسة التعرُّف على القيم السائدة في تلك البرامج التي فضَّلها الجمهور، أو التي ارتفعت نسب الساعات التي خصِّصت لها من مجمل زمن البث التلفزيوني، مما يعطي مؤشِّراً بإمكانية تأثُّرهم بها من خلال تفضيلهم لها، وكثرة تعرُّضهم لها، وفي إطار قدرة التلفزيون التأثيرية.

رابعاً: القيم السائدة في البرامج (غير المفضَّلة):

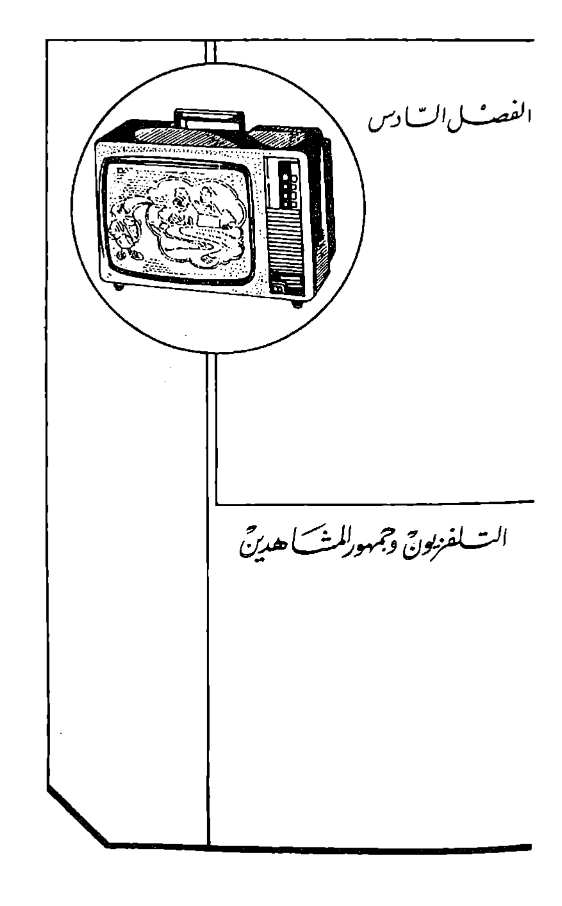
من نفس قوائم البرامج، وتفضيلات المشاهدين تبيَّن البرامج التي يقلُّ إقبال المشاهدين عليها. وتحاول الدراسة في هذا المبحث التعرُّف على نوع القيم التي تحتويها هذه البرامج، مما يعطي دلالة على قلَّة التأثُّر بتلك القيم بحكم قلَّة فرصها في المشاهدة، نظراً لقلَّة ساعات عرضها أولاً ثم بسبب إعراض الجمهور عنها وقلَّة إقبالهم على متابعتها.

خامساً: دراسة مقارنة بين القيم السائدة في كل من البرامج المفضَّلة وغير المفضَّلة، وبين القيم الأصيلة في ثقافة المجتمع الذي توجد فيه، مما يظهر ملامح التأثير على البناء الثقافي وبالتالي على البناء الاجتماعي، مما يؤدي في النهاية إلى تغيُّرات اجتماعية متلاحقة خاصة إذا لاحظنا أن معظم الدراسات تشير إلى قوة هذا التأثير، مما يستدعي متابعة تلك النتائج وتحليلها ومقارنتها، للوصول إلى نتائج أكثر وضوحاً، والاستفادة منها بشكل أكبر.

ومن أحدث الدراسات[1] وأشملها في هذا المجال دراسة قام بها اتحاد الإذاعة والتلفزيون بمصر بالاشتراك مع مركز بحوث الرأي العام بجامعة القاهرة صدرت عام ١٩٨٥ م، وكانت المشكلة البحثية لتلك الدراسة الآراء الجدلية التي تتصل بوظائف وإنجازات الإذاعة والتلفزيون، ومدى إسهامهما في إشباع حاجات المجتمع عامة أو شرائح منه تمثل هياكل أساسية في تركيبه، وما إذا كان هذا الإسهام محققاً لغرضه، كافٍ لإحداث أثره، متوافقاً مع الرجاء المعقود عليه، وقد توجه ذلك البحث إلى عينة ممن يعتقد أنها تملك أكثر من غيرها القدرة على استجلاء وجه الحقيقة في ذلك الذي يختلف الرأي فيه. وجاء في النتائج أن أكثر من ثلثي العينة يرون أن التلفزيون قد أثّر تأثيراً شديداً على أسلوب الحياة في مصر مقابل نسبة مفرطة في الضآلة (١,٥ ٪) قالت إنه لم يؤثّر، ومع أن النسبة التي قالت إن التلفزيون قد أثّر بشدة لم تحدِّد نوع التأثير إلاّ أن تحديد اتجاه التأثير في الدراسة نفسها قد بيَّن أن النسبة الأكبر من الإجابات قد ذكرت أن التأثير كان في الاتجاه الإيجابي والسلبي على السواء، وهنا تزداد الخطورة من الآثار السلبية المتوقَّعة.

---

(١) البحث الميداني الذي أعده اتحاد الإذاعة والتلفزيون المصري بالاشتراك مع مركز بحوث الرأي العام بجامعة القاهرة عن اتجاهات الرأي العام ـ فبراير ٨٥ م ص ٣، ١٣.



الفصل السادس

التلفزيون وجمهور المشاهدين

الفصل السادس

التلفزيون وجمهور المشاهدين

سبقت الإشارة إلى ما أثارته نظرية مارشال ماكلوهان العالم الكندي حول الوسيلة والرسالة من مناقشات، وخلافات حول الاهتمام بأثر الوسيلة، وهو الأمر الذي طرحته تلك النظرية التي قالت ـ بأن الوسيلة هي الرسالة ذاتها، لما لاحظه ذلك العالم من قوة تأثير وسيلة الاتصال ذاتها مهما كان نوع مضامين الرسائل التي تحملها، ولما لاحظه أيضاً من تأثر المضامين بطبيعة الوسيلة حيث يقول: (إن مضمون وسائل الإعلام لا يمكن النظر إليه مستقلاً عن تكنولوجية الوسائل الإعلامية نفسها. فالكيفية التي تعرض بها المؤسسات الإعلامية الموضوعات، والجمهور الذي توجه له رسالتها يؤثران على ما تقوله تلك الرسائل). وهذا أمر يتفق معه فيه الإعلاميون، فتأثير الوسيلة والجمهور على طبيعة الرسالة أمر واضح. لكن الذي يثير الخلاف، هو ما أكمل به ماكلوهان قوله: (.. ولكن طبيعة وسائل الإعلام التي يتصل بها الإنسان تشكّل المجتمعات أكثر مما يشكّلها مضمون الاتصال)[1]. وهذا أمر لايسلّم به دون تحديد. لأن ذلك تقليل أو إلغاء لتأثير المضامين. ومع هذا فإن الوسيلة لها تأثيرها المساند لتأثير المضامين غالباً، ولها تأثيرها العام الذي تحدثه في الحياة العامة فيما تحدثه من علاقات جديدة تؤثّر على طبيعة علاقات الأفراد ونظم حياتهم، وهو ما تشير إليه كثير من الدراسات، وهو ما ستناوله في هذه الجزئية من البحث.

---

(١) د. جيهان رشتي. الأسس العلمية لنظريات الاتصال. مرجع سابق. ص ٣٧٢.

والذي نريد بحثه هنا لا يتعلّق بأيُّهما أكثر تأثيراً؟ الوسيلة ـ أم الرسالة. ولكننا نريد عرض ومناقشة بعض آثار التلفزيون (الوسيلة) مهما كانت المضامين والمحتويات التي تقدُّم من خلاله. أمَّا مضامين الرسائل الإعلامية ومحتوياتها فلها مباحث لاحقة نتناولها فيها.

وسوف نحصر دراستنا لهذا الجانب من آثار التلفزيون (الوسيلة) في ناحيتين. إحداهما: تأثيره على الوقت، والثانية: تأثيره على العلاقات الأسرية، ونحاول دراسة الأرقام الإحصائية وتحليلها، ومقارنتها للوصول إلى مدلولاتها في هذا المجال.

أولاً: تأثير التلفزيون على الوقت:

«الوقت هو الحياة» هذه الحقيقة التي نعيش من خلالها حياتنا بكل أجزائها، ففي الوقت نعمل، وخلاله نتعلَّم، وأثناءه نربِّي أبناءنا، ويمارس الأبناء أنشطتهم ويحقِّقون رغباتهم أيضاً ـ فالوقت هو الحياة. وبقدر ما تستطيع أمَّة من الأمم تنظيم وقتها وتسخيره لتحقيق أهدافها، تحقِّق مستويات أعلى من النجاح، وليس ذلك على مستوى الأمَّة ـ بل حتى الفرد نجاحه مرتبط بتنظيم الأوقات، فالطالب الذي يستطيع تنظيم وقته هو الطالب الذي يحقِّق أهدافه غالباً. والفشل في تنظيم الوقت يسبِّب سلسلة متلاحقة من أنواع الفشل.

وصعوبة تنظيم الوقت ـ بين المتطلَّبات المتعددة التي تتزاحم للحصول على النصيب الأكبر منه ـ تزداد عندما تزيد الأعمال ويضيق الوقت عن الاتِّساع لها جميعاً، أو عندما تتعارض مصلحتان لا يمكن تحقيقهما معاً، وعندما يكون أحد الشركاء في الوقت مرغوباً أو مفضَّلاً على غيره، فإن نصيبه سيرتفع ولو على حساب الشركاء الآخرين، وهذا هو ما ينطبق على واقع التلفزيون في علاقته مع أنشطة الحياة المختلفة.

دخل حياة الناس، وأخذ ما يريد من الوقت، وهدم نظام حياتهم، وأعاد ترتيبه وفق ما يريد؛ بل إن الناس أنفسهم يقومون بهدم نظام حياتهم ويعيدون

ترتيبه من جديد وفق «مزاج التلفزيون» وليس هذا واقع بعض البلاد دون غيرها، بل هي ظاهرة تكاد تعم كل البلاد، ففي أمريكا (جاء في إحدى الدراسات أن (٦٠ ٪) من العائلات اعترفت بأنها غيّرت عادات نومها بسبب التلفزيون، كما أن (٥٥ ٪) من العائلات غيّرت مواعيد تناول الطعام لنفس السبب - وقال حوالي (٨٠ ٪) أنهم يستعينون بالتلفزيون باعتباره «جليسة أطفال الكترونية». بل إن علماء التاريخ الأمريكي مثل «دانيال بوستل»، استخدم عبارة شديدة الحدَّة في وصف ما عناه التلفزيون للأمَّة الأمريكية فقال إنه إدمان لا يقارن إلاَّ بالحياة نفسها)[1]. وأثر التلفزيون واضح على معظم الأنشطة التي يمارسها الإنسان ومنها: -

أ - تأثير التلفزيون على ممارسة الأنشطة التربوية:

في دراسة أجريت في الكويت لاستطلاع رأي المشاهدين في دورة تلفزيونية صباحية عام ١٩٧٤ م جاء في نتائجها أن غالبية أفراد العيِّنة (٩٧,٥ ٪) يرون أن بث الدورة الصباحية قد حدَّ من خروج الأطفال من المنزل، وهذا دليل قدرة التلفزيون على الاستحواذ على اهتمام الأطفال، ومن ثم احتمال تدخُّله الشديد في تشكيل اتجاهاتهم وتحوير سلوكهم ومنعهم من ممارسة الأنشطة الأخرى؛ كاللعب، والقراءة، ومزاولة الهوايات والاختلاط في المجتمع والتي تعتبر مناشط أساسية في عملية التنشئة الاجتماعية والنفسية.

وجاء في الدراسة نفسها أن (٥٢,٤ ٪)من مجموع العينة يرون أن الدورة الصباحية ساعدت على انصراف الأطفال عن أصدقائهم. ويتَّضح من هذه النسبة أن التلفزيون قد أثَّر إلى حدٍّ كبير في منشط يعتبر من المناشط الهامة التي تعتمد عليها التنشئة الاجتماعية والنفسية للطفل، ذلك أنه يستطيع من خلال

---

(١) ادوارد واكين. مقدِّمة إلى وسائل الاتصال. ترجمة - وديع فلسطين. الأهرام. القاهرة - ص (١٠٣) ونشر الأصل باللغة الإنجليزية بواسطة شركة الكتاب الأمريكي. ١٩٧٨ م.

تعامله مع أقرانه أن يكتسب الكثير من المعلومات والخبرات التي تكرّس لديه مفهوم الأخذ والعطاء في تعامله مع البيئة التي يعيش فيها، كما تساعد على التخلُّص من الأنانية، وتنمِّي لديه في الوقت نفسه الشعور بالغيريَّة، وهنا تكمن خطورة انصراف الأطفال عن اللعب مع أصدقائهم وأقرانهم)[1]. كما جاء في دراسة قامت بها الباحثة منى محمد عبد الفتاح جبر وتقدَّمت بها للحصول على درجة الماجستير من كليَّة الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٧٣ م - بعنوان «دور التلفزيون في تثقيف الطفل». جاء ما يفيد بتأثير التلفزيون فعلاً على أنشطة الطفل التي يقضي فيها وقت فراغه، حيث حاز التلفزيون على (٤٥,٦ ٪) من تفضيل الأطفال في مقابل (١٣ ٪) فقط للَّعب، و (٥,٥ ٪) للنادي. وهذا يؤكِّد ما وصلت إليه الدراسة الأولى وفيهما ما يكفي للدلالة على أن التلفزيون أثَّر على وقت الأطفال كثيراً، وأن خبراتهم التي كانوا يتزودون بها من خلال تجاربهم الشخصية سوف تتحوَّل إلى خبرات سلبية يطَّلعون عليها عبر الشاشة فقط - مما يؤثِّر على حياتهم المستقبلة. ونوع هذه التأثيرات ومداها لا يزال مجالاً مفتوحاً لمزيد من البحوث التي تحدده.

ومن المناشط الهامة في حياة الأفراد، سواء في مرحلة الطفولة أو الشباب أو ما بعدها، منشط القراءة. وتدل الدراسات الميدانية في عدد من المناطق بتأثُّر هذا المنشط الهام في تكوين الأفراد بدخول التلفزيون في حياتهم، حيث صرفت نسبة كبيرة عن القراءة. جاء في دراسة كويتية لاتجاهات الشباب نحو المطالعة أن (٦٢,٢ ٪) من مجموع المبحوثين فد أثر التلفزيون في صرفهم عن المطالعة بنسب متفاوتة بين التأثير بدرجة كبيرة أو بدرجة قليلة. مع أن هؤلاء الشباب أنفسهم في مكان آخر من نفس الدراسة لا يوافقون على أن السينما، والتلفزيون والإذاعة تساعد على زيادة المعرفة أفضل من القراءة وبنسبة (٥٨,٤ ٪). فمع إدراك هؤلاء الشباب أن التلفزيون ليس أفضل من المطالعة

---

(١) موسى عبد راغب. تقرير استطلاع رأي المشاهدين في برامج الدورة التلفزيونية الصباحية عام ١٩٧٤ م. مرجع سابق. ص (٥٩ - ٦٠).

في تزويدهم بالمعرفة، إلاّ أنهم يؤكّدون ارتفاع نسبة تأثيره على قراءتهم وصرفهم عنها)[1]، ودلّت إحصاءات دراسة لاتجاهات الرأي في التلفزيون الأردني أن (٨٣,٥ ٪) من أفراد العينة يرون أن التلفزيون قد ترك أثراً عكسيّاً في عادات المطالعة لدى الناس فقلّل من إقبالهم على المطالعة والدروس علماً أن نسبة الجامعيين الذين يرون هذا الرأي عالية إذ بلغت (٥٥ ٪)[2].

فهذه الدراسات التي مرّت تدل وتؤكّد تأثير التلفزيون على الأنشطة التربوية الهامة في حياة الأفراد في مختلف الأعمار مما ينبّه إلى ضرورة الدراسة والمتابعة والبحث لتحديد تلك الآثار بشكل أوضح وأدق ـ مما يعطي المخطّط للاستقرار الاجتماعي مؤشّرات أوضح تساعده في تلمُّس حاجات الأفراد الحقيقية وإشباعها بأساليب متوازنة لا يطغى بعضها على بعض.

ب ـ تأثير التلفزيون على التحصيل العلمي:

من الأمور الهامة في حياة الأطفال والشباب في حاضرهم ومستقبلهم مستوى تحصيلهم العلمي، لأن هذه الفترة من العمر (فترة الطفولة والشباب) هي المرحلة العمرية التي تتكون فيها المعارف، ولذا كان لزاماً على المعنيين بأمور التربية والتعليم التعرُّف على البيئة ذات التأثير على التحصيل العلمي سلباً أو إيجاباً للتعامل معها بما يخدم الأهداف ويساعد على تحقيقها وتلافي كل المؤثِّرات السلبية لينشأ الجانب المعرفي في شخصية الفرد قوياً ومتيناً، وسليماً من أمراض المعرفة.

ولا شك أن التلفزيون يعتبر أحد المؤثِّرات الكبيرة في البيئة المعاصرة، ولكن تحديد آثاره ينبغي أن يسير بالأساليب العلمية ليتم الوصول إليها وهذا ما

---

(١) د. إسحاق القطب. اتجاهات الشباب نحو المطالعة في المجتمع الكويتي المعاصر. وزارة الاعلام الكويتية ١٤٠٣ هـ. ص ١٧٧، ١٨٦.

(٢) اتجاهات الرأي العام في التلفزيون الأردني. بحث منشور في دورية الإذاعات العربية العدد: ٦ اكتوبر ١٩٧٤ م ص ٤٧.

قام به فعلاً عدد من الباحثين في مختلف المناطق وأظهرت تلك الدراسات الكثير من البيانات الإحصائية التي تمكّن من يحلّلها ويقارنها من الوصول إلى مؤشّرات تلك الآثار.

وفي إحدى تلك الدراسات التي تمت على طلبة المرحلة الثانوية في الكويت أظهرت نتائج البحث أن عدد الذين قرَّروا أن المدة التي يقضونها في مشاهدة التلفزيون يومياً تعطِّلهم عن أداء واجباتهم المدرسية، بلغ (١٨,٦ ٪) من مجمل الذين يشاهدون برامج التلفزيون الكويتي[1]. وهذه النسبة تعد مرتفعة إذا لاحظنا مجمل الأعداد الذي تمثله هذه النسبة وهي قريبة من خمس جميع طلبة المرحلة الثانوية، وهذه الأعداد التي سيتأثَّر تحصيلها العلمي بسبب التلفزيون، ستصل إلى مستوى المسؤولية كل في تخصّصه مما يجعل الفائدة العامة والمردود الذي ينتظر من هؤلاء الشباب ينخفض، بسبب هذا المؤثِّر، كما أن بعض هؤلاء قد يصل تأثُّره إلى مرحلة الفشل الدراسي ويعجز عن تحقيق أهدافه وطموحاته، ويكون لهذا آثاره في إيجاد مشكلات اجتماعية لا ندرك المدى الذي تصل إليه تفاعلاتها بسبب الفشل الذي منيت به هذه الأعداد، خاصة إذا لاحظنا الدلالات الكثيرة التي تربط بين الفشل في الحياة وجرائم الانحراف عند الشباب.

كما أفادت دراسة خاصة بطلبة المرحلة المتوسِّطة في الكويت أيضاً ما يدل على هذا التأثير على المستوى التحصيلي لهم، ففي الإجابة التي وردت في سؤال الباحث عن مواعيد انتهاء الأطفال من واجباتهم المدرسية، وعن ما إذا كانت مشاهداتهم للتلفزيون تتدخَّل في تحديد هذا الموعد أم لا. أوضحت النتائج أن:

(٥٣٤) طفلاً ينتهون من إنجاز واجباتهم المدرسية قبل بداية الرسوم المتحرِّكة، وهؤلاء يمثِّلون (٥٣,١٪) من مجموع العينة.

---

(١) بحث التلفزيون وطالب المرحلة الثانوية. وزارة الاعلام الكويتية. رجب عام ١٤٠٥ هـ. ص : ١٤٨.

(٣٧٨) طفلاً ينهون جزء منها ويكمِّلون الجزء المتبقي بعد مشاهدتهم للبرامج التي يفضِّلونها، وهؤلاء يمثِّلون (٣٧,٦٪) من مجموع العينة.

(٣٥) طفلاً يبدأون في إنجاز واجباتهم المدرسية بعد أن يفرغوا من مشاهدة ما يرغبون من البرامج وهم يمثلون (٣,٥٪) من مجموع العينة.

ومن هذا يتَّضح أن مشاهدة الأطفال لبرامج التلفزيون تتدخَّل بصورة أو بأخرى في تحديد المواعيد التي يلتزم الأطفال بها نسبيّاً في إنجازهم للواجبات المدرسية. وهذا يتمثَّل بصورة واضحة في نسبة الأطفال الذين يقومون بإنجازهم للواجبات على فترات متقطِّعة. حيث بلغت هذه النسبة (٣٧,٦ ٪) ولذلك يمكن القول أن التلفزيون يؤثر مباشرة على درجة إنجاز الأطفال لواجباتهم المدرسية كما يؤثِّر على الطريقة التي يتبعونها في إنجاز هذه الواجبات. وهذا التأثير يمكن أن يكون من ناحيتين: -

الناحية الأولى: تتمثَّل في حرص الأطفال على الانتهاء من واجباتهم قبل بداية الرسوم المتحركة، وهذا قد يساعد على توزيع أوقاتهم بطريقة معقولة، كما أنه قد يؤثِّر على مستوى الأداء، وهذه النسبة الغالبة من أطفال العينة (٥٣,١ ٪).

الناحية الأخرى: تتمثَّل في الارتباك الذي تحدثه برامج التلفزيون للطفل الذي يقوم بتأجيل واجباته لحين مشاهدة ما يجب أن يشاهده، أو أن يخلط بين ما يحب أن يشاهده وما يجب أن يؤدِّيه نحو عمله المدرسي[1].

وفي بحث أجري في تونس حول الانعكاسات الثقافية للتلفزيون، أظهرت النتائج علاقة بين مشاهدة التلفزيون وانخفاض المجهود المدرسي

---

(١) د. سعد عبد الرحمن. بحث حول التلفزيون وطفل المدرسة المتوسِّطة. وزارة الاعلام الكويتية عام ١٣٩٤ هـ. ص ٨.

للطفل والنسبة وإن لم تكن عالية حيث بلغت (٤,٤٨ ٪) من حجم العينة التي تفيد بوجود هذه العلاقة، إلَّا أنه ينبغي ألا تترك دون عناية[١]. وأغرب ما جاء حول تأثير التلفزيون على التحصيل العلمي ما ورد في بحث أعد في المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بمصر عام ١٩٧٥ م، حيث أفاد (٧٧ ٪) من أرباب الأسر المبحوثة أنهم يلجأون إلى تشغيل التلفزيون أثناء المذاكرة[٢]. وهذا المستوى من التأثير الذي وصل إلى عجز الأسر حتى عن إطفاء التلفزيون في فترة المذاكرة، وأي نوع من التحصيل العلمي سيتحقق من المذاكرة أمام التلفزيون.

جـ - تأثير التلفزيون على العلاقات الاجتماعية:

الروابط العائلية والأسرية بين أفراد العائلة الواحدة وأسرهم الكبيرة من مميِّزات المجتمع المسلم، حيث إن من القيم المرعية لدى المسلمين صلة الرحم بين ذوي القربى، كما أن من عادات المسلمين الفاضلة التزاور بينهم بشكل عام لتفقُّد أحوال الجيران والمعارف والتي قد لا تعرف بغير الزيارة، وكم يحصل من هذه الزيارات إذا حسنت النِّيَّات من خير كثير من عيادة مريض، وإصلاح ذات بين وتعليم جاهل، ونصح غافل، وبناء مودَّة لا يمثِّلها إلَّا حديث الرسول ﷺ (من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا - نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسَّر على معسر - يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة. ومن ستر مسلماً - ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد - ما كان العبد في عون أخيه)[٣]. فالتزاور بين المسلمين من أسباب التعرُّف على أحوال بعضهم

---

(١) د. يوسف بن رمضان. التلفزيون وانعكاساته الثقافية في تونس. بحث منشور في مجلة البحوث. العدد الأول شباط ١٩٧٩ م. بغداد ص (١٠١).

(٢) ناهد رمزي. التلفزيون والصغار. المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية عام ١٩٧٥ م. نشر مستخلص لهذا البحث في دورية الاعلام العربي. السنة الثالثة. العدد الأول. رمضان عام ١٤٠٣ هـ. ص ١٢١.

(٣) رواه مسلم. مختصر صحيح مسلم للمنذري المكتب الإسلامي الطبعة الرابعة. عام ١٤٠٢ هـ. الحديث رقم (١٨٨٨) ص (٤٩٨).

بعضا ليتحقق ما ورد في حديث الرسول، وليكون كل منهم في عون أخيه. ولا شك أن المتغيِّرات التي أصابت المجتمعات المعاصرة، قد أثّرت على هذه الروابط بسبب تباعد الأحياء السكنية للانتشار الأفقي للأحياء، وتباعد أطراف المدن، ولكثرة المسؤوليات التي أغرقت الأوقات.

لكن التلفزيون أحد هذه العوامل التي أثر على الوقت بشكل عام، ووقت قضاء الفراغ بشكل خاص، وهو وقت الزيارات، أو بعضه على الأقل كان يصرف فيها. هذا الأمر يدركه الملاحظ للعلاقات الاجتماعية، لكن ما نصيبه من الثبات لدى الدراسات العلمية. جاء في دراسة على المجتمع الأردني ما يفيد بأن حوالي (٧٥ ٪) من المبحوثين بينهم (٧٢,٤ ٪) من الذكور، و (٥٢,٥ ٪) من الجامعيين يرون أن التلفزيون قد قلَّل من عادات التزاور بين الناس.

وخطورة هذه الدلالة تأتي من آثار القطيعة بين أفراد الأسرة الواحدة، ولما يحصل بذلك من معصية لله بتلك القطيعة كما أن كثيراً من المصالح الاجتماعية التي تعود على الأفراد تتعطَّل بفقدان تلك الصلات الاجتماعية، فمعرفة أحوال الناس يتم أكثرها بالتزاور بينهم، بل إن كثيراً من صلات المصاهرة تتم عن طريق تلك الزيارات. وإذا استمرت آثار هذه الدلالة بين المسلمين فإنها نذير شؤم على المجتمع.

وجاء في دراسة على المجتمع الكويتي[1]. أن ٩٧٩ مبحوثاً وهم يمثّلون (٦٣,٩ ٪) من مجموع العينة يرون أن الدورة الصباحية قد ساعدت على التقليل من الزيارات الصباحية، وهذا تأكيد لما ظهر في الدراسة السابقة على المجتمع الأردني وهما تؤكِّدان أن الظاهرة عامة في مختلف المجتمعات.

وقد يقول قائل إن تقليل الزيارات الصباحية بين ربات البيوت له مردوده

---

(١) موسى عبد راغب. تقرير حول استطلاع رأي المشاهدين في برامج الدورة التلفزيونية الصباحية. مرجع سابق.

الجيِّد من ناحية التفرُّغ لأعمالهن المنزلية والإشراف على تربية أطفالهن. لكن هذه الدراسة الكويتية تعرَّضت لهذه النقطة من زاوية ثانية، ، وظهر ما يشير إلى أن التلفزيون أثَّر في انشغال ربَّة البيت عن أعمال منزلها والنسبة التي ترى هذا بلغت (١٨,٩ ٪) وهي نسبة ليست بالقليلة فهي قريبة من خمس المبحوثات. فكم يبلغ هذا الخمس من جملة المواطنين؟!.

د ـ تأثير التلفزيون على أوقات النوم:

اعتاد بعض الناس التأخُّر في مواعيد نومه لأمور تختلف أسبابها، فقد يضطرُّ الإنسان لظرف طارىء إلى السهر في إحدى الليالي أو عدد محدود من ساعات الليل، وهذا أمر لا غرابة فيه، وقد يحدث لكل واحد. لكن أن يصبح السهر عادة دائمة ومستمرة ـ فإن ذلك يخالف طبيعة الحياة التي جعل الله فيها النهار للجدِّ والعمل والليل للراحة والسكن. وقد انقلب هذا الوضع عند البعض من الناس، وأصبح معظم ليله سهر وأول نهاره امتداداً لليل. والمتأمِّل لهذا الوضع الشَّاذ يدرك الكثير من أضراره الدينية والدنيوية، فأولها أنه أضاع ليله في غير مصلحة توجب ذلك، وقد يكون سهره سبباً لتأخُّره عن صلاة الفجر مع جماعة المسلمين والتي حثَّ الرسول ﷺ عليها، وربَّما أخَّرها إلى خروج وقتها بطلوع الشمس. وقد لا يتصوَّر البعض أضرار هذا المسلك لعدم إدراك حجم الخسارة التي تحلُّ بفوات الصلاة والتي يحدِّد الرسول ﷺ حجمها بقوله: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»[1]. وهذا الخير الكثير الذي وعد به الرسول ﷺ هو أجر صلاة سنَّة الفجر فقط وليس أجر الفريضة نفسها، فما حجم الأجرة المترتِّب على أدائهما (السنَّة، والفريضة)؟ إنه لا يدرك مقدار الخسارة بفوات الصلاة إلا من يدرك مقدار الأجر الكبير الذي يترتَّب على أدائها. وهل يمكن أن تقارن أية فائدة مهما كانت بهذه الخسارة المذكورة؟

أما في أمور الدنيا، فإن ضعف الإنتاج لدى العمَّال والموظَّفين وضعف

---

(١) رواه مسلم. مختصر صحيح مسلم للمنذري. مرجع سابق حديث رقم (٣٥٩) ص ١٠٠.

التحصيل العلمي لدى الطلبة من آثار السهر المترتّبة عليه، وهذا أمر يدرك في واقع الحياة يحسه كل منّا إذا تعرَّض للسهر ليلة من الليالي في نشاط اليوم التالي. ولا نريد أن نخوض في إثبات هذا الأمر أو نفيه، لأنه حقيقة لا ينكرها أحد، فالطب الجسمي والطب النفسي يربط بين السهر وبين كل من الإرهاق الجسمي والإرهاق النفسي أيضاً، وآثارهما في التحصيل والإنتاج واضحة. وقد جاءت أدلّة الشرع الحنيف بالترغيب في بدء الأعمال من أول النهار ـ قال ﷺ (اللّهم بارك لأمتي في بكورها)[1]. وهذا التبكير في الأعمال لا يستطيع المجتمع تحقيقه إلّا من خلال التنسيق بينه وبين مواعيد النوم المبكِّرة حتى لا يتعارض ذلك مع حاجة الجسم إلى الراحة بأخذ حاجته من النوم. وقد يتبادر إلى ذهن أحد أن هذه الأمور جانبية، وليست على درجة من الأهمية تجعلنا نعتني بها. لكن الواقع خلاف هذا ـ فما دام تأثير هذا يمتد إلى تحصيل الأبناء وإنتاجية الآباء ـ فإنه جد خطير وتجدر العناية به.

إن تنظيم الأوقات يرتبط بثقافة الأمة ونظامها الاجتماعي بحيث تنسجم المواعيد الهامة مع المصالح الكبرى، وإذا كانت الأمم الأخرى غير ملزمة في دينها بالاستيقاظ المبكِّر لأداة الصلاة مع أول خيوط الفجر، ولم يرد من أوامر دينها ما يحثُّها على التبكير في أداء أعمالها، فإننا معشر المسلمين لسنا كذلك وينبغي أن لا نقلّد غيرنا في نظام حياته بما يتعارض مع مصالحنا الدينية والدنيوية، إن الاستفادة مما عند الآخرين ينبغي أن تحصر في الأمور التي ليس لها مساس في نظامنا الاجتماعي الأصيل، وإن من أبرز مظاهر النظام الاجتماعي في كل أمة نظامها الخاص بالوقت. متى تعمل، متى تنصرف من الأعمال، متى تنام، متى تستيقظ، وإذا قدم شخص إلى مدينة من العواصم الإسلامية ووجد أن الحياة لا تدب في تلك المدينة إلا بعد التاسعة أو العاشرة صباحاً، بحيث لو سأل عن الوقت المناسب لمراجعة دواوين الحكومة لقيل له

---

(١) رواه أبو داود والترمذي.

بعد الساعة العاشرة، هل بإمكان هذا الزائر أن يقول إنها مهتدية بهدى الإسلام في نظام وقتها ـ أم أنها تقلّد غيرها من الأمم التي نهاها الإسلام عن تقليدها.

واطرح تساؤلاً هنا، ما المانع أن تبدأ الأعمال في البلاد الإسلامية في أول النهار وبعد صلاة الفجر مباشرة وتنظم بقية الأعمال وفق ذلك؟

إن المانع هو التعوُّد على نظم الحياة الوافدة عبر المستعمرين والذين وضعوا نظام الحياة كله قبل رحيلهم وأصبحت كل البلاد الإسلامية تسير وفق تلك النظم إلاّ ما رحم ربّي. فهل من أمل في تحرير أوقاتنا من سطرة الفكر الأجنبي ونعيد ترتيبها بما يتفق مع مصالحنا الدينية والدنيوية؟

لكن ما علاقة هذا بالتلفزيون. إن التلفزيون أحد أطراف القضية في نظام الوقت عامة، وأوقات النوم بشكل خاص. يقول الدكتور / محيي الدين عبد الحليم، بعد أن درس الأوقات المفضّلة للمشاهدة التلفزيونية، وتبيّن له أن أفضل الأوقات لدى شباب الجامعات يبدأ من الساعة العاشرة حتى نهاية السهرة: (ويسهم التلفزيون في تأصيل عادات السهر الطويل لدى الجمهور المصري بصفة عامة، والشباب منهم بصفة خاصة)[١].

وقد جاء ترتيب الأوقات المفضّلة في هذه الدراسة كالآتي:

من العاشرة مساء حتى نهاية السهرة في التفضيل الأول ٣٨,٨٩ ٪.

من الثامنة مساء حتى العاشرة في التفضيل الثاني ٢٤,٨٨ ٪.

من السادسة حتى الثامنة مساء في التفضيل الثالث ١٤,٤٨ ٪.

من الرابعة حتى السادسة في التفضيل الرابع ٨,٤٢ ٪.

من الثانية بعد الظهر حتى نهاية الفترة الصباحية في التفضيل الخامس ٥,٣٩ ٪.

---

(١) د. محيي الدين عبد الحليم. الدراما التلفزيونية دار الفكر، عام ١٤٠٤ هـ. ص ٧٨.

من الثانية عشرة حتى الثانية بعد الظهر في التفضيل السادس ٤٤,٤ ٪.

من العاشرة صباحاً حتى الثانية عشرة في التفضيل الأخير ٣,٥٠ ٪.

وهذا التفضيل لفترة البث المتأخرة نتيجة لعدد من العوامل، لا شك أن التلفزيون أحدها. فقد يكون أحد الأسباب العناية بتلك الفترة المتأخرة وتقديم برامج مشوّقة بشكل أكبر. وإذا تعمَّد التلفزيون وضع البرامج المفضَّلة لدى غالبية الجمهور في تلك الفترات فإنه يلجئهم إلى السهر.

وظاهرة تأثير التلفزيون على أوقات النوم ليست خاصة بمصر وحدها ـ بل هي متكرّرة في معظم الأبحاث والدراسات التي بين أيدينا.

في اليابان مثلاً جاء في دراسة أجراها معهد بحوث الرأي العام التابع لهيئة الاذاعة اليابانية (انه زاد الاتجاه الى البقاء فترة أطول داخل المنزل والاستيقاظ المتأخر)[1]. فالاستيقاظ المتأخّر نتيجة للسهر حيث أشار البحث في جزء منه أن مشاهدة التلفزيون تحتل المقام الأول، وأن هذا الاتجاه نحو التوسّع في مشاهدة التلفزيون غالب بين كل فئات السن من العاشرة فما فوق.

وفي تونس جاء في بحث التلفزيون وانعكاساته الثقافية والذي سبقت الاشارة اليه عند الآثار على التحصيل العلمي. جاء ما يفيد بأن التلفزيون يدفع المشاهدين الى اطالة السهر[2].

وفي الكويت جاء في البحث الخاص بطلبة المرحلة الثانوية (أظهرت النتائج ان فترة الارسال التلفزيوني التي تبدأ الساعة التاسعة مساء الى ما قبل الحادية عشر مساء تمثّل أعلى قمّة كثافة المشاهدة اذ بلغت كثافة نسبة المشاهدة لهذه الفترة (٦٣ ٪). تلتها فترة الارسال التي تبدأ من الحادية عشر مساء وما

---

(١) مشاهدة التلفزيون في اليابان. بحث منشور في دورية الاذاعات العربية العدد (٦٠) اكتوبر عام ١٩٧٤ م ص (٥٣).

(٢) د. يوسف بن رمضان. التلفزيون وانعكاساته الثقافية في تونس. مرجع سابق. ص (١٠٥).

بعدها اذ بلغت كثافة المشاهدة بها (٤٦,٦ ٪)، ويمكن أن يعزى ذلك الى أن هاتين الفترتين تشملان العديد من الفترات والبرامج التي تستقطب نسبة عالية من المشاهدين كالأفلام العربية والأجنبية، والمسلسلات والبرامج المنوّعة[١].

أمّا في الأردن، فإن الأمر يتعلّق بالأطفال، حيث يرى أكثر من (٨٢ ٪) من أفراد العينة المبحوثة أن التلفزيون قد تسبّب في تأخير موعد نوم الأطفال وتتساوى نسبة المؤيدين بين الذكور والاناث اذ تبلغ (٨٢,٩ ٪) لدى الذكور، (٨٢,٤ ٪) لدى الاناث.

وهذا الأثر الواضح للتلفزيون في تأخير جمهوره عن مواعيد نومهم يزداد خطره اذا لاحظنا أن هذا تركّز بشكل أكبر في فئات هي في أمسّ الحاجة الى الراحة، ففي مصر كانت العينة طلبة الجامعات المصرية، وفي الكويت كانت العينة طلبة المرحلة الثانوية، وفي الأردن كانت عموم الأطفال، ومعنى هذا أن خطر هذه الظاهرة يتوجّه الى أمل البلدان النامية شبابها، وأطفالها! والحاجة الآن ملحّة الآن الى قيام أبحاث تحدّد مدى هذه الآثار على حياة هذه الفئة الهامة من أبناء الأمّة ليتّخذ على ضوء النتائج ما يكفل الحفاظ على طاقة الأمّة المتمثّلة في طاقة شبابها، والتي تذهب هدرا أمام شاشات التلفزيون مما يؤثّر على أنشطتهم المختلفة، والتي ستؤثّر أخيراً على جملة انتاج الأمّة في مختلف المجالات. ومن يدري لعّل هذا العامل أحد الأسباب الرئيسية في تخلّف الأمّة، أو عدم قدرتها على النهوض الذي تحاول منذ مدة تحقيقه دون جدوى.

ثانياً: تأثير التلفزيون على العلاقات داخل الأسرة: ـ

لقد حدث بدخول التلفزيون عدد من المشكلات في حياة الناس، لم تكن موجودة قبل مجيئه فهي مرتبطة به وجوداً وعدماً وليست هذه المشكلات ذات علاقة بمضامين الرسائل كما سبقت الاشارة، ولكنها مشكلات مرتبطة بالوسيلة ذاتها ـ أمّا ما يتعلق بآثار الرسائل والمضامين ـ فليس موضوع حديثنا الآن.

---

(١) بحث التلفزيون وطالب المرحلة الثانوية. مرجع سابق. ص (٢٦).

هل التلفزيون يسبّب مشكلات داخل الأسرة؟

وجّه هذا السؤال الى مجموعة كويتية من الشباب والشّابات في سن ١٤ ـ ١٩ سنة. وكانت الاجابة مذهلة اذ قرّر أكثر من (٦٠ ٪) من هذه المجموعة أن التلفزيون يسبّب المشكلات للأسرة.. وكان من أبرز المشكلات التي يسبّبها التلفزيون للأسرة ما ينجم عن منع الآباء لأبنائهم وبناتهم من مشاهدة بعض البرامج والحرج الذي يترتّب على ذلك. اذا أنه من المتوقّع أن يسأل الابن أو البنت عن سبب منعهم من مشاهدة برنامج ما. ويقول الشباب عند استعراض آرائهم، ان اجابة الآباء غالباً ما تدور حول أن هذه البرامج كلّها أو بعضها يتعارض مع القيم والتقاليد والعادات، والمتعارف عليه من علاقات ونظم اجتماعية. ثم يعود هؤلاء الشباب وهم بين الخامسة عشرة والتاسعة عشرة ليسألوا اذن لماذا يعرض التلفزيون مثل هذه البرامج؟[1].

وهذه الحقيقة المّرة استطاع الشباب لجرأتهم النطق بها، لماذا يعرض التلفزيون مثل هذه البرامج؟

هذه المشكلة ليس سببها اعتراض الآباء على مشاهدة أبنائهم، لأن لهم الحق في ذلك ـ بل يجب عليهم ذلك بحكم مسؤوليتهم ـ وليس سبب المشكلة أيضاً اعتراض الأبناء واستفسارهم فمن حقّهم أن يستفسروا عن الأمور التي لايدركونها. ان هؤلاء الشباب يستغربون ولهم الحق أن يستغربوا، لماذا يقوم التلفزيون الذي نشترك نحن وايّاه في العقيدة الواحدة والانتماء، والقيم، والتقاليد، والعادات الواحدة، لماذا يقدّم ما يتعارض مع ذلك كلّه ويوقعهم في الحرج مع آبائهم حول الممنوعات، وغير الممنوعات؟. هذه المشكلة التي توجد في معظم البيوت التي يوجد بها شباب في الاختلاف مع آبائهم وعدم قبول توجيههم سبّبها التلفزيون بذاته، فالخلاف قبل المشاهدة، وليس بعدها،

---

(١) د. سعد عبد الرحمن. بحث التلفزيون والمشاهد وزارة الاعلام الكويتية. طبعة عام ١٩٨٠ م. ص (٦).

والمنع وان كان خوفاً من تأثير المحتويات على الشباب ـ ولكن هذه المشكلات قد نشأت بين الآباء والأبناء ـ هي من ثمار التلفزيون (الوسيلة).

وهذه المشكلة مستمرة باستمرار التلفزيون في تقديم المواد التي تخالف القيم، وهي كثيرة في مجموع ما تقدّمه محطّات التلفزيون من موّاد، خاصة المستورد منها ـ وقد يملّ الآباء من كثرة ما يحدث من خلاف بينهم وبين أبنائهم وبناتهم فيتركون للأبناء كامل الحرّية في مشاهدة ما يريدون وفي هذا من الأضرار الشيء الكثير ـ وهو متعلّق بآثار مضامين الرسائل ونترك مناقشته الى مبحث القيم السائدة في البرامج المفضّلة.

أمّا ترك الآباء لأبنائهم حرّية الاختيار في المشاهدة نتيجة لكثر المشكلات والتي قلنا أنها تشكّل خطرا على قيم الشباب من خلال المضامين الوافدة. فان الدلالات الاحصائية تبّين أن هذا هو واقع علاقة الآباء بأبنائهم، فالكثير من الآباء لا يمنع أبناءه من مشاهدة ما يريدون. ففي الدراسة التي أجريت في الكويت حول التلفزيون وطفل المدرسة المتوسّطة تبّين أن (٦٥,٨ ٪)[١] من الآباء لا يتدخّلون في مشاهدة أبنائهم لبرامج التلفزيون.

وفي بحث التلفزيون وطالب المرحلة الثانوية الذي أجري بالكويت أيضاً، تبّين أن (٧٥,٧ ٪) من الآباء لا يتدخلون في مشاهدة أبنائهم لبرامج التلفزيون[٢]. فهذه احدى المشكلات المستمرة والتي تحتاج الى دراسة شاملة وعاجلة يوضح على أساسها من الحلول ما يضمن التربية السليمة لأبنائنا ويحافظ على قيمهم بعيدا عن المؤثّرات الفكرية الوافدة، خاصة اذا أدركنا أن هؤلاء الأطفال والشباب في طور التنشئة الاجتماعية ولم ترسخ لديهم معايير مجتمعهم بعد، فقد يكون الانفتاح غير المنضبط سبب في ازالة تلك المعايير، أو دفعهم الى مشكلة الصراع القيمي وما يترتّب عليها من اهتزاز لشخصياتهم أو ذوبانها في ثقافات الآخرين.

---

(١) د. سعد عبد الرحمن. التلفزيون وطفل المدرسة المتوسّطة. مرجع سابق. ص (١٠).

(٢) التلفزيون وطالب المرحلة الثانوية. مرجع سابق ص (١٩٠).

وفي عموم العلاقة بين المشكلات ووجود التلفزيون، فهناك بعض المؤشّرات في عدد من البحوث التي تربط بين التلفزيون وارتفاع المشكلات داخل الأسرة وحدد بعض تلك المشكلات (أنه يحدّ من الحوار بين أفراد العائلة. وأنه أيضاً يكون سبباً في نشوب خلافات داخل العائلة). وأعطى لكل من هاتين المشكلتين نسباً مئوية يلاحظ عليها الانخفاض (٨,٦ ٪)، (٥,٦٦ ٪) للمشكلتين على التوالي، وهذه النسب وان كانت منخفضة الا أنها مؤشّر على وجود علاقة بين التلفزيون وبين المشكلات داخل الأسرة[١].

أمّا بحث التلفزيون والمشاهدة الذي أجراه د. سعد عبد الرحمن في الكويت، فقد حدّد طبيعة المشكلات داخل الأسرة، فذكر أن الخلاف بين أعضاء الأسرة الواحدة حول استمرار فتح التلفزيون لمشاهدة برنامج ما قد يعجب البعض، ولا يعجب البعض الآخر[٢].

ويتحدّد لنا أبرز المشكلات داخل الأسرة والتي كان التلفزيون سبباً لوجودها في ثلاث مجالات هي : ـ

١ ـ الخلاف بين الآباء والأبناء بسبب المنع من مشاهدة بعض البرامج.

٢ ـ مشكلة انشغال أفراد الأسرة عن بعضهم، وقلّة الحوار والنقاش في امور قد تكون أحياناً جزءاً من حياة الأسرة.

٣ ـ الخلاف حول استمرار الاستقبال لمادة برامجية معيّنة أو الانتقال الى غيرها خاصة اذا كان في البلد قناتان للارسال أو بالامكان استقبال عدد من المحطّات الخارجية.

وهذه المجالات الثلاثة التي ذكرتها هذه الدراسة مجالات واسعة تستغرق معظم مجالات حياة الأسرة كلها، مما يؤكّد خطورة هذه المشكلات. واذا أخذنا بعض المؤثّرات الأخرى مثل الأمّية المنتشرة بين الآباء في البلاد الاسلامية

---

(١) يوسف بن رمضان. التلفزيون وانعكاساته الثقافية في تونس. مرجع سابق. ص (١٠٥).

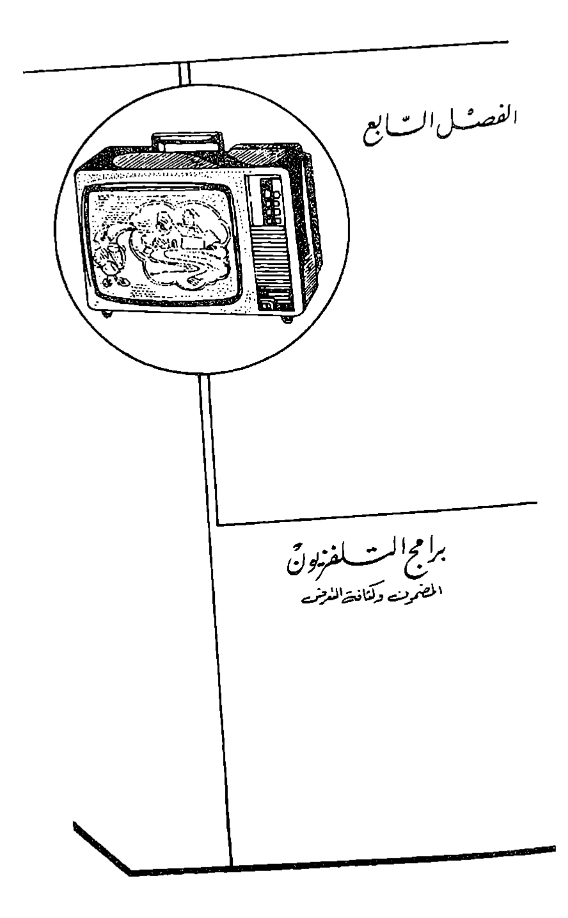
(٢) د. سعد عبد الرحمن. بحث التلفزيون والمشاهد. مرجع سابق. ص (٩).

فان ذلك يعطينا دلالة على أن أسلوب الآباء في علاج المشكلات سيكون متأثراً بهذه الأمّية، مما يجعل العلاج يطول، وربّما يؤدّي الى مضاعفات خطيرة تنعكس على سلوك الشباب العام وعلى مستواهم التحصيلي في المدارس، وربّما يصل الأمر الى الانحراف ودخول عالم الجريمة بسبب الخلافات الدائمة التي لا تعالج بأساليب تربوية رشيدة.

أمّا مجال انشغال أفراد الأسرة عن بعضهم، وقلّة الحوار والنقاش فينبغي أن نحدّد أهمية الترابط الأسري والحوار الودّي بين أفراد الأسرة حتى ندرك الأثار المترتبة على ضعف ذلك الترابط أو فقدانه (ويمكن ارجاع الكثير من مظاهر التكيّف أو عدم التكيّف التي تظهر في سلوك الأفراد وخاصّة في مرحلة المراهقة، وتؤدّي الى تحقيق نجاحهم أو فشلهم في الحياة الى نوع العلاقات الاجتماعية التي سادت بين أفراد الأسرة وأساليب المعاملة التي مرّ بها وخاصّة نوع العلاقة التى مارسها بينه وبين والديه.. فاذا كان الفرد خلال هذه الفترة يعيش في جو عائلي هاديء يسوده العطف والحنان والطمأنينة، والعلاقات الاجتماعية السليمة، استطاع أن ينمو نموا صحيحاً مستغلاً كل قدراته وامكاناته الى أقصى حد حتى يعيش بسعادة مع نفسه ومع المجتمع الذي يعش فيه).

فاذا كان التلفزيون يسبّب من المشكلات والخلاف بين أفراد الأسرة، وانشغال أفراد الأسرة عن بعضهم، فانه يحول بين الأفراد وبين تحقيق الجو الأسري الذي ينشأون فيه النشأة السليمة التي تساعدهم على حسن التكيّف مع مجتمعهم.

الفصل السابع



برامج التلفزيون

المضمون وكثافة العرض



الفصل السابع
برامج التلفزيون
(المضمون وكثافة التعرض)

يتفق علمـــاء الاجتمـاع وعلمــاء النفس الاجتمـاعي على أن الاذاعــة والتلفزيون قد غيرتا، بل قلبتا السلوك الاجتماعي للانسان رأساً على عقب[1]. فهما يرتبطان بحياة الفرد كعاملين من عوامل المشاطرة أو المشاركة الاجتماعية. وأهميتها في تاريخ البشرية لا تقل الى حد ما عن أهمية اكتشاف الذرة، ذلك أنهما يسهلان قيام الروابط بين الافراد والجماعات ويكملانها ويضاعفان منها. وتكمن قوتهما في قدرتهما على التسلـل الى البيوت فيستقبلان أينما حلا على الرحب والسعه[2].

(وهناك حقيقة أخرى بشأن تأثير سلبي معين لوسائل الاعلام، وهي أن الفرد يقضي ساعات عديدة لتتبّع هذه الوسائل، انه يستخدمها للهرب من العالم الحقيقي، ولكن الشيء المهم هو ما يجده في تلك الوسائل ومحتوياتها، وحينئذ تستطيع وسائل الاعلام أن تساعده على الهرب، لكنها تستطيع كذلك أن تؤثّر في علاقاته الاجتماعية وتجعلها أكثر تأثيراً، أنها تستطيع أن ترشده الى حياة ايجابية أو سلبية، انها تستطيع أن تحولّه عن حياته الحقيقية، ولكنها تستطيع أن تكيّفه لحياة جديدة)[3]. (ومما قال عالم الاجتماع الأمريكي جيربنر: أنه في

---

(١) تعبير الدكتور خليل صابات هذا فيه مبالغة لكنها تجد قدرة الاذاعة والتفزيون على التأثير.

(٢) د. خليل صابات. نحو منهج لدراسة الأثر الاجتماعي للاذاعة والتلفزيون. بحث منشور في مجلة الفنون الاذاعية. بغداد. العدد (٢) يناير ١٩٧٣ م. ص (١٥).

(٣) صامويل برسكا. الحاجات البشرية ووسائل الاعلام. ترجمة عادل خضير. بحث منشور في مجلة الفنون الاذاعية. بغداد. العدد (٢) يناير عام ١٩٧٣ م. ص (٥٥).

خلال عشرين سنة من حياة التلفزيون بين جماهير الأمة الغفيرة، قد استطاع أن يغيّر وجه الحياة السياسية في البلاد ويبدّل العادات اليومية لشعبنا، ويكيّف اسلوب حياة الجيل، واستطاع بين عشية وضحاها أن يجعل من الأحداث المحليّة ظواهر كونية(*))[1]. ويقول نيكولاس جونسن الرئيس السابق للجنة المواصلات الاتحادية في أمريكا: (ان كل ما نعمله وكل ما نمثّله وكل ما يشغل بالنا انّما يتأثّر بالتلفزيون)[2]. هذه النقول عن كبار الخبراء والمختصّين في مجال الاعلام والاجتماع تؤكد قوة التلفزيون التأثيرية في الفرد والمجتمع - بل وفي البناء الاجتماعي ولاشك أن التلفزيون بحكم تكوينه ومسؤوليته يهدف الى احداث هذا التأثير وأن معايير نجاحه أو فشله تقاس بمدى جدواه التأثيرية في المجتمع الذي يستقبل رسائله.

والسؤال هنا - كيف يتم هذا التأثير، وما هي المجالات التي يتحرك فيها لتحقيق أهدافه؟

(إن أفراد المجتمع الانساني هم هدف الوسيلة الاعلامية لايصال الرسالة المطلوبة اليهم، فكيف يستجيب هؤلاء الأفراد للرسالة الاعلامية؟. ان هؤلاء الأفراد يعيشون في مجتمعات ذات تركيب اجتماعي معيّن، ومؤسّسات اجتماعية مختلفة تفرض أنماطا معيّنة من أنماط الفكر والسلوك، فهي في الواقع تشكّل الأرضية الثقافية التي تتبلور فيها أخلاقيات الفرد وعاداته، وعقائده، وميوله، واتجاهاته، ورغباته، وتطلّعاته واتجاهاته النفسية وأنماطه السلوكية المختلفة. فالاسرة والبيت، والمدرسة والمؤسسة الدينية، والحي، والجيرة، وجماعات اللعب والجماعات المهنية تشكّل في الواقع المؤثّرات الثقافية التي

---

(١) ادوارد واكين. مقدّمة الى وسائل الاتصال. مرجع سابق. ص (١٠٣).

* جعل الظواهر المحلية ظواهر كونية من أقوى الدلالات على التأثير، فالظواهر السلوكية في مجتمعات الغرب تنتقل الى مختلف بلاد العالم وتصبح ظواهر كونية كما قال: وفي هذا تهديد للظواهر السلوكية المحلية المرتبطة بالقيم المحلية في كل مكان.

تشكّل شخصية الفرد)[1]. ولا شك أن هذا التكوين الثقافي للأفراد المرتبط بكل هذه المكونات، يكون له تأثيره السابق لعمل أي وسيلة، كما أن مقدار ثبات هذا التكوين الثقافي واستقراره في شخصية الفرد يكون عاملاً مؤثراً في التأثر بالرسائل إيجاباً أو سلباً، فكلّما كانت الرسائل تتفق وتنسجم مع الاطار المرجعي للمستقبل، كان تأثّره بها أكثر وبالعكس، كما أن قوة الرسالة الاعلامية من الناحية الفنية تشكّل عاملاً آخر في تحقيق الأثر المستهدف. فالرسائل الاعلامية مهما كان نوعها تحتوي على معلومات معيّنة، وهذه المعلومات تقدّم عبر وسيلة اتصال فيتلقّاها المستقبل، وبعد ادراك الرسالة من قبل المستقبل تمر بسلسلة طويلة من العمليات النفسية المتشابكة (وعن طريق المنطق الاستبدالي والاستقرائي يقوم العقل بتمحيص المعلومات التي لديه لتكوين مجموعة من الاعتقادات حول شيء أو شخص أو موقف أو سلوك معين كما أن العقل يقوم أيضا بعمليات تحليل وتنظيم للعناصر العاطفية للمدركات، ويقوم أيضاً بتخزينها وبمرور الوقت يكوّن الفرد أنماطاً أو نزعات عاطفية شبه ثابتة)[2]. فالرسائل الاعلامية يكون تأثيرها مرتبط بمدى انسجامها مع الاطار المرجعي للجمهور المستقبل لها، بالاضافة الى قوة الرسالة ذاتها ومدى تحقّق صفات الرسالة الجيّدة بها. ويبرز اسلوب العرض كعامل هام من أبرز عناصر الرسالة التلفزيونية بالذات، والذي تتحقّق من خلاله قوتها التأثيرية.

لذا فان ضعف تكوين الأفراد وضعف بنائهم الذاتي المتمثّل في عدم تعمّق مكونات ثقافتهم في شخصياتهم عامل هام يسبّب تأثّرهم بالمضامين الثقافية المختلفة عن ثقافتهم الأصيلة. وترتفع نسبة هذه الفئة - ضعاف التكوين - في الأميّين والأطفال، والمراهقين - مما يجعلهم أكثر عرضة لمجالات الغزو الثقافي عبر الرسائل التي تحمل مضامين مخالفة لثقافتهم، خاصة اذا أدركنا ان ثقافة هؤلاء المحدودة تحول بينهم وبين معرفة عناصر القوة

---

(١) د. عدنان الدوري. أثر برامج العنف والجريمة على الناشئة. مرجع سابق. ص (١٠).
(٢) د. فرج الكامل. تأثير وسائل الاتصال. مرجع سابق ص (١٥).

في ثقافتهم المحلية فيشعرون أنها لم تعد قادرة على تلبية حاجاتهم في الحياة، فيصبحون أكثر ميلاً واستعداداً للتأثر.

وإذا استطاعت الرسائل أن تعتني بهذا الجانب - جانب شعور الجمهور بأن ما لديهم قاصر عن تحقيق رغباتهم - فإنها تفتح لنفسها مجالاً واسعاً لامكانية التأثير حيث يصبح المستقبل مستعداً للتغيير لأنه شعوره بالحاجة الى أساليب جديدة يدفعه الى ذلك. والملاحظ أن المواد البرامجية الوافدة من مراكز الانتاج الغربية تتفوق في هذا المجال كثيراً، حيث خدمت من ناحية وفرة المعلومات التي سخرت لها مكانيات البحث الجيدة في الجامعات ومراكز البحوث ومؤسسات الاستشراق. وتوظف تلك المعارف الوافرة في تحديد المداخل النفسية المجدية الى جمهور المستقبلين، وتقديم المضامين الاعلامية في قوالب فنية قوية تنسجم مع المعلومات التي توفرت عن طبيعة الجمهور المستقبل مما يهيء لها مجالاً أوسع للتأثير.

وفي هذا الجزء تتناول الدراسة - كما سبقت الاشارة - موضوع الآثار المترتبة على مضامين الرسائل التلفزيونية وما تحدثه من آثار لدى المستقبل، وقد تمثل في المباحث التالية:

كثافة المشاهدة:

- خرج التلفزيون أدخل في حياة الناس ظاهرة جديدة تكاد تسيطر على الانسان في جميع مجالات حياته المختلفة، وليس ذلك في بلد دون بلد أو مكان دون آخر، ولكنه أصبح ظاهرة عالمية تجد آثارها في كل مكان. ويقول علماء الاجتماع الأمريكيون: ان عقل الشعب الأمريكي يتشكل من خلال ما يعرضه التلفزيون الأمريكي. فهم يلبسون ويأكلون ويلهون بايحاء من هذا الجهاز السحري... انه ثورة غير منظورة صبغت الحياة الأمريكية في جميع أوجهها وصورها. لقد أصبح الشخص الأمريكي مدمنا الى الشاشة الصغيرة يجلس أمامها وقتاً طويلاً من الزمن بدون أن يدرك مقدار تأثير التلفزيون على حياته وحياة أسرته ومجتمعه. ستون مليون عائلة أمريكية تمتلك جهازاً واحداً أو

أكثر، ويكاد أن يشكّل هذا العدد مجموع سكان الولايات المتحدة بأسرها. ان معدّل ما يشاهده الشخص الأميركي من برامج التلفزيون يبلغ ست ساعات يومياً وبمعدّل (٢٢٠٠) ساعة في السنة الواحدة)[١]. هذا في أمريكا كنموذج لدول الغرب وفي اليابان جاء في بحث أجراه معهد بحوث الرأى العام التابع لهيئة الاذاعة اليابانية (ان ساعات العمل للشعب الياباني قد خفّضت، اذ بلغ معدّلها الآن سبع ساعات واثنتان وثلاثون دقيقة أي أقل سبع عشرة دقيقة مما كانت عليه عند اجراء آخر استطلاع عام ١٩٧٠ م. كما زاد الاتجاه الى البقاء فترة أطول داخل المنزل والاستيقاظ متأخراً. ويجرى حالياً قضاء مزيد من وقت الفراغ بين جدران البيت، وأخذ الاقبال يخف على ممارسة ألوان النشاط خارج المنزل. وأصبحت مشاهدة التلفزيون تحتل المقام الأول عند قضاء عطلة نهاية الأسبوع. يليها الاسترخاء والراحة. وتبّين أن هذا الاتجاه نحو التوسّع في مشاهدة التلفزيون غلاب بين كل فئات السن من العاشرة فما فوق. وكذلك بين كل الفئات المهنية، ويشتد بوجه خاص أيام الآحاد، كما تقضي النساء أمام التلفزيون وقتا أطول مما يقضيه الرجال سواء في أيام الأسبوع أو في العطلات الأسبوعية)[٢]. هذا واقع كثافة المشاهدة في الدول المتقدمة، لكن ما هو واقع المشاهدة التلفزيونية في الدول النامية؟ وفي البلاد الاسلامية على وجه الخصوص؟. ان معظم الدراسات التي تمت في كثير من البلاد الاسلامية تظهر كثافة ملحوظة لمشاهد برامج التلفزيون، وأنه يسيطر على معظم فراغ الجمهور وأحياناً يؤثّر على أوقات المناشط الأخرى.

في دراسة أجريت عام ١٩٨٠ م في جمهورية مصر العربية أشرف عليها اتحاد الاذاعة والتلفزيون ظهر أن (٩٥,٤ ٪) من عيّنة البحث يشاهدون

---

(١) د. عدنان الدوري. أثر برامج العنف والجريمة على الناشئة. مرجع سابق. ص (١٠).

(٢) مشاهدة التلفزيون في اليابان. بحث أجراه معهد بحوث الرأى العام التابع لهيئة الاذاعة اليابانية ونشر في دورية الاذاعات العربية. العدد (٦٠) أكتوبر ١٩٧٤ م.

التلفزيون بانتظام مقابل (٤,٦ ٪) يشاهدونه أحياناً[١]. وجاء في دراسة أجريت في مصر أيضاً ١٩٨٣ م جاء في تقريرها (توصّلنا في هذا البحث الى حقائق وأرقام حول حجم مشاهدة التلفزيون وحيازة الأجهزة التفزيونية تعكس من الوهلة الأولى الى أن حد أصبح التلفزيون عنصراً أساسياً في حياة الجماهير. . ان حوالي سبعة وعشرون مليوناً يشاهدون التلفزيون (بالضبط ما بين ٢٦,٦٧٢,١٠٠ ، ٢٥,٨٥١,٤٢٠ نسمة، اذ بلغت نسبة مشاهدة التلفزيون (٩٥,٥٧ ٪) من عينة الدراسة موزعة بين المشاهدة المنتظمة (٨٨,٦٤ ٪) والمشاهدة أحياناً (٦,٩٣ ٪). أمّا عن حالة عدم المشاهدة والتي بلغت (٤,٤٣ ٪) فكانت أسبابها عدم وجود التلفزيون أو عدم وجود الوقت، أو تفضيل الاذاعة أو عدم الميل للتلفزيون أو أنه منعه العجز أو المرض، وهذه الأسباب الخمسة تتقاسم فيما بينها تلك النسبة الصغيرة مما يجعل نسبة كل سبب على حدة تهبط الى أقل من (١ ٪) تقريباً)[٢].

ودلّت دراسة أجريت على طلبة المرحلة الثانوية بالكويت عام ١٤٠٥ هـ، أن عدد الطلبة والطلبات الذين يشاهدون برامج التلفزيون قد بلغ (٩٧٣) طالباً وطالبة يمثّلون (٩٧,٣ ٪) من مجموع أفراد العينة الذين شملهم البحث والبالغ عددهم (١٠٠٠) فرد. ومن استعراض خصائص هذه العينة من حيث النوع والجنسية والمستوى الدراسي، وجد أن ارتفاع نسبة المشاهدة موجودة عند الجميع وبنفس المستوى تقريباً، مما يدل على أن ظاهرة الاقبال على مشاهدة التلفزيون ظاهرة واسعة الانتشار في مختلف المجتمعات ولدى جميع الفئات[٣].

وأظهرت نتائج دراسة خاصة بطلبة الجامعات المصرية شملت كل من

---

(١) بحث تقيم برامج الاذاعة والتلفزيون عام ١٩٨٠ م. اتحاد الاذاعة والتلفزيون صدر في يناير ٨١ جدول (١).

(٢) بحث تقيم برامج الاذاعة والتلفزيون. صدر في اكتوبر ٨٣ م. ص (٦).

(٣) بحث التلفزيون وطالب المرحلة الثانوية. وزارة الاعلام الكويتية. رجب ١٤٠٥ هـ. ص (١٩).

جامعة القاهرة وجامعة عين شمس وجامعة الأزهر، وجامعة طنطا وجامعة أسيوط وجامعة الأسكندرية. اتضح أن نسبة الاقبال على مشاهدة التلفزيون بلغت (٩٢,١٧٪) مقابل (٧,٨٣٪). وتشير هذه النتيجة إلى اطّراد الاقبال الجماهيري على التعرّض للاعلام التلفزيوني، حيث أثبتت دراسة أجراها د. محي الدين عبد الحليم عام ١٩٧٣ م[1]، أن نسبة مشاهدي التلفزيون كانت (٢٤ ٪) فقط من جملة أفراد العينة مما يدل على أن الذين لا يشاهدون هم في طريقهم الى المشاهدة مع الزمن عند زوال العوائق التي تحول بينهم وبين المشاهد خاصة اذا علمنا أن تلك العوائق ليست من النوع المستمر كالمعارضة المبنية على قناعات ثابتة مثلاً، لكنها تتراوح بين عدم وجود الجهاز أو عدم وجود الوقت أو التوجه الى وسيلة أخرى يراها أفضل، كما تبيّن من الدراسات التي أشرف عليها اتحاد الاذاعة والتلفزيون المصري والتي ذكرناها في بداية الحديث عن كثافة المشاهدة.

وفي دراسة تميّزت بالشمول لكافة قطاعات المجتمع تمت في الكويت عام ١٩٨٣ م[2]. ظهرت النتائج أن ٩٧٩ فرداً يمثّلون (٩٧,٩ ٪) من مجمل أفراد عينة الدراسة البالغ عددها (١٠٠٠) فرد يشاهدون في العادة برامج التلفزيون. وهذه النسبة تعد مرتفعة جداً، الأمر الذي يعني أن برامج التلفزيون تستقطب الغالبية العظمى من الكويتيين وغير الكويتيين، وفي الواقع أن مسألة كثافة المشاهد التلفزيونية أصبحت ظاهرة عالمية ليست ظاهرة محليّة توجد في مجتمع دون مجتمع.

ومن الدلالات التي تؤكّد كثافة المشاهدة ما تضمّنه بحث أجري في الكويت عام ١٩٧٤ م حيث وجه في البحث سؤال عن الأنشطة التي يفضّلون مزاولتها

---

(١) د. محي الدين عبد الحليم. الدراما التلفزيونية. دراسة ميدانية. دار الفكر العربي (١٤٠٤ هـ). ص (٦٠).

(٢) تقرير أولي حول استطلاع رأى عينة من المواطنين في بعض البرامج. وزارة الاعلام الكويتية عام ١٤٠٤ هـ.

خلال العطلة الصيفية. وقد عرض عليهم ثلاثة أنشطة هي: مشاهدة التلفزيون ـ القراءة ـ اللعب. وطلب منهم ترتيب هذه الأنشطة حسب درجة تفضيلهم لها.

وقد جاءت رتب هذه الأنشطة على النحو التالي: مشاهدة التلفزيون أولاً، ثم القراءة ثانية ثم اللعب ثالثاً.

وتظهر هذه النتائج بوضوح أن مشاهدة التلفزيون هي المنشط الرئيسي الذي يستحوذ على اهتمام الأطفال ويستنفد جزءاً كبيراً من فراغهم حيث جاء في المرتبة الأولى سواء عند الذكور أو الاناث. ويزداد تأثير التلفزيون خطورة اذا ما لاحظنا أن مشاهدة الأطفال لبرامجه تأتي على حساب المناشط الهامة الأخرى. فمنشط اللعب وبخاصة مع الأقران يعتبر شرطاً أساسياً في عملية التنشئة الاجتماعية والنفسية للأطفال وتجاهلها يعني انتقاصاً مباشراً في شروطها، ومن ثم فشلها في بلوغ غاياتها[١].

وفي دراسة أخرى أجريت على طلبة أكبر سناً، تضمّنت استمارة البحث سؤال عن كيفية قضاء وقت الفراغ عند الطلبة والطالبات ـ وقد جاء نتيجة اجاباتهم على سؤال بهذا المعنى على نحو مايلي: ـ

ـ مشاهدة التلفزيون	٨٣,٧ ٪
ـ زيارة الأقارب والأصدقاء	٧٣,٥ ٪
ـ مشاهدة أفلام الفيديو	٧٠,٦ ٪
ـ القراءة	٧٠,٢ ٪
ـ الاستماع الى أشرطة الكاسيت	٦٤,٢ ٪
ـ مزاولة هواية خاصة	٦٠,٦ ٪
ـ الاستماع الى الراديو	٣٥,١ ٪
ـ الذهاب الى النادي	٢٢,١ ٪
ـ الذهاب الى السينما	٠٦,٢ ٪

(١) تقرير حول استطلاع رأي المشاهدين في برامج الدورة التلفزيونية الصباحية عام ١٩٧٤ م. وزارة الاعلام بدولة الكويت. ص (٢٥).

وهذه الاحصائية[1]، الواضحة تبّين تقدّم مشاهدة التلفزيون على كل المناشط التي يقوم بها معظم الشباب وفيها دلالة واضحة على كثافة المشاهدة، وبالتالي الاحتمال الكبير للتأثر بقيم المادة المعروضة.

ومن العوامل التي ساعدت على تحقّق كثافة المشاهدة بالنسبة للأطفال ماجاء في الاجابة على سؤال حول ما اذا كان أولياء الأمور يمنعون أبنائهم من مشاهدة بعض البرامج التلفزيونية أم ـ لا؟ وقد أوضحت الاجابات أن: ـ

٣٤٢ طفلاً قد أجابوا بنعم، وهم يمثّلون ٣٤ ٪ من مجموع العينة البالغ عددها (١٠٠٥) طفلاً.

٦٦١ طفلاً قد أجابوا بلا، وهم يمثّلون (٦٥,٨ ٪) من مجموع العينة. ويتضح من هذه النتائج أن نسبة كبيرة نسبيّاً (٦٥,٨ ٪) من أفراد العينة لا يتدخل الآباء في مشاهدتهم للبرامج. وهذا أمر لايتفق مع ضرورات التنشئة الاجتماعية والنفسية، التي تحتم على أولياء الأمور الاشراف على سلوك الأطفال وتصرفاتهم، وتوجيه هذا السلوك نحو المسار الطبيعي الذي يتفق مع التقاليد السائدة في المجتمع. كذلك فان بعض البرامج الذي يبثها التلفزيون، تحتاج من الآباء الى اشراف أكثر، وتوضيح للأبناء الذين يشاهدون هذه البرامج حتى لا يتعرّض الأبناء الى صراع نفسي واجتماعي مردّه اختلاف القيم في هذا المجتمع عنها في المجتمعات التي أعدّت لها هذه البرامج. وربّما كانت هذه النسبة المرتفعة من الأبناء (٦٥,٨ ٪) الذين يقولون أن الآباء لا يمنعونهم من رؤية ما يحبّون من برامج في التلفزيون، ربّما كانت هذه النسبة تريد أن تطلب اشرافاً أكثر واهتماماً أبلغ من الآباء[2]. ومع هذه الكثافة الهائلة للمشاهدة وظروف الاهمال من الآباء، حيث انخفضت نسبة الاشراف على أبنائهم جاء

---

(١) بحث التلفزيون وطالب المرحلة الثانوية. وزارة الاعلام الكويتية عام ١٤٠٥هـ. ص (١٧٢).

(٢) د. سعد عبد الرحمن وآخرون. بحث حول التلفزيون وطفل المدرسة المتوسطة. وزارة الاعلام الكويتية ١٣٩٤ هـ. ص (١٠).

تأكيد الأبناء بأنهم يستفيدون من البرامج التلفزيونية، وأن الأمر ليس مجرّد مشاهدة أو قضاء وقت جاء في سؤال حول انعكاسات مشاهدة برامج التلفزيون على طلبة وطالبات المرحلة الثانوية بالكويت، فقد أوضحت النتائج أن نسبة الذين قرّروا أنهم يستفيدون من مشاهدة برامج التلفزيون قد بلغت (٩٧,٥ ٪) من مجمل الذين يشاهدونه، وهي نسبة تعد مرتفعة جدا ومؤشّرا هاما على مدى أهمية هذا الجهاز في حياة هذه الفئة من المشاهدين[١].

ومن المؤشّرات ذت الدلالة على كثافة المشاهدة بشكل عام ارتفاع معدّلات ساعات البث بشكل مستمر، ففي تلفزيون الكويت بلغ عدد ساعات البث خلال عام ١٩٦٦ م (٢٢٨٨ ساعة) ارتفعت لتصل في عام ١٩٧٠ م الى (٢٧٠٤ ساعة) وفي عام ١٩٧٥ م بلغت (٣٣١٧ ساعة) وفي عام ١٩٨٤ م وصلت ساعات البث الى (٣٩٠٧ ساعة). فهذا الارتفاع المستمر في كم ساعات البث التلفزيوني أحد مؤشّرات كثافة المشاهدة خاصة اذا لاحظنا رغبات المشاهدين التي بلغت الذروة في معظم الدراسات[٢].

البرامج الغالبة والمشاهدة:

في البحث السابق ظهر جلياً، ان مشاهدة التلفزيون أصبحت من أكثر أنشطة الانسان في هذا العصر، وأنها أثّرت على معظم مناشط حياته. وأكّدت كل الدراسات التي استعرضناها، هذه الحقيقة.

وفي هذا المبحث نستعرض واقع البرامج التلفزيونية وعلاقة جمهور المستقبلين بها، لنستدل بعد ذلك في المباحث التالية على المحتوى الذي تتضمّنه هذه البرامج ليعطينا هذا الاستعراض بعض المؤشّرات والدلالات على أنواع التأثيرات المحتملة.

---

(١) بحث التلفزيون وطالب المرحلة الثانوية. وزارة الاعلام الكويتية عام ١٤٠٥ هـ. ص (١٨٩).

(٢) نشرة الاحصاءات الاعلامية. وزارة الاعلام الكويتية. يوليو - ديسمبر عام ١٩٨٤ م. ص (٣٢).

وفي الواقع أن هذا المبحث يثير عدداً من القضايا الاعلامية الهامة حول طبيعة العلاقة بين الجمهور والرسائل الاعلامية، من حيث الواقع الفعلي لبرامج التلفزيون، والتي تعرف من دراسة احصاءات ساعات البث التلفزيوني وتوزيعها على أنواع البرامج المختلفة. وعلاقة ذلك برغبات الجمهور ومدى تمثيلها، وتوافق تلك البرامج فعلاً مع رغبات الجمهور وأي الرغبات؟ هل هي رغبات الأكثرية من الجمهور ـ أم أنها رغبات النخبة التي تعي حاجات المجتمع وتعي في نفس الوقت ما ينبغي أن يقّدم. وكذلك المسؤولية الاجتماعية التي يتحملها التلفزيون عند تقديم البرامج ـ هل هي تغليب الرغبات أو تقديم ما يفيد بأسلوب مرغوب، وهذه المعادلة الصعبة التي عجز الكثير من مسؤولي البرامج عن تحقيقها.

كل هذه القضايا تثار لأهمية التلفزيون كجامعة مفتوحة تعد من أكبر الجامعات ـ بل أكبرها اذا أخذنا سعة الانتشار وكثرة المشاهدة في الاعتبار. الاّ إن ما ينقص هذه الجامعة التلفزيونية، هو أحد دعامات العمل الجامعي السليم، ذلك هو الأقسام العلمية التي ترشد العمل وتحدّد الأهداف وتضمن ديموقراطية الرأي للوصول الى الحقائق قبل عرضها.

وعندما نعود الى تفضيل الجمهور لنبدأ به نجد ملاحظة عامة على ذلك التفضيل، وهي اختيار جميع المشاهدين المّواد التي تتناسب مع طبيعة الوسيلة بالاعتماد على الصورة والحركة والمشهد أكثر من الاعتماد على التعبير بالكلمة، وهذا أمر راجع لطبيعة الوسيلة ومدى توافق الرسالة معها، وهو من اهم ما ينبغي العناية به ومن أدلة هذا الاتجاه ما نلاحظه من تفضيل جميع الجماهير تقريباً للعمل الدرامي بغضّ النظر عن مضمونه، وما هذا التفضيل الاّ للتناسب بين طبيعة التلفزيون، وهذا النوع من البرامج ويؤكّد هذا ما جاء في دراسة أجريت في الكويت أظهرت أن (٩٧,٥٪) من مجمل الأفراد الذين

* ود. عدنان الدوري. أثر برامج العنف والجريمة الناشئة. وزارة الاعلام الكويتية عام ١٩٧٧ م. ص (٥٠).

يشاهدون التلفزيون يتابعون التمثيليات أو المسلسلات التي يقدّمها التلفزيون[1].

كما أحرزت الأعمال الدرامية بصفة عامة (الأفلام العربية والأجنبية والتسجيلية والتمثيليات العربية والأجنبية والمسلسلات العربية والأجنبية). أعلى المعدّلات من حيث الاقبال الجماهيري عليها. جاء هذا في دراسة الدكتور/ محي الدين عبد الحليم عن الدراما التلفزيونية والشباب الجامعي. ص (١١٠). وفي دراسة شاملة للمجتمع المصري مثّلت فيه جميع المناطق حضرها وريفها ومناطقها النائية ومدن القناة والوجه البحري والوجه القبلي. تبيّن أن (٨٢,٦ ٪) من الجمهور يفضّل المواد الدرامية[2].

وفي بحث أجري على قرّاء مجلة الاذاعة والتلفزيون المصرية لاستطلاع آرائهم والتعرّف على رغباتهم ومقترحاتهم، وما قد يكون لديهم من أفكار لبرامج جديدة. وقد أعدّت البحث مراقبة البحوث باتحاد الاذاعة والتلفزيون في مصر، وكان واحدا من البحوث التي طرحت للنقاش في الحلقة الدراسية التي نظمها اتحاد اذاعات الدول العربية في بغداد عن استطلاع آراء المستمعين والمشاهدين خلال الفترة من ٨ ـ ١٣ من سبتمبر ١٩٧٣. تبيّن أن أربعة برامج درامية هي الأولى من بين البرامج العشرين الأولى التي يحرص المستفتون على مشاهدتها[3].

وفي دراسة قام بها قسم العلاقات العامة في التلفزيون السوداني لقياس اتجاهات وميول الأطفال الذين يشاهدون التلفزيون في العاصمة المثلّثة عام ١٩٧٦ م. جاء أن أهم البرامج التي يعجب بها الأطفال هي المسلسلات، فالافلام فالتمثيليات.

---

(١) بحث التلفزيون وطالب المرحلة الثانوية. وزارة الاعلام الكويتية. ص (١٢٢).

(٢) بحث تقيم برامج الاذاعة والتلفزيون ١٩٨٠ م. اتحاد الاذاعة والتلفزيون المصري. الجدول (٦١).

(٣) موجز بحث استطلاع آراء الجمهور عن برامج التلفزيون المصري. نشر بدورية الاذاعات العربية. العدد (٥٢) فبراير عام ١٩٧٤ م.

وفي بحث أجرته الادارة العامة للبحوث والاحصاء باتحاد الاذاعة والتلفزيون بمصر حول آراء رجال الفكر والثقافة والاعلام في برامج التلفزيون عام ١٩٨١ م. ظهر أن المواد التي ينتظرها رجال الفكر والثقافة أكثر من غيرها على القناة الأولى هي الدراما (٩٢ ٪). فالبرامج الاعلامية (٨٠ ٪) وعلى القناة الثانية الدراما (٧٧ ٪) والدراسات السابقة كلها تؤكّد هذا الاقبال من المشاهدين على مختلف مستوياتهم العلمية والاجتماعية فأصحاب الرأي في المجتمع وطلبة الجامعة والأطفال ومختلف الفئات يظهر في آرائهم تفضيل الدراما على غيرها من أساليب العرض والمعالجة الأخرى.

واذا وصلنا الى هذه الدرجة من القناعة بأن المواد الدرامية هي المفضّلة لدى المشاهدين ولها النصيب الأكبر من ساعات البث، ننتقل الى المواد التالية لها في سلّم التفضيل لدى المشاهدين وفي عدد من الساعات التي تحصل عليها من مجمل ساعات البث.

نجد أن مواد الترفيه والتسلية والرقص والغناء تتنافس على المراكز المتقدّمة.

ومن الدراسات التي تبيّن تفضيل الجمهور للترفيه بشكل يفوق البرامج الجادّة بحث تقييم برامج التلفزيون المصري عام ١٩٨٣ م، والذي انطلق من فرضية أن المواد والبرامج التي يبثّها التلفزيون هي حجر الزاوية بالنسبة للمشاهدين ورضاهم عنها هو الرضا عن التلفزيون، لذلك سألهم وقد جاءت الاجابات على النحو التالي: -

الأفلام العربية (٩٠,٣٤). المسلسلات العربية (٨٩,٢٣ ٪)، النشرات الإخبارية والمواد السياسية (٦١,٨٤ ٪) المسرحيّات (٦٠,٨٤ ٪). الموسيقى والغناء والتابلوهات الراقصة (٥٧,٥٥ ٪). البرامج الدينية (٣١,٠٢ ٪) ويظهر من هذا تقدم الترفيه والتسلية على البرامج الدينية هذا في القناة الأولى، أمّا القناة الثانية، فانخفضت نسبة البرامج الدينية إلى (١٤,٦٨ ٪)[1]. وفي دراسة عام

(١) بحث تقييم البرامج التلفزيونية عام ١٩٨٣ م. اتحاد الإذاعة والتلفزيون المصري. ص ٢٠.

١٩٨٠ م لتقيـيم برامج الإذاعة والتلفزيون المصري جاء الترتيب كالآتي :

المواد الدرامية (٩٥,٦١ ٪). برامج إعلامية (٧٠,٩٣ ٪). موسيقى وغناء وتابلوهـات راقصة (٦٥,٨٨ ٪). بـرامج ريـاضية ومبـاريات كـرة القدم (٥٨,٢٥ ٪). والبرامج الدينية (٤٠,٨٢ ٪)[١]. فهذان البحثان يشـيران إلى تقدم برامج الترفيه والغناء والرقص على برامج الثقـافة والبنـاء، وليـس هذا بفعـل رغبات الجمهور فقط ـ بل إن نصيـباً من هذه الرغبـات يشكّل من خـلال أنواع البرامج التي تقدم، فأصبح لها تأثيرها على الرغبات.

وحتى رغبات الأطفال أصابها هذا التأثّر من خلال ما يقدم. ففي دراسة ميول الأطفال التي قام بها قسم العلاقات العـامة في التلفزيون الســوداني جاء ترتيب أهم البرامج التي يعجب بها الأطفـال المسلـسلات (٢٦,٤ ٪) الأفـلام (٢٢,٢ ٪). التمثيليات (١٧,٩ ٪). الرياضة (١٤,٤ ٪). السهرات الغنائيـة (٩,٢ ٪). البرامج الثقافية (٥,٨ ٪). وأخيراً البرامج الدينيـة (٢,٨ ٪). أما أهم البـرامج التي يشـاهدهـا الأطفال فهي الأفـلام (٩٧,٢٪). فـالتمثيليـات (٩٥,٤٪) فالمسلـسلات (٨٩,٦٪) فمعظم رغبات هؤلاء الأطفال هي التسلية والترفيه، حتى إن هذه الرغبة أثّرت على برامج الأطفال الخاصة بهم، حيث أن (٧٤,٥٪) من هؤلاء يرون الاكتفاء ببرنامج الأطفال ٣ مرات فقط في الأسـبوع، ويرى (٤٣,٨٪) من الأطفال أن تقديم برنامج الأطفال مرتين في الأسبوع كافٍ ـ علماً أن غالبيتهم يشاهدون التلفزيون يومياً ولا يمنعهم من متابعة كل البرامج إلاّ النوم أو المذاكرة (٦١,٧٪) و (٢٤,٨٪). ومع هذا لم يكن التثقيف مطلباً لهم ـ بل حتى برامجهم الخاصة ضعفت الرغبة فيهـا أمام الأفـلام والســهرات الغنائية[٢] .

---

(١) بحث تقيـيم برامج الإذاعة والتلفزيون عام ١٩٨٠ م. اتحاد الإذاعة والتلفزيون المصـري جدول (٥٦).

(٢) قياس اتجاهات وميول الأطفال الذين يشاهدون التلفزيون في العاصمة المثلثة. دراسة ميدانية قام

وإذا نظرنا إلى إجمالي ساعات البث في التلفزيون الكويتي ونسبها إلى إجمالي ساعات البث، نجد البرامج الدرامية في الترتيب الأول بنسبة (٢٦,٨ ٪). تليها البرامج الترويحية (٢٤,٢ ٪). ثم برامج الفئات (١٦ ٪). وبعدها البرامج الدينية (١٢ ٪)، ثم البرامج الإعلامية (٩,٣ ٪) تليها الثقافة (٨,١ ٪). وبعدها الإعلانات التجارية (٣,٦ ٪).

هذا في القناة الأولى، أمّا القناة الثانية فتحتل البرامج الدرامية نصف ساعات البث تقريباً (٤٩,٦ ٪) تليها البرامج الثقافية مع فارق كبير في النسبة (١٤,٥ ٪) تليها برامج الفئات (١١,٨ ٪) ثم البرامج الإعلامية (١٠,٩ ٪) بعدها الترويحية (٩,٥ ٪) وأخيراً الدينية (٣,٤ ٪). ولم يبقَ بعدها إلّا الإعلانات التجارية[1].

وهذه إحصائية أخرى لبرامج تلفزيون الكويت تمت قبل الدراسة الأخيرة بعشر سنوات تقريباً تظهر البرامج ونسبها المئوية خلال عام ١٩٧٤ م، المسلسلات والأفلام الأجنبية في المرتبة الأولى بنسبة (٢٢,٦ ٪) من مجمل ساعات البث بما مجموعه (٦٢٩) ساعة. التمثيليات والمسلسلات والمسرحيّات العربية والمحليّة (٢٠,٦ ٪) من مجمل ساعات البث بما مجموعه (٥٧٣ ساعة) البرامج المنوعة (١٧,٧ ٪) من مجمل ساعات البث بما مجموعه (٥٠٧ ساعة) والبرامج الإخبارية والإعلامية (٩,٥ ٪) من مجمل ساعات البث بما مجموعه (٢٦٧ ساعة) والبرامج الرياضية (٩ ٪) من مجمل ساعات البث بما مجموعه (٢٥٤ ساعة). والبرامج الدينية (٧ ٪) من مجمل ساعات البث بما مجموعه (١٩٧ ساعة). والبرامج الخاصة (٦,٢ ٪) من مجمل ساعات البث بما مجموعه (١٨٧ ساعة) والإعلانات التجارية (٤,٢ ٪) من مجمل ساعات البث بما مجموعه (١٢١ ساعة). وأخيراً البرامج الثقافية بعد

بها قسم العلاقات العامة بتلفزيون السودان نشر ملخصها في دورية الإعلام العربي السنة الثالثة. العدد الأول في رمضان عام ١٤٠٣ هـ.

(١) نشر الإحصاءات الإعلامية يوليو ـ ديسمبر ١٩٨٣ وزارة الإعلام الكويتية. الجداول (١٨، ١٩).

الإعلانات التجارية بنسبة (٣,٦ ٪) من مجمل ساعات البث بما مجموعه (١٠٠ ساعة) فقط خلال السنة كلها[١]. فهذا واقع البرامج الذي استمر هذه السنوات الطوال وهو يتبادل التأثير مع رغبات المشاهدين كل منهما يؤثّر في الآخر إلى أن أصبح الفارق بين رغبات الجمهور وأذواقهم والمواد المقدَّمة لهم يتقارب. فالمعايير التي يقبل الجمهور من خلالها أو يرفض هي تقريباً من تأثيرات البرامج، حيث تشكّل ذوق الجمهور ومعاييره على المدى الطويل. وأصبح يقيس الجديد ويقوّمه على ضوء معلوماته التي اكتسبها عبر البرامج السابقة، فأصبح رصيد الخبرات السابقة هو معيار القبول والرفض للبرامج الجديدة.

وليس هذا بالطبع هو ذوق ورغبة جميع المشاهدين، ولو قلنا هذا لكان ظلماً لفئات من الجماهير تطالب بالعناية بثقافة الأمة وحمايتها من البرامج الرديئة، وهذا نسمعه ونقرأ عنه كثيراً في وسائل الإعلام المختلفة.

وجاء في نتائج بعض الدراسات والأبحاث التي تتوجّه إلى هذه الفئات أو تحرص عند تحديد العينة شمول فئة المثقّفين وقادة الرأي، فإنها تصل إلى مثل هذه النتائج.

ففي دراسة كويتية[٢]، اختيرت عينتها لتمثّل نوعاً ما فئة القياديين والمثقّفين وذوي الرأي وأصحاب الاهتمامات المختلفة بهدف التوصل إلى خلاصة آرائهم حول مشروع استحداث القناة التلفزيونية الثانية.

جاء في نتائج تلك الدراسة ما يختلف عن ذوق عامة الجمهور ويختلف عن طبيعة البرامج التي تقدّم غالباً من المحطات.

---

(١) د. عدنان الدوري. مرجع سابق. ص (٣٤).

(٢) د. يحيى حداد. دراسة استطلاعية حول آراء بعض فئات المواطنين في إنشاء قناة ثانية للتلفزيون. . وزارة الاعلام الكويتية عام ١٣٩٩ هـ ص (٩).

في رغبات هذه الفئة ظهر الميل إلى تقليل ساعات البث اليومي فنسبة الذين يقترحون أن تكون مدة الإرسال (من ٣ ـ ٤ ساعات) جاءت في المرتبة الأولى إذ بلغت (٣٢,٨ ٪) من مجمل أفراد المجموعة.

وفي تفضيل البرامج جاء اختيار البرامج المحلية في المرتبة الأولى أيضاً وجاءت البرامج الثلاثة التي تفضل هذه الفئة أن تشتمل عليها البرامج :

أولاً : ندوات ومناقشات تحليلية .
ثانياً : موضوعات علمية متخصصة.
ثالثاً : أفلام وثائقية .

فهذا الميل إلى تقليل ساعات البث، واختيار البرامج المحلية وتفضيلها على البرامج الوافدة. ووضع هذه البرامج الثلاثة التي تدل على عناية بجانب بناء الإنسان وتقديم ما يفيده ويفيد مجتمعه، وهذه الآراء لم نجدها في معظم بحوث قياس الرأي العام للمشاهدين، كما أن ما تقدمه المحطّات يخالف هذا التوجه.

لكن ما يحزّ في النفس أن مثل هذه الاقتراحات البناءة في مجال التلفزيون لا تجد الآذان الصاغية لها ولا الأيدي القوية الأمينة القادرة على تنفيذها، وحتى الدراسات الخاصة بالأطفال يأتي فيها من الدلالات ما يشير إلى أن ما يقال إنه ذوق الجماهير، أو ما يقدّم على أنه يتفق مع رغبات الجمهور ليس بالضرورة يتفق مع الواقع.

في البحث الذي أجري في الكويت حول التلفزيون وطفل المدرسة المتوسطة سئل الأطفال عن الأشياء التي استفادوها من مشاهدة برامج التلفزيون وكانت الإجابة أن:

٧٧٤ طفلاً يرون أن التلفزيون قد ساعد على إنماء معلوماتهم العامة. وهؤلاء يمثّلون (٧٧ ٪) من مجمل أفراد العينة البالغ عددها (١٠٠٥) طفلاً.

٦٢٨ طفلاً يرون أن التلفزيون قد ساهم في زيادة معلوماتهم الدينية، وهم يمثّلون (٦٢,٥ ٪) من مجمل أفراد العينة.

٤٣٩ طفلاً يرون أن التلفزيون قد ساهم في تقوية اللغة الأجنبية لديهم وهم يمثّلون (٤٣,٧ ٪) من مجموع العينة.

٢٤٩ طفلاً يرون أن التلفزيون قد ساهم في اكتساب هوايات جديدة. وهؤلاء يمثّلون (٢٤,٨ ٪) من مجمل أفراد العينة[١].

فهذه الإجابات تبيّن بوضوح حاجات قائمة في نفوس هؤلاء الأطفال وهي تحدّد بشكل ما رغباتهم حيث حقّقوا تلك الفوائد من التلفزيون بالرغم من أن كل هذه الفوائد ليست من اهتمامات التلفزيون الأولى، وإنّما تخدم بشكل غير رئيسي ومن خلال فقرات وبرامج لا تأتي في أعلى سلم البرامج. كما تشير هذه الإجابة إلى عدم مقدرة هؤلاء الأطفال تحديد فوائد حقيقية ذات قيمة تذكر من معظم البرامج التي يقدمها التلفزيون ويهتم بها كثيراً، وإنّما الإجابة من خلال هذه البرامج التي تلبّي حاجات حقيقية لديهم.

وفي الدراسة الميدانية التي قام بها د. محيي الدين عبد الحليم[٢]. في نطاق طلبة الجامعات المصرية، ظهر كثير من الآراء الإيجابية الراغبة في الالتزام ببرامج التلفزيون بما يفيد الفرد والمجتمع فائدة حقيقية، ولم تخضع في تصوّراتها لمجرد رغبات الجماهير.

ففي هذه الدراسة كشف البحث عن أن البرامج الدينية جاءت على رأس البرامج والفقرات التي تقدمها الشاشة الصغيرة وأحرزت هذه البرامج أعلى معدّلات الإقبال الجماهيري (في نطاق العينة المذكورة) وهذا يدل على أن هذا النوع من البرامج يمثّل حاجة حقيقية للطالب الجامعي وهو ما دفعه إلى اعتبارها التفضيل الأول، مع أن التلفزيون في واقع برامجه لا يعاملها كذلك فهي لا تنال

---

(١) د. سعد عبد الرحمن وآخرون. بحث حول التلفزيون وطفل المدرسة المتوسطة. وزارة الاعلام الكويتية عام ١٣٩٤ هـ. ص ١٢.

(٢) الدراما التلفزيونية. مرجع سابق. ص ٩٥.

النصيب الأكبر من ساعات البث وفي هذا دلالة على أن البرامج التي تقدم من المحطّات لم تشبع رغبات هذه الفئة من الشباب.

وهذا يدفعنا إلى القول بأن برامج التلفزيون ينبغي أن تعمل على إشباع «حاجات الجمهور» ولكن ما هي الحاجات المطلوب إشباعها، وكيف يتم التعرّف عليها؟ وهل استفتاءات الرأي العام في أنواع البرامج المفضّلة هو الطريق الموصل إلى ذلك فقط؟ وهل هذا الأسلوب قادر فعلاً على الوصول إلى معرفة حاجات جمهور المستقبلين؟.

إنَّ الدراسات السابقة تؤكّد أن هناك فرق بين حاجات الجمهور ورغباتهم، وأنه ليس بالضرورة أن تتفقا ، فقد تمثّل رغبات الجمهور حاجاتهم وقد لا تمثّلها. فهل يستطيع باحث مهما كان مستواه أن يدعي أن اتجاهات الرأي العام المصري، والتي تجعل الموسيقى والغناء والتابلوهات الراقصة في درجة تسبق البرامج الدينية والثقافية، تمثّل حاجات الجمهور المصري الحقيقية؟ أقول بكل تأكيد لا ـ لكن قد نفهم من هذا التفضيل أن الجمهور يحتاج إلى الترفيه، وأن الترفيه حاجة حقيقية له، لكن أساليب إشباعها بهذا اللون من البرامج (الموسيقى، والغناء، والتابلوهات الراقصة) جعل الترفيه يرتبط في أذهان الجمهور بهذا اللون ويطالب به في الاستفتاءات وهو لا يمثّل حاجاته الحقيقية، لأن الدراسات التي توجهت إلى الجمهور بأسلوب آخر أظهرت بعض تلك الحاجات، فهذه دراسة د. محيي الدين عبد الحليم السابقة أكّدت ذلك، وكذلك دراسة أجريت في محافظات الفيوم، وبني سويف، والمنيا، وأسيوط. وجاءت فيها البرامج الدينية على رأس البرامج المفضلة في التلفزيون فأحرز برنامج العلم والإيمان وحده (٤٦,٢٨ ٪)، من أفراد العينة، وأحرزت أحاديث الشيخ الشعراوي (٤٥,٥٨ ٪)[١].

(١) أغلب الدراسات التي بحثت اتجاهات الرأي العام يظهر فيها تأخر البرامج الدينية في تفضيل الجمهور، كما أن ساعات البث المخصصة للبرامج الدينية قليلة، الأمر الذي جعل رغبات الجمهور تتأثر بذلك وإلا فالبرامج الدينية تتفق مع حاجات الجمهور في البلاد الإسلامية كما جاء في هذه الدراسة.

فهذه طبيعة الجمهور وحاجاته الحقيقية تظهر في هذه الدراسة وفي سابقتها. ومن الحقائق الثابتة أن رغبات الجمهور تتأثر بألوان البرامج التي تقدّم، مما جعل ذوق الجمهور وتفضيله يصنع على المدى الطويل، فلا يرغب إلاّ ما تعوّد على مشاهدته باستمرار.

ومما يؤكّد هذا أن درجة رضا المشاهدين عن برامج التلفزيون تتناسب مع الأميّة، وضعف الثقافة تناسباً طردياً، فكلّما ارتفعت نسبة الأميّة حصل التأثر بوجهة نظر القائمين على الأجهزة، وزادت نسبة الرضا عن البرامج المقدّمة. وعلى العكس من ذلك كلّما ارتفع الوعي والمستوى الثقافي والعلمي لدى الجمهور قلّ التقبّل للمستويات الرديئة من البرامج وزاد النقد والتقويم، ففي بحث تقيم البرامج في التلفزيون المصري عام ١٩٨٣ م، وفي السؤال عن مدى الرضا عن مايقدّمه التلفزيون من برامج وفقرات ـ أجاب حوالي ثلاثة أرباع العينة (٧٣,٣٢ ٪)، بأنهم راضون تماماً. على حين ذكر (٢٤,٦٨ ٪)، بأنهم راضون إلى حدٍّ ما. بينما ذكرت النسبة الباقية (٢ ٪) بأنهم غير راضين عن ما يقدمه التلفزيون من برامج وفقرات. ويلاحظ أن هذه النسبة الأخيرة ارتفعت بين الشخصيات العامة إلى (١١ ٪). كما لوحظ في هذا البحث أن معدّل الرضا يرتفع بين سكان الريف إلى (٩١ ٪) بينما ينقص بين ذوي المؤهلات العليا إلى (٥٤ ٪)[١]. والدلالة هنا واضحة. فمسؤولية التلفزيون ودوره الكبير الذي ينبغي أن يقوم به في المساهمة الإيجابية، في البناء الاجتماعي توجب عليه، أن يتعامل مع رغبات وحاجات الجمهور، بأسلوب يتناسب مع حجم تلك المسؤولية، فمن الواضح أن ما يسمّى برغبات الجماهير لا تمثّل رغباتهم بشكل صحيح، ثم لو كانت تمثّل الرغبات ـ فإن الأسلوب الذي جمعت فيه ليس فيه من الدقة والجدّية ما يجعل الجماهير تتفاعل معه بالأهمية المطلوبة والتي توصل إلى إعطاء الآراء الجادّة. ثم ارتفاع نسبة الأميّة والجهل تجعل حشد الأصوات من هذه الفئات غير كافية لاعتبارها آراء للأمة، فهل نحن نريد من التلفزيون أن

(١) بحث تقيم برامج التلفزيون عام ١٩٨٣ م. اتحاد الإذاعة والتلفزيون المصري. ص (١٩).

يقدّم للأميّين ما يرضيهم فقط ؟ إن ما يرضيهم يتناسب مع فكرهم المحدود وطموحاتهم لن تتجاوز إمكانياتهم كثيراً .

لذا فإن أخذ آراء النخبة من المثقّفين وعرضها على لجان علمية والتقريب بينها وبين الأهداف والغايات التي تطمح الأمة إلى تحقيقها، والخروج من ذلك بأهداف محدّدة تعتبر برنامج عمل لمعدّي البرامج ، ومن ثم بذل كل الجهد من الناحية الفنية لتحقيق تلك الأهداف بأسلوب فني رفيع يتناسب مع رغبات الجمهور مع بذل الجهد الدائم للارتقاء بالذوق العام ورفع الرغبات لدى الجمهور إلى معالي الأمور والأهداف الجادة البنّاءة والاستمرار على ذلك سوف يحدث ولا شك تغيّراً جذرياً في الذوق والرغبة التي تعتبر الآن ملوثة بما قدم لها من إنتاج هابط على مدى السنوات الماضية من عمر تلفزيونات العالم الثالث والبلاد الإسلامية على وجه الخصوص.

أقل البرامج مشاهدة :

لن نحتاج في هذه الجزئية من البحث أن نستعرض الدراسات والبحوث الكثيرة التي استهدفت معرفة آراء المشاهدين في البرامج ولن نحتاج أيضاً إلى التعرّف على نسب توزيع ساعات البث على البرامج التي تقدّمها محطّات التلفزيون، وذلك لأن الاستعراض السابق لتلك الدراسات والمقارنات التي تمت بين بعض الإحصائيات أظهر لنا جليّاً تفوّق برامج معيّنة، وحصولها على الدرجات المتقدمة في ترتيب رغبات الجمهور من ناحية، وتغطيتها لمعظم ساعات البث التلفزيوني من ناحية أخرى، مما يفيد أن بقية البرامج الأخرى تأتي في مراتب تالية في سلّم الاهتمام، فما هي هذه البرامج التي تأتي في المراتب المتأخّرة ؟ .

إنّ معرفة تلك البرامج يعطي دلالة واضحة أن فرص العرض أمام هذه النوعية من البرامج ستكون محدودة، وبشكل أدق، إن مدة عرضها سوف تتناسب مع نصيبها المتدنّي من ساعات البث، وإذا أضيفت إلى هذا، قلّة اقبال

الجمهور على مشاهدتها حتى لو عرضت، تبيّن لنا بوضوح ضعف فرص مشاهدتها، وبالتالي ضعف تأثيرها.

ظهر من استعراض الدراسات في بداية هذا المبحث أن الأفلام، والمسلسلات، والمسرحيات، تحتل مقدمة التفضيل[1] تليها المواد الإخبارية، والسياسية، والمواد الترفيهية من موسيقى وغناء ورقص، مع تفاوت بين هذه المواد في نسب التفضيل لكنها جميعاً تحتل الصدارة في سلّم التفضيل في غالب الدراسات ثم تليها كرة القدم والألعاب الأخرى. هذه هي المواد الأكثر تفضيلاً كما تظهر أبحاث المشاهدين، وهي المواد التي تغطّي ساعات البث بشكل أكبر.

فما هي بقية المواد ؟

يبقى من المواد البرامجية التي اعتادت محطّات التلفزيون على تقديمها: البرامج الثقافية، والبرامج الدينية، والبرامج الخاصة. وهي التي تأتي في مؤخرة البرامج من حيث اهتمام المشاهد أو من حيث الزمن الذي تحوز عليه في ساعات البث ولإيضاح ذلك نعقد بعض المقارنات المبسّطة بين بعض البرامج من حيث نسبة المشاهدين لها، لنرى الفوارق الإحصائية في تلك النسب. وسوف نلتزم في هذه المقارنة بأخذ البرنامجين موضوع المقارنة من محطة واحدة حتى لا تكون العوامل الأخرى ذات تأثير في ارتفاع النسب أو انخفاضها، مما يجعل الدلالات مضلّلة في نتائجها.

في دراسة استطلاعية في بعض برامج تلفزيون الكويت شملت برامج منوعات، وبرامج خاصة وعدد من البرامج الأخرى نأخذ برنامجاً منوعاً لنقارن نسبة مشاهدته مع برنامج من البرامج الخاصة، بالشباب وكانت النتيجة كالآتي : برنامج «فوازير سمير غانم » يشاهده (٨٠,٤) من مجمل الذين يشاهدون برامج التلفزيون على القناة الأولى.

---

(١) انظر الصفحات من (٢٥٨) إلى ٢٦٦ من هذه الدراسة.

أمّا برنامج «الشباب يقول» فأظهرت النتائج أن نسبة الذين يشاهدون هذا البرنامج بصفة عامة قد بلغت (٣١,٧ ٪) من مجمل الذين يشاهدون برامج التلفزيون على نفس القناة. والفارق بين النسبتين واضح الدلالة على الاهتمام بذلك النوع من البرامج دون النوع الآخر.

وممّا يؤكّد هذا الفارق في نسبة الحرص على المتابعة أن برنامج «فوازير سمير غانم» يحرص على متابعته (٨٤,٩ ٪) من جملة الذين يشاهدونه، بينما لا يحرص على برنامج الشباب سوى (٦٥ ٪) من جملة الذين يشاهدونه وهي نسبة منخفضة أصلاً[1].

وفي دراسة أخرى خاصة بالشباب في المرحلة الثانوية ـ بخلاف الدراسة السابقة والتي كانت شاملة لجميع فئات المواطنين ـ نقارن بين برنامج منوعات وأحد البرامج الدينية. وهذان البرنامجان يشتركان في كافة الظروف والعوامل ذات العلاقة بارتفاع أو انخفاض النسبة، وقد ظهرت النتائج أن البرنامج المنوع حصل على (٨١,٩ ٪) من مجمل الذين يشاهدون برامج التلفزيون، بينما أن نسبة الذين يشاهدون البرنامج الديني بلغت (٥٤,٧ ٪) من مجمل الذين يشاهدون برامج التلفزيون، مع أن هذا البرنامج الديني الذي أخذناه للمقارنة كان أفضل البرامج لدى المشاهدين وجاء تصنيفه في الترتيب الأول، مما يظهر انخفاض نسبة مشاهدي البرامج الدينية، كما ظهر قبل انخفاض البرامج الخاصة[2].

ومن نفس الدراسة نقارن بين برنامجين أحدهما ثقافي والآخر من برامج المنوعات. والبرنامجان يبثّان على القناة الثانية الكويتية.

وأوضحت النتائج أن البرنامج الثقافي «نحو المستقبل» نسبة مشاهدته

---

(١) تقرير أولي حول استطلاع رأي عينة من المواطنين في بعض البرامج الإذاعية والتلفزيونية. دورة اكتوبر ـ ديسمبر ١٩٨٣ م وزارة الاعلام الكويتية عام ١٤٠٤ هـ. ص ٧ ـ ١١.

(٢) بحث التلفزيون وطالب المرحلة الثانوية. مرجع سابق ص ٥٠ ـ ٥٩.

بلغت (٤٣,٢ ٪) من مجموع مشاهدي برامج التلفزيون، بينما حقّق البرنامج المنوع «صدّق أو لا تصدّق» نسبة مشاهدة بلغت (٩٢,٧ ٪) من مجمل الذين يشاهدون التلفزيون. والفارق النسبي كبير جداً مما يدل على قلّة مشاهدي البرامج الثقافية مقارنة ببرامج المنوعات[١].

وفي بحث أجري على قراء مجلة الإذاعة والتلفزيون المصرية تبيّن أن برنامج «نور على نور» يأتي في الترتيب الثامن عشر بعد سبعة عشر برنامجاً من مختلف الأنواع، علماً أن هذا البرنامج كما جاء في نفس البحث، قد اجتذب أعداداً كبيرة من المشاهدين لأسباب منها تخيّر موضوعاته الدينية التي تتّصل بحياتنا الاجتماعية، وتوضيح حكم الدين في قضايا متنوعة، إلى جانب مهارة العرض وإسهام شخصيات لها مكانتها الدينية في الحلقات. وقد يكون من الأسباب أيضاً ثبات البرنامج على مدى طويل ومناسبة موعد تقديمه للجمهور[٢]. ومع كل هذه الخصائص الإيجابية التي اتّصف بها البرنامج لم يستطع تجاوز الترتيب الثامن عشر بين عشرين برنامجاً دخلت هذا الاستفتاء. أمّا البرامج الأربعة الأول فهي برامج تعرض في شكل درامي وهذا يؤكّد ما ذهبنا إليه من أن البرامج الدرامية تحتل صدارة التفضيل. أمّا بقية البرامج الباقية من الخامس حتى السابع عشر، فهي من مختلف أنواع البرامج الترفيهية والإخبارية والرياضية، إلاّ أنه ليس من بينها برنامجاً دينيّاً واحداً.

ونستطيع الآن بعد استعراض هذه الدراسات القول إن الدلالة قوية على تفضيل أنواعاً معينة من البرامج وإن نسب نصيبها تتفوق دائماً على غيرها من بقية البرامج، وإن تلك البرامج التي يقلّ تفضيلها تحافظ على نسبها المتدنيّة في الكثير الغالب.

---

(١) المرجع السابق. ص (٨١ - ٩١).

(٢) موجز بحث استطلاع آراء الجمهور عن برامج التلفزيون المصري. بحث منشور في دورية الإذاعات العربية. العدد ٥٢ فبراير عام ١٩٧٤ م. ص ٦٦ - ٦٧.

ولتحديد ملامح هذه المجموعات من البرامج نضع هـذه القائمـة التي تحدد فيها مـراتب التفضيل حسب مـا ظهر من الـدراسات التي سبق تحليلهـا ومقارنة أرقامها.

أولاً : البرامج الدرامية ـ وتشمل المسلسلات والأفلام، والمسرحيّات .

ثانياً : بـرامج الـترفيه والتسليـة ـ وتشمل بـرامج المنوعـات، والأغـاني، والموسيقى، والرقص، وكذلك برامج الرياضة .

ثالثاً : البرامج الثقافية والدينية وبرامج الفئات مثل (برامج المرأة والشباب والخدمات).

هذه القائمة لا تمثّل كل البرامج التي تعرض في محطات التلفزيـون، لكنها أغلب ما يقدّم فهي صلب البرامج لدى المشـاهد أو القـائم بالاتصـال، وسنقصر دراساتنا في المباحث التالية على هذه القائمة لاختصارها وشمولها.

وقد يلاحظ على قـائمتنا هـذه عدم ذكـرها للبـرامج الإخبـارية والمـواد السياسية، والواقع أننا تعمّدنا ترك هذا الجزء الهام من البرامج للاختلاف الكبير بين محطات التلفزيون في تغطية هذا الجـانب للتفاوت بينهـا من حيث القدرة على الوصول إلى الخبر وأساليب عرضه، ومن حيث تـوجّهاتهـا السيـاسيـة مما يجعل التفاوت تابعاً لهذه العوامل، وليس مرتبطاً فقط بطبيعة المواد الإخبـارية ذاتها.

القيم السائدة في البرامج المفضّلة :

في مبحث أكثر البرامج مشاهدة تبيّن لنا أن معظم الدراسات التي تناولت علاقة المشاهد بالتلفزيون، أو هياكل البرامج في محطات الإرسال تثبت تفوق الدراما التلفزيونية على كافة الأنواع الأخرى من البرامج. وفي هذا الجـزء من المبحث نتناول الدراما بالدراسة من حيث مصادرها وأكثر مراكز إنتاجها مع بيان خصائص الدراما الأجنبية والدراما المحلية، وعلاقة ذلك بقدرة كل منهما على التأثير في الجمهور، ونعرض أيضاً القيم السـائدة في الدراما الوافدة والمحلية.

١ ـ مراكز إنتاج الدراما عالمياً، والمصادر التي تفد منها إلى البلاد النامية والبلاد الإسلامية بشكل خاص :

جاء في رسالة علمية تقدّم بها الباحث: حسن عماد عبد المنعم ـ لكلية الإعلام بجامعة القاهرة عام ١٩٧٩ م للحصول على درجة الماجستير ما يلي :

(تستورد السينما المصرية حوالي (٨٤ ٪) من الأفلام التي تعرضها خلال فترة الدراسة، والتلفزيون (٤١ ٪) من مواده أجنبية تقريباً سنوياً، وتفوق نسبة الأفلام المستوردة من أمريكا الأفلام المستوردة من أي دولة أخرى، حيث تبلغ خلال فترة التحليل في السينما (٥٧,٨ ٪) وفي التلفزيون (٥٦,٩ ٪)[١].

وفي المغرب (يسيطر الإنتاج الأجنبي على المادة الإعلامية السينمائية، ويبرز من خلال تحليل جنسيات الأفلام المعروضة من عام ١٩٧٠ م إلى ١٩٨٠ م سيطرة الإنتاج الأميركي والفرنسي والإيطالي، وتتّسم الواردات من الأفلام بعدم الاستقرار من حيث جنسيات الأفلام المعروضة، وتساهم فرنسا بنسبة تزيد عن الثلث، باستثناء عام ١٩٧٠ م حيث كانت المساهمة الفرنسية (٢٣,٢٨ ٪) وعام ١٩٦٩ م حيث بلغت (٢٥,٤ ٪)، فإنها في السنوات الأخرى الباقية تراوحت بين (٣١ ٪) و(٤٩ ٪)، وفي نهاية البحث يقول الأستاذ/ أحمد تفاسكا ـ الأستاذ المساعد بالمعهد العالي للصحافة بالرباط : غياب أو ضعف المساهمة في الرسالة المنقولة على الشاشة الكبيرة أو الصغيرة يجعلنا نتساءل إن كان من الجائز تصنيف قاعات السينما في المغرب ضمن أجهزة الإعلام الوطنية. أو أنها لا تعدو أن تكون قنوات مغربية لأداة إعلامية أجنبية)[٢].

---

(١) تدفُّق الأفلام الأجنبية في السينما والتلفزيون في جمهورية مصر العربية. ملخص الرسالة منشور في دورية الإعلام العربي. تونس المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ إدارة الإعلام. العدد الأول. السنة الثالثة ـ رمضان عام ١٤٠٣ هـ.

(٢) واقع وسائل الأعلام الجماهيرية في المغرب. بحث منشور في مجلة الدراسات الإعلامية بدمشق. العدد ٣٠ ـ ٣١ سبتمبر ٨٣ م ص ٢١ ـ ٢٧.

وفي دراسة مصرية خاصة بالتلفزيون وحده تميّزت بالدقة حيث التزمت بحصر كل البرامج الأجنبية الواردة إلى التلفزيون المصري، وتحليل عينة منها مع استبعاد الحلقات المكرّرة والمكونة لفقرات بعض البرامج. تبيّن أن ساعات البرامج الواردة في الفترة من: ١٩٧٠ - ١٩٨٠ م بلغت (٥٧٣٢,١٧) ساعة قبل منها (٣٥,٨٠ ٪) وأهم الدول الواردة منها هي الولايات المتحدة (٧٧,٩٢ ٪) وألمانيا الاتحادية (١١,٢ ٪) والمملكة المتحدة (٧,٩٨٪). كما ظهر أن نسبة المسلسلات الأجنبية المذاعة على البرنامج الثاني أعلى منها على البرنامج الأول خلال شهور الدراسة (٦٨,٢٨ ٪) و (٣١,٧٢ ٪)[1].

وفي الكويت قام د. عدنان الدوري بدراسة نظرية لمحاولة معرفة أثر برنامج العنف والجريمة على الناشئة، وذكر من الصعوبات التي اعترضت بحثه كما يقول (افتقار مكتبة التلفزيون إلى دليل منسق لمحتوى الأفلام والمسلسلات التلفزيونية التي ترد إلى إدارة التلفزيون بنسبة كبيرة. وعلى سبيل المثال فقد ورد إلى مكتبة التلفزيون خلال عام ١٩٧٣ (٤٥) فيلماً عربياً و (٥٣) فيلماً أجنبياً من أفلام السهرة الطويلة و (١٩) مسلسلاً أجنبياً بلغت حلقاته (٢٨٤) حلقة و (١٠٨٥) من أفلام الرسوم المتحركة (الكارتون) و (٢٠٠) فيلماً من أفلام الأطفال القصيرة. وفي عام ١٩٧٤ ورد إلى هذه المكتبة (٢٦٢) فيلماً من أفلام الكارتون و (٣٧٧) حلقة من المسلسلات الأجنبية وفي عام ١٩٧٥ ورد إلى المكتبة (١٣٢) فيلماً طويلاً من أفلام السهرة و (٤٨٧) حلقة من المسلسلات الأجنبية و (٤٦٤) فيلماً من أفلام الكارتون وأفلام الأطفال.. وبعد هذا « المثال » كما يقول الدكتور الدوري يورد قوائم طويلة مفصّلة بمسلسلات وأفلام تصيب بالرعب بمجرد قراءتها من بينها مثلاً (١٢٦) مسلسلاً أجنبياً بمجموع (١٧٧٧) حلقة[2]. وهذا الكم الهائل من البرامج الأجنبية يرد إلى

---

(١) عدلي محمد رضا. تدفق البرامج من الخارج في تلفزيون جمهورية مصر العربية. رسالة ماجستير مقدمة لكلية الإعلام بجامعة القاهرة ١٩٧٩ م. نشر ملخص لها في دورية الإعلام العربي السنة الثالثة العدد ١ رمضان ١٤٠٣ هـ.

(٢) د. عدنان الدوري. أثر برامج العنف والجريمة على الناشئة. مرجع سابق. ص ٣٧.

مصر والكويت وهما كما سبقت الإشارة إلى مصر من أكثر بلدان المنطقة إنتاجاً للمواد البرامجية: فما هو حال الدول التي ليس لديها إنتاج ؟

والنقطة الثانية تتعلق بضعف الجوانب الفنية في الإنتاج المحلي.

وهذه النقطة جديرة بالعناية لما يترتّب عليها من آثار بعيدة، فهي أحد عوامل ما ذكر في النقطة الأولى، كما أنها أحد الأسباب المباشرة لأعراض جماهير المشاهدين عن البرامج المحلية، وهي أيضاً عامل رئيسي في تدنّي مستويات التأثر بالقيم المحلية، حيث أنها تقدِّم للمشاهدين عبر هذا الإنتاج المتواضع من الناحية الفنية فيقلّ تأثيره وهذا من أخطر الأمور التي تهدّد الثقافات المحلية في البلدان النامية بشكل عام والبلاد الإسلامية بشكل خاص في مكونات ثقافتها من عقيدة وأخلاق وسلوك وقيم وتقاليد.

فقد جاء في دراسة لاتجاهات الرأي العام في التلفزيون الأردني أن حوالي (٦٧ ٪) من المبحوثين أبدوا عدم رضاهم عن مبدأ زيادة إنتاج وبث البرامج المحلية إذا ظلّت على مستواها الحالي الذي كان يفترض أنه ضعيف. كما أن (٨٦ ٪) من المبحوثين قد وافقوا على مبدأ بث البرامج المستوردة إذا لم تتوفّر برامج محلية جيّدة، ويؤلف ذوو فئات الأعمار من (٢٦ ـ ٤٥ سنة) نسبة ٦٤,٧١ ٪ من هذه المجموعة، كما يؤلف ذوو الثقافة الجامعية والعالية نسبة تزيد على (٥٤ ٪)[(١)].

فهذا المؤشر خطير الدلالة: عندما نلاحظ أن غالبية المثقفين في عينة البحث يتوجهون إلى البرامج الأجنبية بسبب ضعف البرامج المحلية مما يجعل النهوض بمستوى الإنتاج المحلي من حيث الكم والمستوى الرفيع أمراً غير قابل للتأجيل لما يترتّب على ذلك التأجيل من مخاطر تهدد الأمة في مكوناتها الثقافية.

---

(١) اتجاهات الرأي العام في التلفزيون الأردني. قسم الدراسات والأبحاث بالتلفزيون الأردني. بحث منشور في دورية الإذاعات العربية. العدد ٦٠ اكتوبر ١٩٧٤ ص ٤٦.

وإذا تجاوزنا برامج الكبار لننظر إلى نوعية من آراء بعض الصغار والعلاقة بين رغباتهم والمستوى الفني للبرامج، نجد برنامجاً أعدّ خصّيصاً للأطفال في تلفزيون الكويت[1]، لوحظ أن نسبة الإعجاب به كانت منخفضة قياساً بالبرامج الأخرى والسبب في ذلك هو ضعف مستوى الإنتاج من الناحية الفنية. والواقع أن ضعف الإنتاج المحلي من الناحية الفنية يعتبر من أكبر مشكلات الإعلام إن لم يكن أكبرها، لما يترتب على هذا من انصراف الجمهور عن الإنتاج المحلي إلى البديل الجاهز «الإنتاج الوافد» مما يشكّل خطراً على الثقافة المحلية ويهدّد محتوياتها.

وأهم خصائص الإنتاج التي ينبغي العناية بها لرفع مستواه تنحصر في جانبين فقط.

١ ـ الولاء الثقافي: بمعنى أن يخدم الإنتاج الثقافة المحلية بمختلف مكوناتها من عقيدة وأخلاق وسلوك وما يتبع ذلك من قيم وعادات وضوابط.

٢ ـ العناية بالجانب الفني في الإنتاج: قد يتصور البعض أن خطورة الإنتاج الأجنبي تأتي من مضامينه الفكرية فقط، بمعنى أن نجابه تلك الأفكار الغريبة عنا بفكرنا المجرّد وهذا الأمر يحتاج إلى دقة في الفهم.

إنَّ مضامين الرسائل الوافدة لم تتمكن من عقلية شعوب البلاد النامية إلاَّ بسبب قوتها من الناحية الفنية، فالإنتاج الأجنبي اعتنى بأساليب العرض والإخراج بدرجة مكّنت للمضامين الفكرية التي يحملها.

إن مجابهة الفكر الأجنبي بفكرنا الأصيل ينبغي أن يكون من خلال الوسيط الفني، بمعنى أن تكون رسائلنا مع اتصافها بالولاء الفكري لثقافتنا، أن تكون أيضاً قوية من الناحية الفنية. وأوضح شاهد على هذا، أن معظم الإنتاج

---

(١) موسى عيد راغب وآخرون. تقرير حول رأي المشاهدين في برامج الدورة التلفزيونية الصباحية ١٩٧٤ م. وزارة الإعلام الكويتية. ص ٣١.

المحلي في البلاد النامية والذي يعتمد على التوعية المباشرة في مختلف المجالات، يقلّ تأثيره، وليس السبب في ذلك ضعف المضامين التي يحتويها ولكنه بسبب ضعف الناحية الفنية في أساليب العرض والإخراج.

وقد ظهر في دراسة الدكتور / محيي الدين عبد الحليم على طلبة الجامعات المصرية نسبة (٢٢,١ ٪) من جملة المبحوثين رفع مستوى الإخراج للتمثيليات والمسلسلات الدينية وذلك لأن الإخراج يلعب أهم الأدوار في اختيار النص والممثّلين وتوزيع الأدوار المختلفة على جميع الذين يسهمون في هذه الأعمال بشكل أو بآخر، واقتراح رفع مستوى الإخراج يعني الإسهام في رفع مستوى العمل الدرامي الديني[*] في التلفزيون بصفة عامة نظراً للمسؤولية الحيوية التي يتحملها المخرج في إظهار هذه الأعمال على هذا النحو أو ذاك. ذلك أن الإخراج يعتبر أهم عناصر العملية الدرامية، فمن خلاله يقدم كل الإمكانات لهذا العمل إلى الجمهور بغرض إحداث التأثير فيه وتشكيل اتجاهه وعلى طريقة الإخراج وصورته يتوقف التأثير[١].

فالجمهور الأردني الذي لم يؤيد الاتجاه إلى زيادة بث البرامج المحلية إذا ظلت على مستواها المتدنّي كما جاء في الدراسة السابقة، وأطفال الكويت الذين لم تعجبهم بعض برامجهم الخاصة، كل أولئك متأثّرون بمستوى البرامج الضعيف من الناحية الفنية. وما طالب به طلبة الجامعات المصرية برفع مستوى الإخراج للدراما ذات الطابع الديني هو مطلب جماهيري حقيقي يمثّل التوجه إلى رفع مستوى الإنتاج للمواد البرامجية المحلية ليتم الإقبال عليها وبالتالي التأثر بمضامينها المتمية إلى الثقافة المحلية.

(*) وصف بعض البرامج بالدينية لا ينسجم مع المنهج الصحيح بضرورة توافق جميع البرامج مع الفكر الإسلامي، وإذا تحقق ذلك فليس هناك ديني وغير ديني.

(١) سناء سلطان الحلو. الزاد السينمائي عبر الشاشة الصغيرة والضرورات الاجتماعية. بحث منشور في مجلة الفن الإذاعي المصرية العدد ١٠٣ أكتوبر ٨٤ م. ص ٢٣٠.

ولو نظرنا إلى الإنتاج في العالم العربي لوجدنا هذه الصفة ـ الضعف الفني ـ غالبة عليه (ففي استقراء لأهم عيوب الفيلم المصري يأتي رد المشاهدين أن أهمها حسب الترتيب :

تكرار القصة، ضعف مستوى التمثيل والإخراج، البعد عن الواقعية).
والشاهد في هذا، ضعف مستوى التمثيل والإخراج لما لهذا من تأثير على المادة الإعلامية ذاتها، وأبرز الآثار، هي الإعراض عن المادة إلى غيرها، وهذا أكبر مشكلة تواجه الإعلام المحلي، عندما ينصرف عنه جمهوره إلى الأجنبي.
وهذا الضعف الفني الموجود في مصر لا شك أنه موجود في أغلب البلاد الإسلامية، حيث أن مصر دخلت مجال الإنتاج قبل الجميع وبغض النظر عن مضامين المواد البرامجية، فإن قدرة مصر على الإنتاج في مقدمة دول المنطقة جميعها. لذا ـ فإن الحكم على أن المستوى الفني للإنتاج البرامجي في البلاد الإسلامية ضعيف حكم صحيح يشهد به الواقع، مما يجعل تعميمه على الجميع حقيقة ينبغي الانطلاق منها للنهوض بذلك المستوى الضعيف.
(والإخراج التلفزيوني كأي فن جماهيري، يتطور في سرعة مذهلة عاماً بعد عام. ولا بدَّ للعاملين في هذا الميدان، أن يقفوا أولاً بأول على تلك التطورات الفنية الحديثة، حتى لا يقفوا «محلّك سر» بينما عجلة الفن التلفزيوني تدور وتدور، طبقاً للتقدم التكنولوجي في ميدان ابتكار الأجهزة والمعدّات، واستناداً إلى الإضافات الأكاديمية في فن الإخراج التلفزيوني من كافة نواحيه النظرية والعملية)[1]. وإن أي تهاون في هذا نتائجه تظهر سريعاً في ارتفاع رغبة الجمهور وطلبهم للمواد الأجنبية المتقدمة من الناحية الفنية، وهو ما يتيح الفرصة لمضامين تلك البرامج الأجنبية ويحرم المضامين المحلية من فرصة الوصول إلى الجمهور، لأن أساليب إنتاجها حكمت عليها بذلك فتطور العمل

---

(١) أنور شتا. الإخراج التلفزيوني وفن كتابة السيناريو. بحث منشور في مجلة الفن الإذاعي المصرية. العدد ٩٦. يناير ١٩٨٣ م. ص ٧٩.

المحلي من الناحية الفنية أمر ضروري وهام، لأنه السبيل الوحيد لتضييق المجال أمام الفكر الأجنبي والغزو الثقافي المسلّح بقوة الإخراج والأساليب الفنية المؤثّرة.

وليس التركيز على عيوب الإنتاج المحلي من الناحية الفنية وبيان أثر ذلك على قلّة قبوله من جمهور المستقبلين، تزكية للمضمون الذي تحتويه البرامج المحلية، ولكن نأجّل ذلك للحديث عنه عند مناقشة القيم السائدة في البرامج.

وبالعودة إلى القيم السائدة في الدراما، والتي ثبت أنها التفضيل الأول لغالبية المشاهدين، ندرك المدى الذي يمكن أن تتأثّر به القيم المحلية أمام ذلك السيل الجارف من القيم الوافدة.

وسوف نقوم هنا باستعراض عدد من الدراسات التي تعرّضت للقيم التي تتضمنها الأفلام المستوردة.

تقدّم الباحث حسن عماد عبد المنعم ببحث بعنوان «تدفّق الأفلام الأجنبية في السينما والتلفزيون في جمهورية مصر العربية». إلى كلية الإعلام بالقاهرة للحصول على درجة الماجستير، وجاء في ذلك البحث فيما يتعلق بموضوع القيم السائدة قوله: (يتجه مضمون الأفلام الروائية المستوردة من أمريكا ودول غرب أوروبا إلى الترفيه، وتقديم الجريمة، والمغامرات البوليسية، بينما يتجه مضمون الأفلام المستوردة من الدول الشرقية إلى الثقافة والدعاية ـ ثم يتابع ليؤكّد أن أفلام الجريمة والمغامرات البوليسية في فترة التحليل في السينما والتلفزيون تمثّل الترتيب الأول بنسبة (٢ , ٢٩ ٪)[1].

وفي رسالة ماجستير تقدّم بها الباحث عبد المنعم علي سعد لقسم الاجتماع بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة تحت عنوان «السينما وظاهرة الانحراف

---

(١) حسن عماد عبد المنعم. تدفّق الأفلام الأجنبية في السينما والتلفزيون في جمهورية مصر العربية. رسالة ماجستير. ١٩٧٩ م. نشر ملخص للرسالة في دورية الاعلام العربي. تونس ـ السنة الثالثة ـ العدد الأول ص ٢٤.

عند الشباب». دراسة مقارنة وميدانية لعيّنات من الشباب بمدينة القاهرة عام ١٩٧٢ م ذكر جنسيات الأفلام المستوردة وحدّد القيم التي تحتويها بقوله: (تستورد مصر الأفلام الأجنبية من دول عدّة هي أمريكا، فإيطاليا، فبريطانيا، ففرنسا، فالإتحاد السوفياتي، فالهند، فاليابان، فألمانيا الغربية، فلبنان، فأسبانيا، فالمكسيك، فيوغسلافيا، فاليونان، فسوريا، فالجزائر، فتركيا، فباكستان، فالمجر. ونوعيات الأفلام المستوردة هي أفلام المغامرات، فالأفلام البوليسية، فالجنسية، فالكوميدية، فالاجتماعية)[1].

وتقدّم الباحث عدلي محمد رضا ببحث للحصول على درجة الماجستير إلى كلية الإعلام بجامعة القاهرة عام ١٩٧٩ م بعنوان «تدفّق البرامج من الخارج في تلفزيون جمهورية مصر العربية مع تحليل مضمون بعض المواد الأجنبية في التلفزيون العربي». وجاء في هذه الرسالة أرقاماً مخيفة حيث بلغت ساعات البث الواردة في فترة الدراسة (٥٧٣٢,١٧ ساعة برامجية) قبل منها (٨٠,٣٥ ٪) وأهم الدول التي وردت منها هي الولايات المتحدة (٧٧,٩٢ ٪) ألمانيا الاتحادية (١١,٢ ٪) والمملكة المتحدة (٧,٩٨ ٪). ومعظم البرامج المستوردة من الولايات المتحدة ترفيهية، حيث تشكّل المسلسلات (٩٥,٦ ٪) منها وجميع البرامج الواردة من دول الكتلة الشرقية ثقافية وعلمية وردت كهدايا لعرضها والاحتفاظ بها. وأنواع المسلسلات الأجنبية التي أذيعت خلال فترة التحليل هي المسلسلات البوليسية (٤٦ ٪) فالاجتماعية (٣٥,٨٥ ٪) فالمغامرات (٩,٩ ٪) فالعلمية (٥,٣٦ ٪) فالكوميدية (٢,٨٩ ٪)[2].

---

(١) عبد المنعم علي سعد. السينما وظاهرة الانحراف عند الشباب. رسالة ماجستير ـ نشر مستخلص للرسالة في دورية الأعلام العربي. تونس. السنة الثالثة العدد الأول ـ رمضان عام ١٤٠٣ هـ. ص : ٥٠.

(٢) عدلي محمد رضا. تدفّق البرامج من خارج جمهورية مصر العربية. رسالة ماجستير. نشر مستخلص للرسالة بدورية الإعلام العربي. تونس ـ السنة الثالثة ـ العدد الأول ـ رمضان عام ١٤٠٣ هـ. ص (٥٢).

وباستعراض هذه الدراسات الثلاث تتضح لنا :

كافة البرامج الأجنبية التي تفد إلى البلاد الإسلامية وتعدّد جنسياتها مما يجعل القيم المتضمّنة بها تمثّل معظم القيم الدخيلة على ثقافة البلاد الإسلامية ، فقد جاءت نسب الوافد في الدراسات الثلاث عالية جداً ، كما أنها شملت كل البلاد المنتجة تقريباً . أمّا القيم المتضمنة ، فإنها تمثّل أنواعاً شتّى نحاول تصنيفها إلى مجموعتين :

أ ـ قيم البلاد الغربية (أمريكا وغرب أوروبا) وهي تشمل قيم الجريمة ، والمغامرات البوليسية ، فالأفلام الجنسية وأشكال الترفيه . وهذه المجموعة تتجه إلى بناء المجتمع وتحاربه بما تحدث من صراع قيمي بين القيم الاجتماعية الثابتة في المجتمعات الإسلامية ، وبين هذه القيم مما يجعل الاستقرار الاجتماعي الذي بنيت عليه العلاقات الاجتماعية بين الأفراد وأسرهم والكيانات الاجتماعية داخل المجتمع عرضة للانهيار وهو ما يشاهد في واقع البلاد العربية والإسلامية في الوقت الحاضر . فعلاقات الأفراد بأسرهم وعلاقة الأسر فيما بينها أصبحت في حالة من عدم الاستقرار .

ب ـ قيم المجتمعات الشرقية والتي تفد من البلاد الشيوعية والتي أظهرت الدراسات أنها أغلب البرامج الثقافية الواردة وتتمثل هذه الثقافة في التصوّر الشيوعي لهذا كلّه منطلق من إنكار وجود الخالق ، مما يجعل القيم الثقافية المتضمنة في إنتاجهم تتصادم مع العقيدة الإسلامية التي بني عليها التصوّر الإسلامي لكل العلاقات بين الأفراد ومجتمعهم وبينهم وبين الكون وبين ذلك كلّه والخالق العظيم .

وواضح من هذا الاستعراض أن القيم الوافدة عبر البرامج الأجنبية في غالبها تخالف الثقافة الإسلامية الأصيلة مما يحتم على الأمة أن تتخذ الأساليب الكفيلة على ثقافتها من من هذا الغزو المدمّر والذي ظهرت آثاره جليّة في واقع

الكثير من شباب الأمة الذي تنكر لثقافته . وأصبح في معظم الأحوال يفضّل الدخيل على الأصيل ، ووصل الأمر ببعض هؤلاء الشباب إلى التنكّر الكلّي لثقافته وأمته والانسلاخ منها في فكرة وأخلاقه وسلوكه . بل إن البعض منهم والذي وصل إلى القدرة على التأثير في غيره أصبح وسيلة لنشر تلك القيم الدخيلة بين شباب الأمة .

وحتى لا نتهم بالتحيّز ضد الإنتاج الأجنبي ، نؤكّد أن بعض الإنتاج من الأفلام العربية تدور في نفس الدائرة فهي تنتهج أسلوب الإنتاج الوافد ، وتحاكيه ، وتقلّده في كثير من أساليبه (إن العديد من الأفلام العربية التي يعرضها التلفزيون لا تعبّر بصورة أو بأخرى عن قيمنا الأخلاقية وأعرافنا الاجتماعية السائدة في مجتمعنا بخاصة ، والمجتمعات العربية بعامة) [1] .

بل إن بعض البرامج الخاصة تحرف فيها المفاهيم وتقدّم الحقائق مشوهة ، وقد تستقبل من الجمهور على أنها حقائق أو انها تمثّل الواقع وذلك بسبب قلّة خبرة الجمهور حول الموضوع ، فالكثير من أبناء البلاد العربية يتصوّر واقع المجتمع المصري مثلاً من خلال الأفلام والمسلسلات المصرية ، بينما الأمر على خلاف ذلك . ومن أسوأ التحريف للحقائق العلمية ما قدم في مسلسلة خاصة بالأطفال في تونس ، كانت موضوع دراسة للباحث السيد ليليا بن يوسف بعنوان : «البرامج الموجهة للأطفال في الإذاعة والتلفزة التونسية» تقدّم بها إلى معهد الصحافة وعلوم الأخبار في الجامعة التونسية كرسالة انتهاء الدروس الجامعية في سبتمبر أيلول عام ١٩٧٨ م .

وهذه المسلسلة تضم (٤٧) حكاية هي حوار بين دميتين هما فوزي ، وفوزية يزورهما العصفور كل يوم يسرد لهما حكاية من الحكايات التي تتولى الحيوانات بطولتها في الغالب . . . وتنطوي هذه المسلسلة على إيراد مجموعة

---

(١) موسى عبد راغب وآخرون ـ تقرير حول استطلاع رأي المشاهدين في الدورة التلفزيونية الصباحية عام ١٩٧٤ م . مرجع سابق ص (١٦).

من النصائح والإرشادات ولدى تحليل الباحث لها تبيّن له أن «القضاء والقدر» هو الموضوع الذي كان أكثر تواتراً من غيره [1] .

وبيّنت الدراسة أنه رغم ورود «التفكير» في المرتبة الرابعة إلا أنه لم يكن يبتعد عن موضوع «القضاء والقدر» فالمسلسل رغم أنه يحث على التفكير من جهة ـ إلا أنه يدعو من جهة ثانية إلى الإيمان بالقضاء والقدر «فالفقر والغنى ومصاعب الحياة ومصائبها وسلوك الإنسان وطبيعة الخلق والسعادة والشقاء أمور خاضعة للقضاء والقدر» . ومن بين المفاهيم التي أشاعتها المسلسلة في هذا المجال . ليس للإنسان دور في تغيير الطبيعة .

هذا الخلط والتشويه لمفاهيم العقيدة يقدم لناشئة المسلمين ومن خلال محطات بلادهم . فكأن المسلسلة تريد أن تبرز للأطفال تناقضاً بين السعي والكسب ، وبين الإيمان بما قضاه الله وقدره . وهذا أمر ليس موجوداً في عقيدة المسلمين فالمسلم يؤمن بقضاء الله وقدره ، ويؤمن أن الأخذ بالأسباب والكد في الدنيا لتحصيل قوته جزءمن عقيدته فأي تناقض تريد إحداثه هذه المسلسلة وأمثالها ، نعم إن الغرب يتّهم المسلمين بالسلبية في أعمالهم الدنيوية بسبب إيمانهم بالقدر . ونفينا لاتّهام الغربيين هذا لا يكون بإنكار القدر ، بل بإيضاح الأمر وفق مفاهيم العقيدة الصحيحة سواء قبلوه أو لم يقبلوه . ولا غرابة في إنكارهم للقدر ، فهم ينكرون ما هو أكبر منه ، لكن الغريب أن نحاول نفي السلبية عن أنفسنا بإنكار جزء من عقيدتنا . وكذلك الأفلام والمسلسلات العربية هي أيضاً لا تمثّل ثقافة الأمة وقيمها وأخلاقها وسلوكها ، فهي في غالبها (لا تخلو من قصص الانحراف والقتل والمخدّرات والسكر والخيانات الزوجية) [2] .

---

(١) السيد ليليا بن يوسف . البرامج الموجهة للأطفال في الإذاعة والتلفزة، التونسية ـ بحث منشور في دورية البحوث . بغداد . العدد الثاني ـ إبريل ١٩٧٩ م . ص (١٤٠).

(٢) د. أحمد شوقي الفنجري . التمثيلية ودورها في خدمة الإسلام . بحث مقدم لندوة الأدب الإسلامي المنعقدة بكلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٤٠٥ هـ . ص (٢).

وذلك لأن الإنتاج الأدبي غير ملتزم بقيم الأمة هو البضاعة الرائجة لاعتماده على أساليب الإثارة للغائز والشهوات ، وهي أمور تميل لها النفس ـ فإذا انضم إلى هذا وسائل الإغراء في الإخراج التلفزيوني القادر كانت أشدّ إثارة وجاذبية . وقد تأثر الإنتاج في البلاد الإسلامية بمقاييس الإنتاج العالمية ـ بل أصبح البعض يصنع مواداً برامجية تشبه مواداً موجودة في الغرب ومن الدلالات الإحصائية على إقبال جمهور البلاد النامية على هذا النوع من الإنتاج ما جاء في تفضيل جمهور التلفزيون المصري لكتّاب القصة [1] . حيث احتل المركز الأول والثاني كاتبان مشهوران بعدم الالتزام بالقيم الأخلاقية وتعمّد الإثارة غير الملتزمة في كتاباتهما ، فقد أظهرت النتائج أن نجيب محفوظ في قائمة التفضيل بنسبة (٢٨,٢٢ ٪) وإحسان عبد القدّوس في المركز الثاني بنسبة (٢٦,٤٢ ٪) وهذا المؤشّر يدل على أن القيم التي ستعرض لن تكون ملتزمة بمعايير الإسلام (فالفكر الإسلامي لا يقرّ الأدب المكشوف ولا الأدب الجنسي ، ويقدم الأخلاقية على الجمالية . ومعارضة الإسلام في إحياء ميول الشهوات والإباحة عامل هام في تقديس الإنسان ، وحماية جدار الأسرة ، ودعم كرامة المرأة) [2] . والكاتبان الفائزان بالمركزين الأولين وأمثالهما من هذه النوعية التي تكتب معظم الإنتاج العربي من الأفلام يعتمد على الأدب المكشوف ، والإثارة الجنسية وتقديم الشهوات عارية من الضوابط الأخلاقية .

يتّضح أن القيم السائدة في غالب الإنتاج الدرامي العربي لا تتفق مع قيم الإسلام ، لأن الأصل الذي استمدّت منه وهو الإنتاج الأدبي بعيد عن غايات الأمة وأهدافها . يقول الدكتور عبد الله التركي في هذا : (ينبغي أن نعلم أن الأدب ـ في غالب العالم الإسلامي ـ قد انفك عن المنهج الصحيح في

---

(١) بحث تقييم برامج التلفزيون ١٩٨٣ م . اتحاد الإذاعة والتلفزيون المصري . مرجع سابق . ص (٣٥) .

(٢) أنور الجندي . المفهوم الإسلامي المتميّز للأدب . بحث مقدم لندوة الأدب الإسلامي . ص (٧) .

المنطلق والمسار ، والهدف . ووقف وراء هذا الانفكاك عوامل ذاتية منها : شيوع الجهالة ، وجمود التفكير ، وهبوط الاهتمام والابتعاد عن الأصول ، وفساد الحس الجمالي ، وعقم مناهج تعليم اللغة والأدب . كما يقف وراء الانفكاك عوامل خارجية على رأسها الغزو الفكري ، الذي يعد الأدب مجالاً من أوسع مجالاته . فلقد قلّدت الحركات الأدبية في العالم الإسلامي مناهج الفرنجة في الأدب ففصل هذا التقليد بينها وبين المنهج الإسلامي في الأدب) [1] . فهذا البعد عن المنهج أثمر أدباً بعيداً عن أهداف الأمة وغاياتها - بل يعتبر عاملاً من عوامل إضعافها ، فهذه النصوص الأدبية التي تتحوّل إلى إنتاج تلفزيوني يتلقّفه الجمهور بشوق إلى موعده ، يهدّد قيم الأمة لأنه لا يلتزم بها - بل يناقضها ويسخر منها أحياناً .

وحين نصل إلى هذه النقطة ويتبيّن لنا أن معظم القيم في الأعمال الدرامية الأجنبية والعربية هي قيم بعيدة عن الثقافة الإسلامية ، وتشكّل تهديداً لها، ننظر إلى جزء من دراسة د. محيي الدين عبد الحليم حول الدراما التلفزيونية ، ناقش في هذا الجزء دور التمثيليات والمسلسلات التلفزيونية في تعديل السلوك ، وبين أن تعديل السلوك والتأثير على الآراء والاتجاهات هدف رئيسي من أهداف العمل الإعلامي . وقد افترض أن الدراما التلفزيونية قادرة - إلى حد كبير - على التأثير على السلوك وتعديل اتجاهات شباب الجامعات . . . ولاختبار صحّة هذا الفرض تم توجيه سؤال لمجموعة المبحوثين عن مدى قيام التمثيليات والمسلسلات بتغيير بعض من تصرفاتهم أو تصرفات أحد أفراد أسرهم ، وقد أجاب (٢١,٥٤ ٪) من أفراد العينة أن هذه الأعمال الدرامية تسهم في تعديل سلوكهم ، وسلوك أفراد أسرهم بصفة دائمة ، وأجاب (٣٨,٦٥ ٪) أن التعديل في السلوك نتيجة تعرّضهم للتمثيليات والمسلسلات التلفزيونية يحدث أحياناً وليس بصفة دائمة ، في حين ذكرْ

---

(١) د. عبد الله التركي . الأدب الإسلامي - المنهج والوظيفة بحث قدم في حفل افتتاح ندوة الأدب الإسلامي في : ١٤٠٥/٧/١٦ هـ . ص (٥).

(٣٩,٨١ ٪) . إن التمثيليات والمسلسلات التلفزيونية لا تسهم في كثير أو قليل في تعديل اتجاهاتهم أو التأثير على سلوكهم أو تغير تصرفاتهم .

وتشير هذه الأرقام إلى التأثير الفعّال الذي تحدثه الدراما التلفزيونية في توجيه الرأي العام لدى الشباب الجامعي إذ بلغت نسبة الذين يتأثر سلوكهم تأثيراً كاملاً أو جزئياً أكثر من (٦٠ ٪) من هؤلاء المبحوثين وهو معدّل كبير يؤكّد صحة الفرض ، ذلك أن هذه الأعمال تحدث آثاراً عميقة في عقول الشباب أنفسهم) [1] . هذه الدلالات الإحصائية على مستوى التأثير على الفئة المثقّفة مع أن لديهم من الحصانة ضد هذا التأثير ما لا يملكه غيرهم ممن هو أقل ثقافة أو أصغر سناً ، مما يعطي دلالة أخرى على ارتفاع مستوى التأثير عند تلك الفئات من صغار الشباب والأمّيين .

أمّا الأطفال فإن الدراسات أثبتت (أن الطفل يتأثّر بما يشاهده على شاشة التلفزيون ، بحيث يمكن تعديل اتجاهاته النفسية ، سواء من السلب إلى الإيجاب أو العكس ، وخاصة الاتجاه نحو الشعوب الأخرى والأجناس المختلفة وهكذا . كما يمكن أيضاً لبرامج التلفزيون أن تعدّل نظام القيم الاجتماعية عند الأطفال ، كأن تؤكّد بعض القيم وتلغي البعض . أو تقدم بعضها وتؤخّر البعض الآخر) [2] .

وإيضاحاً لمدى التأثير الذي يتعرض له الشباب من مشاهدة التلفزيون نورد سؤالاً أورده بحث التلفزيون وطالب المرحلة الثانوية عن مدى محاولتهم تقليد البطل أو النجم المفضل في موقف ما . وقد أفادت نسبة (٤٦,٨ ٪) منهم أنهم فعلوا ذلك على حين قرّرت النسبة الباقية منهم (٥٣,٢ ٪) أنها لم تفعل ،

---

(١) د. محيي الدين عبد الحليم . الدراما التلفزيونية . مرجع سابق . (ص ١٥٠) .
(٢) د. سعد عبد الرحمن . بحوث حول التلفزيون وطفل المدرسة المتوسطة . مرجع سابق ص (١٦,٤) .

ونسبة الذين أفادوا بالإيجاب رغم أنها تقل عن نصف مجموعة الدراسة إلا أنها مؤشّر على مدى قابلية بعض المشاهدين من الطلبة للاستهواء ومحاكاة البطل المفضّل لديهم . . . وعند دراسة هذه النتيجة في ضوء متغيّر السن تبيّن أن نسبة الذين حاولوا تقليد بطلهم أو نجمهم المفضل ترتفع إلى أقصاها (٥٣,١ ٪) عند طلبة الصف الأول) (١) . وبمتابعة متغيّر السن في بحث آخر طبّق على طلبة أصغر ، تبيّن أن نسبة الأطفال الذين يميلون إلى التقليد ارتفعت إلى (٦٧,١ ٪) من جملة العينة . وهذا يعني أن نسبة كبيرة من أطفال العينة تميل إلى اتخاذ شخصية الممثّل أو الممثّلة التي يعجب بها مثالاً للبطولة التي تمثّل في هذه الفترة من العمر مثلاً أعلى للطفل) (٢) . وبصفة عامة فإن نتائج هذا السؤال تظهر أن الأطفال في هذا السن قد يتأثّرون بالقيم وأنماط السلوك التي تصدر عن أبطال البرامج الروائية التي يعرضها التلفزيون ، الأمر الذي يحتّم على المعنيين به مراعاة الدقة في اختيار هذه المواد ، بحيث تتفق مع أهداف التنشئة الاجتماعية والنفسية المستمدّة من طبيعة القيم والمفاهيم والتقاليد السائدة في المجتمع (٣) .

وبعد ـ فإن العالم كلّه يمرّ في هذا القرن بنوعية من الإنتاج الأدبي ـ الذي يتحوّل بدوره إلى مواد برامجية ـ يعاني أزمة روحية قاتلة (إن كل من يطالع أو يشاهد ، بتمعن هذا السيل العميق من الأعمال المسرحية (٣) لكبار الكتّاب العالميين المعاصرين ، ويتجاوز ظاهر الكلمات والأشكال إلى باطن المعاني والرموز سوف يجد نفسه يقف وجهاً لوجه أمام كلمة واحدة لا يمكن أن يتخلّى

(١) بحث التلفزيون وطالب المرحلة الثانوية . مرجع سابق ص ١٣١ .

(٢) د. سعد عبد الرحمن . بحوث حول التلفزيون وطفل المرحلة المتوسطة . مرجع سابق . ص (١٧) .

(٣) تعبير الدكتور عماد الدين بالأعمال المسرحية لأنها موضوع البحث وإلا فإن ما ذكر من صفات سمة تسيطر على معظم الإنتاج الأدبي العالمي ، خاصة ما يقصد به الإنتاج الدرامي .

عنها إذا ما أراد تحديد موقف الإنسان في القرن العشرين من خلال المسرح المعاصر ، تلك الكلمة هي (الفوضى) . إن هناك إجماعاً يكاد يكون تاماً في موقف معظم هؤلاء الكتّاب من الكون والعالم والإنسان والعلاقات التي تسود هذه الأقطاب . . . هذا الموقف يتمثّل في رؤية تكاد تكون متشابهة للفوضى التي يعتقدون أنها القانون الوحيد الذي يحكم الكون والعالم والإنسان) [١] هذه الفوضى التي تعم الإنتاج العالمي هي السمة العامة التي تروّج في كل بلاد الدنيا طولها وعرضها من خلال المواد البرامجية الجاهزة أو من خلال محاكاة المنتجين المحلّين لهذا النوع السائد من الإنتاج .

وهذا الأمر الخطير الذي يهيمن على فكر البشرية ويصوغ عقولها بعيداً عن التصورات المهتدية ، يجعل مسؤولية القادرين من علماء المسلمين وقادة الفكر تتضاعف لإيجاد مخرج للإنسانية من هذا الضلال الْمدمّر والذي لا تزال ظلماته تغمر الأفق . (وستظل البشرية تعاني أزمات عصرها ، وفكرها . . ستظل البشرية تدور بمعطياتها وحضارتها في الحلقة المفرغة التي ليس لها للخروج منها من سبيل . . . وهي خلال ذلك كله تذهب على الناس فرص أعمارهم وجهودهم ، وتدمّر عليهم أمنهم الذاتي وسلامهم ، وتسحق آمالهم ومصائرهم ، وتبعث بوجودهم الفردي والجماعي وتدفعهم دفعاً إلى الدوّامة القاسية . . . ستظل البشرية تعاني وتزداد أزمتها تعقيداً وإرهاقاً يوماً بعد يوم حتى يتأتّى لها ـ يوماً ما ـ أن تؤمن بالنور الذي نزل من السماء) [٢] . فعندما تظلّل الهداية طريق الإنتاج العالمي ، وتتمكّن جماهير وسائل الإعلام من تنفّس عبق الإيمان من خلال مشاهداتها ـ فإن متاهات الضلال التي تعيش فيها سوف تتضح فيها المعالم ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيّ عن بيّنة . أمّا الآن

---

(١) د. عماد الدين خليل . فوضى العالم في المسرح المعاصر . مؤسسة الرسالة عام ١٣٩٧ هـ . ص (١٤) .

(٢) د. عماد الدين خليل . المرجع السابق. ص (٢٢٦).

فإن الكثير من الهالكين على الضلال لا يعرفون طريق الهداية وطريق النور ومسؤوليتهم في عنق من حمّلهم الله المسؤولية .

وبتتبّع بقية البرامج التي اعتادت محطّات التلفزيون على تقديمها يتبيّن ، أن الدراما ليست المؤثّر الوحيد على المشاهدين ـ بل يشاركها في الأهمية عدد من البرامج المختلفة وإن كانت الدراما تتصدّر قائمة التفضيل دائماً ـ لكن تلك الأنواع المتبقّية لها نصيبها من التفضيل ، وبالتالي من ساعات البث بنسب تلائم حجم الرغبة التي تنالها .

ففي نشرة الإحصاءات الإعلامية الصادرة عن وزارة الإعلام الكويتية لفترة يوليو ـ ديسمبر ١٩٨٣ م ، أظهرت نسب ساعات البث أن الدراما تحتل المركز الأول بنسبة (٢٦,٨ ٪) من جملة ساعات البث ، تلتها مباشرة البرامج الترويجية بنسبة (٢٤,٢ ٪) من جملة ساعات البث .

وجاء في بحث تقيم برامج الإذاعة والتلفزيون المصري عام ١٩٨٠ م أن البرامج الدرامية أتت في مركز التفضيل الأول تلتها برامج الموسيقى والغناء والتابلوهات الراقصة ، فالبرامج الرياضية ومباريات كرة القدم . ونكتفي بهاتين الإحصائيتين ـ مع أن أمثالهما كثير ، وفيهما دلالة كافية على أن مواد الترفيه والتسلية والموسيقى والرقص ومباريات كرة القدم تحتل درجات متقدمة في سلّم التفضيل وتغطّي مساحات كبيرة من ساعات البث التلفزيوني مما يدل على أن هذا النوع من البرامج الترفيهية متقدّم على البرامج المتبقّية مثل البرامج الثقافية والبرامج الدينية وبرامج الفئات وكافة برامج التوجيه والتثقيف .

القيم السائدة في البرامج غير المفضلة :

في المباحث السابقة من هذا الفصل تبينت لنا أنواع البرامج المفضلة لدى جمهور المشاهدين والبرامج التي يقلّ تفضيلها من خلال تتبّعنا لعدد من الدراسات التي عنيت بآراء الجمهور في البرامج ، ومن خلال تحليل تلك الدراسات والإحصائيات التي جاءت فيها . كما تبيّن لنا أيضاً نوع القيم السائدة

في تلك البرامج المفضّلة والتي تدل تلك الكثافة من المشاهدة على فرص أكبر لتأثيرها .

وفي هذا المبحث نتعرّف على القيم السائدة في البرامج التي يقل تفضيلها لدى المشاهدين ، والتي يقلّ نصيبها من ساعات البث في هياكل البرامج التلفزيونية ، وقد اتضح لنا أن البرامج التي يقلّ إقبال الجمهور عليها هي البرامج الثقافية والبرامج الدينية والبرامج التوجيهية وعامة برامج الفئات المتخصّصة . وواضح أن معظم هذه الأنواع من البرامج تعد ، وتنتج محلياً خاصة البرامج الدينية لعدم إمكانية إنتاجها عالمياً .

والقيم السائدة في البرامج الدينية هي القيم المرتبطة بالعقيدة الإسلامية وما يبنى عليها من أخلاق إسلامية وسلوك المعاملة بين الأفراد والجماعات من المنظور الإسلامي . ومرد ذلك هو القرآن الكريم والسنّة المطهّرة ، واللذان يبرزان كافة القيم الإسلامية . والتعامل معهما كمصدر للبرامج الدينية يضمن تقديم التصوّر الصحيح الذي يهيىء المناخ المناسب للبناء ، بناء الأفراد والمجتمع .

والقيم السائدة في البرامج الثقافية تختلف حسب النظرة التي تحكم القائمين على تلك البرامج ، وأغلب ما يسود من تصوّر حول البرامج الثقافية مستويان (مستوى يرى أن كل ما تقدمه الإذاعة ـ في شتى ألوانه وجوانبه ـ ملمحاً ثقافياً ، يستوى في ذلك البرنامج المنوع والدرامي ونشرات الأخبار والبرامج السياسية والغنائية والموسيقية ، ومستوى آخر يقصر إطار هذه العلاقة على ما يعرف الآن باسم البرامج والمواد الثقافية [1] . وما نعنيه هنا البرامج الثقافية بمفهوم أغلب المحطات وهي البرامج المرتبطة بالثقافة المحلية وأنواع من الأدب المحلّي المرتبط باللغة وآدابها ، وهذا النوع من البرامج لا شك في أهميته لأنه أحد العوامل الهامة في ربط الأفراد بثقافتهم وتراثها وآدابها ، والحفاظ عليهم من

---

(١) فاروق شوشه . الإذاعة والثقافة . بحث منشور في مجلة الفن الإذاعي . العدد (١٠١) إبريل عام ١٩٨٤ م . ص (١٧٧) .

الذوبان في الثقافات الأخرى أو على الأقل تقديم بعض البرامج الثقافية التي تساعد الأفراد على تكوين معايير من ثقافتهم يتعاملون على ضوئها مع الثقافات الأخري . فالبرامج الثقافية بهذا التصوّر عامل من عوامل توازن الفرد بين التيّارات الثقافية المختلفة ، يحافظ على الفرد من الذوبان ، لأن لديه ما يفخر به على الأقل ، وأنه ليس ريشة في مهبّ الريح ، منقطع الصلة بكل القيم .

والبرامج الثقافية القائمة في محطات التلفزيون في البلاد الإسلامية تنهج هذا الاتجاه ، وتحاول تقديم القيم الثقافية المنتمية إلى الثقافات المحلّية وتعزيزها في نفوس الأفراد ـ فهي ليست برامج ثقافية بالمفهوم الواسع للثقافة والذي يشمل كل شيء تقريباً ، ولكنها برامج ثقافية محدودة بالقيم الثقافية المحلية .

وعلى هذا فإن القيم السائدة في البرامج الثقافية قيم خاصة تساهم في تكوين الأفراد وبنائهم الذاتي المنتمي إلى أمتهم وثقافتها .

أمّا البرامج الخاصة فهي ذات أهداف محدّدة ترمي إلى تحقيقها لدى فئة معيّنة من الجمهور ، وتتميّز هذه الفئة بصفات مشتركة تميّزها عن غيرها ، مما يجعل التعامل الخاص أسهل في تحقيق الأهداف ، فبرامج المرأة مثلاً والتي تهدف إلى تقديم معلومات معيّنة لهذه الفئة من المجتمع ، قد لا تهم غيرها من الفئات ، وكذلك برامج الشباب ، وبرامج الأطفال ، وتتنوع البرامج حسب موضوعاتها أيضاً فكما أن التصنيف سابقاً اعتمد على فئات الجمهور ـ فإنه أحياناً يعتمد على نوع المعلومات المقدمة فنجد برامج صحية ، وبرامج توعية مرورية ، وأمنية ، ومحو أميّة ، وبرامج تعريف بالنظم الإدارية ونظام الموظّفين ، والإرشاد الزراعي وغيرها .

وتتميّز هذه النوعية من البرامج بالارتباط القوي بواقع الحياة التي يعيشها الجمهور وتقديم ما يساعدهم على حسن التكيّف والاستفادة من الخدمات بأكبر قدر ممكن ، مع البعد عن الأخطاء التي تضرّهم أو تضرّ غيرهم ، فهي برامج

محـدّدة الهدف ، وتحقيق تلك الأهـداف يعود على الفـرد والمجتمع بفـوائـد كثيرة .

والقيـم السـائدة في هذه الأنواع من البرامج قيـم مرتبطة بمصـالح الأفـراد والمجتمع وتحقيقها مطلب جماهيري ـ بل إن الارتفاع بمستوى البـرامج التي تخدمها مطلب جماهيري لأنه يخدم الأفراد ، إذ يعفيهم من مشكلات التكيّف مع المجتمع وييسّر لهم سبل التوحّد مع النظام الاجتماعي الذي ينتمون إليه .

ـ مقارنة بين قيم البرامج المفضّلة وقيم البرامج غير المفضّلة :

في هذا الجزء من الفصل نلخّص ما وصلنا إليه في مبـاحث أنواع القيم السـائدة في كل من «البرامج المفضّلة» و«البرامج غير المفضّلة» وتحدّد مصادر كل من تلك القيم لنستنتج أيهمـا أقـرب الى الثقـافـة المحلّيـة في البـلاد الإسـلامية ، لنحـدّد المسـارات الصحيحـة التي ينبغي أن يسـير فيهـا واضعو البـرامج ومنفـذّوها في البـلاد ولتحدد المسؤوليـة الملقـاة على عـاتق أجهـزة التلفزيون في بـلاد المسلمين نحو إبـراز تلك القيـم ، متمثّلة في وضـع تصـوّر لأسلوب التعامل مع البرامج المرغوبة ، والبرامج غير المرغوبة .

من دراستنا للقيـم السـائدة في البرامـج المفضّلة للجمهور الـذي أجريت عليه الدراسـات التي نقوم بتحليلها ومقارنتها في هذا الفصـل تبيّن أنها تتكون من عدد من المجموعات تشمل كل مجموعة عدداً كبيراً من القيـم :

١ ـ مجمـوعة القيم الـوافدة من بـلاد الغرب (أمـريكا وأوروبـا الغربيـة) وهذه المجموعة تمثّل قيم السلوك الاجتماعي في الأفلام الغربية والتي تقدم من خلاله أساليب الحياة الغربية وما يعرض في تلك النوعية من الأفلام من قيـم تتصل بالعنف والجريمة ، والجنـس ، والبوليسية وغيرها من القيم الســائدة هناك .

٢ ـ مجموعة القيـم الثقافية الوافدة من البلاد الشرقية : وهذه المجمـوعة تمثّـل

القيم الثقافية المنبثقة من الفكر الشيوعي وهي مبنية على أصل إنكار الخالق فالعلاقات بين الأفراد والجماعات مبنية على هذا الأساس عندهم وما يعرض من مواد ثقافية تفد إلى البلاد الإسلامية تصطبغ بهذه الصبغة في معظمها .

٣ - مجموعة قيم الأفلام العربية : غالب الأفلام العربية تتجه إلى التأثر بالإنتاج العالمي في مضامينه وأساليب العرض في الاعتماد على الإثارة بكل أنواعها ، حتى الإثارة الجنسية المستهجنة أحياناً تظهر فيها كأسلوب من أساليب الأفلام العربية ، وهذه الأفلام في معظمها لا تمثّل الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة ، بل ولا تمثّل واقع البلاد العربية التي تنتج فيها ، فهي تحمل قيماً دخيلة على الفكر الإسلامي وعلى الخلق العربي النبيل .

٤ - مجموعة قيم الترفيه والتسلية بالموسيقى ، والرقص ، والغناء ، والبرامج الرياضية ، ومباريات كرة القدم ، ومعظم القيم السائدة في هذه المجموعة تتجه إلى الترفيه والتسلية والبعد عن الجدّ في أمور الحياة ، وإضاعة ساعات طويلة من اليوم في التسلية والترفيه . هذه معظم القيم السائدة في البرامج المفضّلة والتي تبيّنت من تحليل ومقارنة الدراسات التي بين أيدينا (١).

أمّا القيم السائدة في البرامج غير المفضّلة فهي عدد من المجموعات أيضاً تمثّل كل مجموعة منها أنواعاً عديدة من القيم المتقاربة .

١ - القيم الدينية : وهي القيم المتضمنة في البرامج الدينية التي تعتمد في أصلها على القرآن الكريم ، والسنّة النبوية المطهّرة اللذين يمثلان أصول الدين ، والأسس التي يبنى عليها .

٢ - القيم الثقافية : وهي مجموعة القيم المستمدّة من الثقافة العربية وآدابها المختلفة ، وهي ما يعرض من خلال البرامج الثقافية ذات الطابع الأدبي

---

(١) انظر مبحث القيم السائدة في البرامج المفضلة في الفصل الرابع من هذه الدراسة .

المنتمي إلى الثقافة المحلية والذي يهدف إلى ربط الأفراد بأصولهم الثقافية .

٣ ـ القيم المتضمّنة في البرامج الخاصة : وهي متنوعة تنوعاً كبيراً بحكم الأنواع العديدة من هذه البرامج الخاصة ، لكنها في عمومها تقدم فيما تنتمي إلى النظم المحلية المعمول بها ، وتحاول التأثير في الجمهور المستقبل ليتمكّن الفرد من حسن التكيّف مع نظامه الاجتماعي الذي يعيش في إطاره .

هذه معظم القيم التي تتضمّنها البرامج التي يقلّ [١] الإقبال عليها ولتجلية موضوع القيم المتضمّنة في البرامج ، نحاول معرفة أصول تلك القيم التي بنيت عليها ، والمصادر التي انبثقت منها ليتضح أمرها بشكل جليّ .

أولاً : القيم السائدة في البرامج المفضّلة :

أول تلك القيم مجموعة القيم الوافدة من بلاد الغرب (أمريكا ـ وأوروبا الغربية) وثانيها مجموعة القيم الثقافية الوافدة من البلاد الشيوعية .

ولا نستطيع إدراك أصول هذه القيم إلا بمعرفة حقيقة هامة هي : (إن الفلسفة الإلحادية تمثّل إطار الفكر الغربي كلّه . والمثقّفون في الغرب كلّه ـ إلا فئة قليلة ـ متأثرون على درجات متفاوتة بهذه الفلسفة المادية الإلحادية ، فمنهم من يقبلها قبولاً كاملاً ، ويعلن كفره بالله وبالدين في صراحة ، ومنهم من يعتبرها منهجاً علمياً ينتهجه إذا دخل معمله أو كتب بحثه ، أو ناقش زملاءه ثم يخلعه إذا ذهب إلى كنيسته أو بيعته ، ومنهم من يقبله حقيقة ، ولكنه ينتمي إلى الدين إسماً لأنه يفسّر كل المفاهيم الدينية تفسيراً لا يخرج عن هذا الإطار . وهذا الإطار هو أساس ما لديهم من تصوّرات دينية أو فلسفية للوجود ، ومكانة الإنسان فيه ، وللقيم الخلقية والجمالية ، والعلاقات الفردية بالمجتمع ، بل وهو أساس الآداب والفنون التي تعبر عن هذه التصوّرات ، وهو أساس الأوضاع

---

(١) انظر مبحث القيم السائدة في البرامج غير المفضّلة في الفصل الرابع من هذه الدراسة .

السياسية والاقتصادية ، والعلاقات الاجتماعية ، والعادات والتقاليد . وكل تفسير للظواهر النفسية والاجتماعية بأسباب خارج هذا الإطار لا يعتبر تفسيراً علمياً)[1] . وعلى هذا فإن الإنتاج الأدبي الغربي الذي هو أساس الإنتاج البرامجي الوافد من الغرب يتأثر في مجمله بهذه الحقيقة ، ولذلك نجد هذه الفوضى في التصوّر للوجود في مختلف المذاهب والاتجاهات المتناقضة فيما بينها في كل شيء ، إلا أنها تتفق في هذا الاضطراب الفكري ، مهما اختلفت أشكال التعبير (فمنهم من يؤكّد على فوضى الكون متمثّلة بلا معقوليته وعبثيته ، ومنهم من يؤكّد فوضى العالم متمثّلة بعزلة الإنسان عن الإنسان ، وغربته ، وفساد العلاقات الاجتماعية ، وضياع القيم ، وبالآلية التي تسحق الكيان الإنساني العام سحقاً لا يرحم ، وبالرعب الذرّي والدمار الذي يتهدّده في كل حين ـ وآخرون يؤكّدون على فوضى الإنسان نفسه ، الإنسان من الداخل : بشائيته وتشتّته وتمزّقه ، بقلقه وعذابه ، وغضبه ، بنزعاته الهابطة وحسّه الثقيل . . . ثم هنالك ـ أخيراً ـ من يؤكّد على فوضى العلاقات بين الإنسان والله ، تلك التي تتبلور في مواقفهم من القدر والحرّية . . . المهم أن الفوضى في نظر هؤلاء هي السمة الأساسية التي تطبع حركة الكون والعالم والإنسان ، وتحدّد علاقاتهم) . فالقيم المتضمّنة في المواد البرامجية الوافدة من الغرب مرتكزة على تلك النظرة الملحدة إلى الكون وعلاقاته وهي شكل من أشكال التعبير الفوضوي المتأصّل على تلك العقيدة .

فالبرامج البوليسية وأفلام العنف والجريمة والجنس المكشوف والعبث الذي يملأ ذلك الإنتاج ، كلّه شكل من أشكال التعبير التي لا تنفصل عن تلك التصوّرات والنظرات العابثة إلى نظام الوجود .

---

(١) انظر د. جعفر شيخ إدريس . الدعوة الإسلامية والغزو الفكري . بحث منشور في مجلّة هذه سبيلي العدد الخامس ١٤٠٣ هـ ص (١٠٩) (تم ترتيب هذه الحقيقة بتصرف من الباحث) .

(١) د. عماد الدين خليل . فوضى العالم في المسرح المعاصر ، مرجع سابق . ص (١٤) .

أمّا البرامج الثقافية الوافدة من بلاد الشرق الشيوعي ، فإنها تتميّز عن أفلام الغرب بأسلوبها الدعائي وتقديم الفكر الشيوعي في كل صغيرة وكبيرة ـ مما يجعل الاستجابة والتأثر بهذه المضامين الثقافية تشكّل توجّهاً فكريّاً ، وانتماء مباشراً بهذه المضامين الثقافية تشكّل توجّهاً فكريّاً ، وانتماء مباشراً للفكر الشيوعي ، وهو في تهديده للثقافة الإسلامية أكثر خطورة وأشدّ ضرراً لتعارضه المباشر مع الأسس العقيدية التي بنى عليها الدين الإسلامي ، وبالتالي يعتبر تهديداً لكل مكونات البناء المتمي إلى تلك العقيدة من أساسه .

أمّا المجموعة الثالثة : فهي القيم التي تبثّها الأفلام العربية وهذا النوع من الأفلام وإن كان يحاول تقديم واقع الأمة العربية وطموحاتها ، إلا أنه مصاب بداء التقليد للإنتاج العالمي ، فالتأثر بفكر الغرب يتمثّل في الأفلام العربية من عدّة نواحي :

. أوّلها : مجال الكتابة ، فكتّاب هذه الأفلام معظمهم متأثر بأساليب المعالجة الأدبية الغربية التي ترتكز في فكرها وتعتمد في أساليب معالجتها على واقع الحياة الغربية ، والتي لا تتفق مع واقع المسلمين وآمالهم ، والنقل عنها أو التشبه بها لا يؤدّي إلا إلى مزيد من الهبوط والانحطاط .

وثانيها : مجال الإخراج ، فمع أن فنون الإخراج التلفزيوني بشكل خاص تتطوّر باستمرار ، والتعرّف على ذلك المستوى الفني من خلال الدراسة والتدريب مطلب أساسي للنهوض بإنتاجنا المحلّي ، إلا أن توظيف تلك الفنون ، والأساليب التي تمارس بها ، أمر مرتبط بفكر الأمة وعقيدتها ، وضوابطها ، ومعاييرها . فالإثارة بأساليبها المتعدّدة ـ على سبيل المثال ـ ينبغي أن لا تنقل من الغرب دون وعي أو تمحيص ، وتفريق بين ما ينبغي أخذه ، وما لا ينبغي ، فقد يكون في أسلوب العرض من المعاني المرفوضة ما هو أكثر خطورة على القيم الأصيلة من بعض المضامين .

وثالثها : الممثّلون . إن كبار الممثّلين في العالم العربي وغيره ، يعتبرون أنفسهم من أصحاب الهوية العالمية ، بمعنى أن تكون قيمهم السلوكية غير مرتبطة بثقافة محدودة ، فهم لا يلتزمون بالقيم المستمدّة من ثقافتهم العربية والإسلامية ، ولا يخفى أن تأثير الممثّلين الكبار على الأفلام ، بما يقدّمونه من أدوار ، وبما يتدخّلون به من طلب تعديل يتناسب مع أذواقهم الخاصة ، ولعلّ البعض منهم يرفض أعمالاً فنّية إذا لم يستجب لمطالبه في التعديل لبعض النصوص أو الأفكار ، بل إن بعض المشاهد يضيف فيها الممثّل جملاً ليست في النص الأصلي ، وهي تمثّل توجّهاً معيّناً يؤمن به الممثّل .

كل هذه العوامل وغيرها جعلت (العديد من الأفلام العربية التي يعرضها التلفزيون لا تعبّر بصورة أو بأخرى عن قيمنا الأخلاقية وأعرافنا الاجتماعية السائدة في مجتمعنا بخاصة ، والمجتمعات العربية بعامة) [١] .

والمجموعة الرابعة والأخيرة من قيم البرامج المفضّلة هي قيم الترفيه والتسلية بالموسيقى ، والغناء ، والرقص ، والبرامج الرياضية ، ومباريات كرة القدم .

والملاحظة الأولى التي ترد عند استعراض هذا النوع من القيم السائدة والتي تركّز على التسلية والبعد عن الجاد من الأمور ، هي كثافة هذه المواد وأخذها هذا الحجم الكبير في هيكل البرامج ، خاصة إذا لاحظنا أنه يضاف لساعات الترفيه . هذه قسم كبير من ساعات الدراما ، لأنها في بعض أشكالها لا تخرج عن مجال الترفيه .

وليس الاعتراض على مبدأ الترويح عن النفس ، فقد يحتاج الإنسان

---

(١) موسى عيد راغب وآخرون . تقرير حول استطلاع رأي المشاهدين في برامج الدورة التلفزيونية الصباحية عام ١٩٧٤ م . مرجع سابق . ص (١٦) .

الذي عمل واجتهد طول نهاره إلى بعض ساعات الراحة التي يجد فيها ما يسلّي به نفسه ، ولكن الاعتراض على هذا الكم الكبير من الساعات الذي يستغرقه هذا اللون من البرامج من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، نوع الترفيه الذي يقدم ، فإذا سلّمنا أن الترفيه مطلب للمشاهدين ؛ فإن نوع الترفيه ينبغي أن ينضبط بضوابط أخلاقية مستمدّة من أصول الإسلام . فحجم الترفيه ينبغي أن لا يتجاوز حدوده حتى لا يزاحم الأنواع الأخرى من البرامج ، ونوعه ينبغي أن لا يتجاوز حدود الأخلاق (فالساعات التي يمضيها المواطن في مشاهدة برامج التلفزيون ينبغي أن توزّع توزيعاً عادلاً بين الأغراض الترويحية والتثقيفية والتنموية على حدّ سواء . . . فما نعنيه بهذه الأقوال إنما هو التنبيه إلى ضرورة إجراء الدراسات الجادّة لاستثمار ساعات الإرسال التلفزيوني بما يعين في بناء المواطن والوطن ، وليس فقط لمجرّد الترويح عنه ، فلو كانت الخسارة عند غياب هذا الاستثمار تنحصر في الجانب المادّي فقط لهان الأمر ، وإنما الخسارة هي في الساعات التي يمضيها المواطن من عمره في مشاهدة برامج قد لا يفيد منها ولا تنفعه) [1] . ومن مواد الترفيه المرغوبة لدى المشاهدين ، الغناء ، والتابلوهات الراقصة بتعبير تلفزيون مصر . فهل يسأل المشرف على هذا النوع من البرامج نفسه عندما يقدمه ؟ هل هذا النوع من الترفيه يخدم المشاهد فعلاً ؟ وهل هو ينسجم مع قيم المواطن الدينية ؟ نعم إن المشاهد يحتاج الترفيه ، وربّما يرغب هذا اللون من الترفيه . فهل المقياس هو رغبة المشاهد فقط ، دون اعتبار للضوابط الأصيلة المستمدّة مما يؤمن به المواطن نفسه . ثم ما هي وظيفة الإعلام إذا كان يحرص فقط على تلبية رغبات الجمهور ؟ أين دوره في الرقي بذوق المشاهد والاستعلاء برغباته إلى معالي الأمور والترفّع عن سفاسفها ؟ أين دوره في رفع الهمم والطموحات إلى المساهمة في البناء ودفع عجلة التنمية ؟ هل المساهمة هي بتعليم الرقص

---

(١) د. يحيى حداد . التقرير الأول حول استطلاع آراء المشاهدين الدورة البرامجية الأولى للتلفزيون لعام ١٩٧٩ م . وزارة الأعلام الكويتية . ص(٢٠) .

والغناء والسهر مع المغنيات والراقصات إلى الساعات الأولى من الصباح ؟ أي مساهمة هذه ؟ إنها مساهمة في الهدم ، هدم نفسية الفرد ، ومساهمة في الضياع ، ضياع الوقت وضياع الأفراد .

وما يقال عن إضاعة الوقت بدون فائدة ، أو بفائدة قليلة لا تساوي ما يهدر في سبيلها من طاقات وإمكانات ، يمكن أن يقال في الساعات الطوال التي تمضي في مشاهدة أفلام كرة القدم أو النقل المباشر لمبارياتها المحلّية ، والإقليمية ، والدولية . وهذه المباريات وإن كانت من الناحية الشرعية لا تساوي الرقص والغناء ، إلا أنها فيما يتعلّق بضياع وقت الجماهير لا تقلّ عنهما ، خاصة إذا لاحظنا شدّة التعلق بمتابعتها من قبل الكثير من المواطنين الصغار والكبار الذكور والإناث ، والذي كان من الأجدى لهم أن يوجّهوا إلى المساهمة في أمور تنفعهم وتنفع أوطانهم نفعاً حقيقياً . إن إمكانيات التلفزيون تؤهله للمساهمة في تنمية الإيجابيات الموجودة في المجتمع ، وأن يساهم أيضاً في تغيير السلبيات وإزالتها في سبيل تحقيق التغيّرات الإيجابية (وأن التغيّر لا يتم بسلاسة أو بفعالية ما لم يرغب الناس أنفسهم فيه ، وغالباً ما يكون التدفّق المتزايد للمعلومات هو العامل الأساسي الذي يغرس بذور التغيّر ويهيىء المناخ الملائم للتنمية) [1] . والتلفزيون قادر على تقديم ذلك من خلال برامجه ليحول نشاط الأفراد السلبي والذي يستهلك أوقات الكثير من المشاهدين من خلال برامج التسلية والترفيه إلى أنشطة هادفة تحقّق مردوداً إيجابياً على الفرد والمجتمع .

وهل يليق بأمة وصفها ربّها بأنها ﴿ خير أمة أخرجت للناس ﴾ [1] أن تعمل عبر وسائلها الإعلامية على هدر طاقاتها المتمثّلة في وقت شبابها وأعمارهم .

---

(١) د. عمر الخطيب . الاعلام التنموي . الطبعة الأولى عام١٤٠٣ هـ . دار العلوم . ص (١٥) .
(١) سورة آل عمران . الآية (١١٠) .

وأي غاية يريدها أعداء الإسلام أكبر من هذه الغاية ، أن يمضي المسلمون أوقاتهم في الضياع باسم التسلية والترفيه . وهل ينتظر من شباب يعد بهذا المستوى أن يكون قادراً على حفظ تراث الأمة وحماية مقدّساتها ، ومنجزاتها الحضارية والوقوف أمام أعدائها المتربّصين بها ، أم ان شعارات الوفاق الدولي انطلت عليهم . (والواقع أن التفاهة والتسلية لها معنى سياسي رئيسي : فصرف الانتباه صرفاً ممنهجاً عن المشكلات هو وسيلة للسيطرة . وقد كان يعي ذلك تماماً الدكتور جوبلز ـ أحد سادة التلاعب السياسي ، ووزير دعاية هتلر . . . فقد كتب في مذكراته بتاريخ ١٥ أيار ١٩٤٢ ـ إنني شديد الغضب لكون مكاتبنا في باريس تظهر للفرنسيين كيف يتمثّلون الوطنية في أفلامهم . وقد أعطيت أوامر واضحة بأن لا ينتج الفرنسيون إلا أفلاماً خفيفة ، فارغة ، وبليدة إذا أمكن ، وأعتقد أنهم سيرضون بها) [1] .

وفي الواقع أن التفاهة والبلادة الحقيقية هي في إضاعة هذه النسب العالية من أوقات الأمة في الترفيه والتسلية والتفاهة التي تساهم في الهدم أكثر من مساهمتها في البناء .

ثانياً : قيم البرامج غير المرغوبة :

من دراستنا للبرامج غير المرغوبة من قبل الجمهور ودراسة البرامج التي انخفضت نسب الساعات المخصصة لها من مجمل ساعات البث ، تبيّنت لنا مجموعة من البرامج تحتوي على أنواع متعددة من القيم ، وصنّفناها إلى ثلاث مجموعات متقاربة لتسهيل دراستها وهذه المجموعات هي :

- البرامج الدينية .
- البرامج الثقافية .
- البرامج الخاصة .

---

(١) روجيه جارودي . مشروع الأمل . دار الآداب بيروت . الطبعة الأولى . مارس ١٩٧٧ م ص (١١٤) .

أمّا القيم المتضمّنة في البرامج الدينية فهي قيم مستمدّة من الشريعة الإسلامية تنطلق من أصول الدين (القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهّرة) وهي تشمل قيماً متكاملة تنظّم حياة الإنسان في حياته الدنيا وتعطيه التصوّرات الكاملة حول علاقاته كلها ـ علاقاته بخالقه ، وبالمخلوقات الأخرى التي يعيش معها ـ ويضع التصوّرات التي يبني عليها تنظيم تلك العلاقات . وهذا النوع من القيم يعتبر الأساس الذي تبنى عليه حياة الفرد المسلم ، وكلّما تمكّنت تلك القيم من شخصية الفرد أثّرت فيه بتحقيق التوازن والاستقرار النفسي ومن ثم انتظام حياته كلّها . وبالعكس إذا كان هذا النوع من القيم ، ضعيف التكوين ، فإن حياة الفرد تضطّرب وتظلم تصوّراته لنظام الوجود .

والمجموعة الثانية من قيم البرامج غير المرغوبة ، القيم الثقافية وهي كما سبقت الإشارة القيم المرتبطة باللغة العربية وآدابها والثقافات المرتبطة بها . وهذا النوع من القيم له تأثيره في إظهار الولاء للثقافة المحلّية باستخدام تعبيراتها وألفاظها ، والاعتزاز بتراثها الأصيل من الإنتاج الأدبي على مختلف العصور الإسلامية والتي تميّز إنتاجها الأدبي عن إنتاج الأمة العربية في عصور الجاهلية حيث ظهر في هذا النوع من الأدب تمجيد القيم والأخلاق الإسلامية الفاضلة والربط بين حياة العرب والإسلام بالعزّة الإسلامية التي حقّقها الدين الإسلامي للعرب .

والمجموعة الثالثة من قيم البرامج غير المرغوبة ، القيم المتضمنة في البرامج الخاصة ، ولتنوع هذه البرامج التي يعنى كل نوع منها بفئة من فئات المجتمع بتقديم المادة التي تتناسب مع الصفات المشتركة بين أفراد هذه الفئة ، والهدف المشترك بين هذه البرامج الخاصة هو خدمة هذه الفئات من خلال تقديم قيم المجتمع وتصوّراته ومعاييره الخاصة بأمور هذه الفئات حتى يمكن تهيئة هذه الفئات في المشاركة في الحياة العامة بأساليب منطلقة من تلك التصوّرات التي قدمت ، ومع أن لكل برنامج أهدافه الخاصة إلا أنها ترمي جميعاً إلى تحقيق ذلك الهدف العام المشترك ، ومن هذا الاستعراض لقيم

البرامج غير المرغوبة يتّضح أن تلك القيم في جملتها تنطلق من الثقافة المحلية ، والتي تتضمّن عقيدة المجتمع وما يبنى عليها من أخلاق وسلوك ، وتصوّرات للعلاقات ؛ بالإضافة إلى الآداب التي تصوّر وتبرز ذلك كله ، والنظم التي تساعد على تحقيق التوافق مع تلك الثقافة ، وذلك من خلال البرامج الدينية والبرامج الثقافية ، والبرامج الخاصة ، ويتجلّى الأمر هنا بأن القيم المتضمّنة في البرامج غير المرغوبة قيم أصيلة ومتمية إلى الثقافة المحلية في غالبها ، وأن الاستمرار في هذا الوضع المتمثّل في العزوف عن هذا النوع من البرامج ، يمثّل تهديداً للأمة ، حيث لم تستطع محطّات التلفزيون تحقيق أهدافها المتمثّلة في خدمة ثقافة مجتمعها وغرس قيمه وعاداته وتقاليده وأعرافه ، وتثبيت أصوله التي أسّس عليها بناءه الثقافي والاجتماعي ، وان التقصير في تحقيق هذا الهدف يعرّض الأمة للانهيار أمام موجات الغزو الفكري الموجّه للأمة في كل المجالات .

ولا شك أن ضعف تكوين الأفراد [1] ، وشراسة الهجمة الفكرية ، سبب قوي من أسباب سقوط بعض شباب الأمة في متاهات الفكر الغربي ، والمتمثّل في الضياع الذي يعيشه بعض شباب الأمة .

الأهداف والوظائف التلفزيونية :

لا نعني هنا بيان الوظائف التي يؤديها التلفزيون، بصفته وسيلة إعلامية يشارك في اداء الوظائف الإعلامية ـ المعروفة ـ مع بقية الوسائل الأخرى .

ولكن ما نعنيه هنا ، هو موقف التلفزيون ومسؤوليته تجاه هذه الأنواع المتعددة من البرامج والتي ينبغي أن يوظّفها في تحقيق أهدافه .

وجوانب هذه القضية الهامة التي بين أيدينا تتلخّص في الآتي :

---

(١) المقصود ضعفهم الناتج من عدم تمكن عملية التنشئة الاجتماعية من تحقيق أهدافها بغرس القيم الخاصة بثقافتهم وجعلها جزءاً من كيانهم يتمثلونها فكراً وسلوكاً على أساس من أصول عقائدهم الخاصة .

ـ كم هائل من البرامج القوية الأجنبية ـ والتي لا تتفق مع قيمنا الأصيلة ـ وهي في نفس الوقت تجد القبول من جماهير المشاهدين ، مما يتيح لها فرص التأثير .

ـ برامج محلّية تحمل مضامين منتمية إلى الثقافة المحلية ، ولكنها لا تنال إلاّ نسب قليلة من إقبال الجماهير .

ـ مسؤولية كبيرة ملقاة على عاتق أجهزة التلفزيون تتمثّل في بناء أفراد المجتمع بناء ثقافياً واجتماعياً قوياً ، على أسس من الثقافة الأصيلة .

هذه العناصر التي أمامنا ـ مع قلّتها ـ تشكّل ما يشبه التناقض فيما بينها ، وتتحدّى رجال الإعلام في البلاد الإسلامية بكل إمكاناتهم العلمية والفنية ؛ بل وتتحدّى الأمة كلّها بكل إمكانياتها . فهل الأمة في مستوى التحدّي وتحمّل المسؤولية ، وهل لديها المقدرة على إيجاد حل لهذه المشكلة المزمنة ؟

إن الحل المؤمل ينبغي أن يتناسب مع حجم المشكلة ، ومع حجم الآثار الكبيرة التي حدثت وتحدث في محيط الثقافة الإسلامية من جراء هذا السيل الجارف من القيم الوافدة ، وبسبب ضعف القدرات الإعلامية المحلية وعجزها عن حمل الثقافة الأصيلة والتأثير بقيمها ، وبناء الأفراد بناء قوياً يصمد أمام هذا السيل الجارف .

إن أهداف التلفزيون التي يريد تحقيقها من خلال الوظائف التي يقوم بها ينبغي أن ترسم وتحدّد بوضوح تام ، حتى تحقّق تلك الوظائف الأهداف التي يرمي إليها التلفزيون . ويترتّب على هذا الوضوح أن يقدم من البرامج ما يتناسب مع تلك الأهداف ، وأن يتحقق التناسق بين جميع الوظائف التي يقوم بها التلفزيون . ويترتّب على هذا الوضوح أيضاً ، أسلوب التعامل مع البرامج الأجنبية والبرامج الملحية .

وإذا كانت الوظائف التي يؤديها التلفزيون كثيرة ومتعددة ومتفرّعة إلى أنواع كثيرة ، فإنها تنحصر من حيث الأهداف في هدفين كبيرين :

١ ـ هدف البناء .

٢ ـ هدف تكوين معايير التعامل مع الثقافات الأخرى .

وهدف البناء يتحقّق من خلال الوظائف البنائية (التي تنظر إلى كل عناصر العملية الإعلامية ـ في الشكل والمضمون ـ من زاوية قدرتها على إقامة البناء أو فائدتها له) [١] . ويدخل في هذا المجال الوظيفي للبرامج كل الوظائف المعروفة تقريباً ، والتي تقوم بها الأجهزة التلفزيونية في بلاد العالم ، من منطلقاتها الثقافية الخاصة ، في هذا الإطار الواسع الذي (يتضمّن المعارف والعادات والتقاليد والقيم وكل ما يكتسبه الفرد كعضو في مجتمع . والتلفزيون بطاقته الهائلة وإمكاناته الكبيرة وخواصّه الجاذبة والمؤثّرة مطالب أولاً وفي المقام الأول ـ بأن يبني الإنسان من خلال تأثيره على معارفه وفكره وسلوكه وقيمه) [٢] .

أمّا هدف تكوين معايير التعامل مع الثقافات الأخرى ، فإنه يتحقّق إذا أضيفت إلى الوظائف الإعلامية وظيفة تحقّق هذا الهدف الهام الذي يرمي إلى إيجاد القدرة على الانتقاء من المواد الإعلامية ووزن المادة البرامجية وفق معايير الإسلام في القبول والرفض وهذه الوظيفة المعيارية بالغة الأهمية خاصة حينما يكون المجتمع في غفلة عن دينه . فالسيل الإعلامي الأجنبي لا يكفّ عن الاندفاع وهو في اندفاعه يقدّم الغث والسمين ، والصحيح والمعتل ، والمباح وغير المباح . فما هو دور الإعلامي المسلم أو الفرد المسلم عامة إزاء هذا

---

(١) د. محمد كمال الدين إمام . النظرة الإسلامية للإعلام . دار البحوث العلمية . الكويت ط ٢ ـ ١٤٠٣ هـ ص (١٨١) .

(٢) اتحاد الإذاعة والتلفزيون المصري بالاشتراك مع مركز بحوث الرأي العام بجامعة القاهرة . بحث ميداني عن اتجاهات الرأي العام . فبراير عام١٩٨٥ م . ص (٢٤) .

الحشد الفوضوي من الأفكار ، وكيف يتكون ذلك الرأي الذي يحكم من خلاله المراقب عند تقويمه للمادة الإعلامية قبل عرضها ، أو يتعامل المشاهد العادي من خلاله مع المادة الإعلامية غير الملتزمة إذا غاب الرقيب أو استطاعت بعض الرسائل تجاوز الرقابة والوصول إلى المشاهدين . إن من الأهداف الهامة التي ينبغي للاعلام في البلاد الإسلامية أن يعمل على تحقيقها تكوين هذه المقاييس لدى جمهور المسلمين عامة ، فيتكون في ذوقهم وحسّهم ووجدانهم ما يرفض هذا الابتذال والانحطاط في القيم ، ويصبح الفرد المسلم بما يتكون لديه من معايير قادر على المراقبة بنفسه ، ورفض ما يخالف عقيدته وأخلاقه وقيمه ؛ بل ويطالب بتنقية الأجواء الإعلامية وحمايتها من كل ما يعكّر صفوها [1] .

ويصبح الجمهور في البلاد الإسلامية مطالباً بتقديم البرامج المنتمية إلى ثقافته ويفضّلها على غيرها من البرامج ، لأن معاييره تغيّرت ، وبناءه الداخلي قد أعيد تنظيمه ، وتحرّر من ضغوط معايير الإنتاج العالمي الذي أتيحت له الفرصة للانفراد بالجماهير فترة طويلة شكّل خلالها أذواقهم ومعاييرهم على هذا النمط الرديء الذي تعاني منه الأمة الآن ، والذي جعل جمهور المستقبلين يفضّلون البرامج الأجنبية الدخيلة ويقدمونها على البرامج المنتمية إلى ثقافتهم . وهذا ما ثبت من تحليل الدراسات العلمية التي قمنا بدراساتها في المباحث السابقة .

ومن العوائق الفكرية لتحقيق الأهداف الصحيحة للإعلام المنتمي للأمة ما يثار من أن البرامج إذا التزمت بالفكر الإسلامي سوف تفقد جاذبيّتها وينصرف عنها الناس إلى الإنتاج الآخر ، مما يجعل الجهود المبذولة في هذا السبيل عديمة الجدوى ، وقد يستشهد هؤلاء بممارسات إعلامية موجودة في البلاد الإسلامية تقدّم باسم البرامج الدينية أو البرامج الإسلامية ، يلاحظ انخفاض الإقبال عليها ، بل إنه إذا جاءت مواعيد عرضها وقام أكثرهم ، أو أغلقوا

---

(١) انظر د. محمد كمال الدين إمام . النظرة الإسلامية للإعلام مرجع سابق . ص (١٨١) .

التلفزيون [1] . إن السرّ في الانصراف عن هذا النوع من البرامج يكمن في الأسلوب الذي تقدّم به ، وذلك أن تلك البرامج في واقعها تعتبر حشداً من المعلومات التي تشبه الموسوعات العلمية فقط ، ومع ذلك يسمّونها برامج تلفزيونية .

إن ما يحتاجه التلفزيون هو براعة تحويل تلك المعلومات إلى مادة تناسب الوسيلة التي تقدم من خلالها . . . إن خصائص التلفزيون الذي يشغل عدداً من حواس الإنسان ويهيمن على شعور المشاهد ووجدانه قادر على التأثير في الأفراد والجماعات ، ولكن ذلك التأثير لا يتحقّق إلا من خلال الأشكال التي تناسب الوسيلة ذاتها ، والمعلومات التي تقدّم للتلفزيون ينبغي أن تتغيّر في أشكالها وقوالبها لتتناسب مع خصائصه تلك ، وتقديم هذه المعلومات في أشكال تناسب الإنتاج البرامجي من مسؤولية الأدباء المسلمين . والأدب كما هو معروف ليس حشداً للمعلومات بحيث يحتوي على موسوعات علمية في مختلف العلوم والفنون ، كما هو واقع كثير من البرامج الموصوفة بالإسلامية أو الدينية (ولكن الأدب له طريق آخر ، واتجاه آخر ، يتناسب مع طبيعته ومنهجه ، فالفنون الأدبية تمتاز عن سائر العلوم بأنها تتسلّل إلى النفس من منافذ عديدة ، وهي العقل والعاطفة والخيال والشعور والوجدان والإحساس . . . هذه منافذ عديدة ينفذ فيها الأدب ليصل إلى غايته من قوة التأثير وبراعة الإقناع ، سواء كان الأدب شعراً أو قصة أم أقصوصة ، أم مقالة ، أم مسرحية ، أم خطابة أو غير ذلك من فنون الأدب المتنوّعة التي تخالف العلوم في اتخاذها طريقاً واحداً ومنفّذاً فريداً في الإقناع وهو العقل) [2] . فإذا أضيف إلى قوة الأدب هذه قوة

---

(١) د. أحمد شوقي الفنجري . التمثيلية ودورها في خدمة الإسلام . بحث مقدم لندوة الأدب الإسلامي المنعقدة في كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤٠٥ هـ .

(٢) د. علي مصطفى . نظرية الأدب الإسلامي . بحث مقدّم لندوة الأدب الإسلامي المنعقدة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤٠٤ هـ - ١٤٠٥ هـ .

الإخراج التلفزيوني ، وامتزج ما قدمه الأديب المسلم الذي استوعب العلوم الإسلامية والعربية وخالطت روحه ونفسه وامتزجت بدمّه وأحاسيسه وأصبحت جزءاً من وجدانه وشعوره وانطلق يعبّر عنها بأشكال التعبير الأدبي المختلفة ، إذا امتزجت بالقدرات الهائلة لفنون الإخراج وأساليب العرض ، فإننا نضمن لبرامجنا الإقبال الجماهيري الكبير الذي يزيل الشُبه العالقة في الأذهان بأن البرامج التلفزيونية الملتزمة لن تنال القبول من الجمهور ، وضمّنا أيضاً وهو الأهم تحقيق أهدافنا بخدمة ثقافتنا الإسلامية بقيمها وأخلاقها وسلوكها وجميع مكوناتها من خلال هذه البرامج القوية والملتزمة في نفس الوقت ، وأصبح المجال ضيّقاً أمام هذه البرامج الدخيلة التي تملأ على المسلمين الآن محطّاتهم التلفزيونية ، وتضيق على برامجهم المحلّية .

ومع إدراك أن التأثير لبرامج التلفزيون تتحكّم فيه مجموعة من العوامل ، وأنه لا يمثّل العامل الوحيد لأحداث التغير ، إلّا أن المعلومات التي تقدم من خارج الإطار الثقافي الذي ينتمي إليه المشاهدون تشكّل بذور التغيير القادم ، وإذا أدركنا أيضاً خصائص التلفزيون التي تناولناها في الفصل السابق وقدرته على التكرار وتقديم المعلومات بأشكال متعدّدة تضمن له التكرار غير الممل تبيّنت لنا خطورة الآثار التراكمية للقيم الوافدة على المدى البعيد وحتى على المدى المتوسّط ، لأن التأثير القليل الهادىء يكون أقدر على الثبات لعدم وجود التنافر الواضح بينه وبين القيم الأصيلة والتي تمثّل أحد خطوط الدفاع القوية أمام القيم الدخيلة ، فإذا كانت البرامج الوافدة تدرك ذلك فإنها تعمل على تخطّي ذلك الخط الدفاعي (باتباع أساليب الهجوم الجانبي غير المباشر بدلاً من الهجوم الأمامي المباشر على الآراء القائمة . فالهجوم الجانبي الذي يشتمل على خلق آراء جديدة قد يكون مجرد إجراء لا تعمل ضده القوى الخارجة عن الاتصال التي عادة ما تعوق التغيير ، وعلى العكس من ذلك يؤدي الهجوم المباشر إلى إثارة هذه القوى بحيث تعمل بطاقة فورية وفعّالة . وفي الواقع قد يؤدي الهجوم المباشر على عقيدة قوية ثابتة إلى حدوث الأثر المرتدّ ، وبالتالي

إلى تـدعيم تلك العقيدة بحيث تقف بشـدة في وجه التغيـر المرغـوب) [1] .
والـواقع أن الأسلوب العلمي الـذي يسير عليـه الإنتـاج البـرامجي في الـدول المتقدّمة قد ساعـد كثيراً في تـدعيم قوة تلك البـرامج حيث عـرفت خصـائص الرسـائل الإعلامية بدقة ووظّفت لخدمة الرسائل الإعلامية كما عرفت خصـائص الجمهـور والتكوين النفسـي لهم والـدخول إلى نفـوسهم من خلال المـداخـل الطبيعية المؤثّرة ، فقد أدركوا أن الثقافـات المحلّية تشكّـل أحيانـاً عائقـاً أمام التغيير وتمثُل القيم السلوكية الغربية . (فالمجتمعات التي ينتشر فيها التحذيـر من الوقوع تحت إغراء الجديـد ، والتي ينتشر فيهـا استعمال الأمثـال والأقوال المأثورة لتـوضيح سـلامة التقـاليد ، والتي يخـاف فيها المجـدّدون من غضب الجمـاعـة ، لا تصلح لشن حملة للتغيـر الاجتمـاعي ، إذ يجب أولاً البـدء بالتمهيد لهذا التغيير . ولن يتحقّق هذا إلاّ إذا بدأ الناس في تقبّل السلوك غير التقليـدي سواء تمثّـل ذلك في الأشيـاء التي يتحدّثـون عنهـا أو الأزيـاء التي يختـارونها) [1] . نعم أدرك أولئـك أن اختيار النـاس لمـوضـوعـات حـديثهم ولأزيائهم دليل على استعداد للتغيّر ، والتحوّل إلى القيم الوافدة . واستخدموا ذلك المدخل لتحقيق الانتشار لأساليب الحياة الغربية كلّها. وفي هذا الإطـار نفسّـر نهي الرسول ﷺ والخلفاء من بعده عن التشبّه بالكافرين في لباسهم لمـا يمثّله ذلك من إعجاب قد يؤدي إلى الاستعداد للتغيّر فيما هو أكثر من اللباس .

ولهذه القوة الهائلة للبرامج الأجنبيـة، فإن القيم الأصيلة في البلاد النامية والبلاد الإسلامية بشكل خاص مهدّدة من قبل القيـم الوافدة عبر البرامج ، ومـا يتبع ذلك من آثـار أكثر خـطورة تتمثّل في السـيطرة الثقافيـة التي تتخذ شكـل الاعتماد ـ من جانب الدول النامية ـ على النماذج المسـتوردة التي تعكـس القيم وأساليب الحياة الأجنبية ، مما يهدّد الذاتيـة الثقافيـة لشعوب العـالم الثالث ،

---

(١) د. عمر الخطيب . الإعلام التنموي . الطبعة الأولى عـام ١٤٠٣ هـ . دار العلوم الريـاض . ص (٥٤) .

(١) د. عمر الخطيب. المرجع السـابق . ص (١) .

رغم أنها ورثت ثقافات أقدم عهداً أو أكثر ثراء) [1] . وهذا التهديد هو المقدّمات للتغيّر الثقافي الذي هو أساس عملية التغيّر الاجتماعي ، وعندما تكون التغيّرات الثقافية في هذا الاتجاه ؛ فإن نوع التغيّر سيكون إلى السلبية أقرب منه إلى البناء الإيجابي .

---

(١) د. عواطف عبد الرحمن . قضايا التبعية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث . طبعة عام ١٤٠٤ هـ . عالم المعرفة ـ الكويت . ص (٦٩) .

مصادر البحث ومراجعه

أولاً : المصادر الشرعية :

أ ـ القرآن الكريم .

ب ـ كتب شرعية .

١ ـ **ابن القيّم** : أعلام الموقعين تحقيق عبد الرحمن الوكيل ـ دار الكتب الحديثة بمصر .

٢ ـ **ابن تيمية** : الاستقامة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

٣ ـ **ابن تيمية** : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ . دار الكتاب الجديد ـ بيروت .

٤ ـ **ابن تيمية** : الفتاوى ـ الطبعة الأولى .

٥ ـ **الإمام مسلم** : صحيح مسلم ـ طبعة استامبول ١٤٠١ هـ .

٦ ـ **محمد المراكشي** : بغية كل مسلم من صحيح مسلم ـ المكتبة الشعبية ـ بيروت .

٧ ـ **محمد علي الصابوني** : مختصر تفسير ابن كثير ـ الطبعة السابعة ـ دار القرآن الكريم .

ثانياً : مراجع إعلامية :

أ - كتب إعلامية :

٨ - د. إبراهيم إمام : أصول الإعلام الإسلامي - طبعة ١٤٠٥ هـ - دار الفكر العربي .

٩ - د. إبراهيم إمام : الإعلام الإذاعي والتلفزيوني ١٩٧٩ م . دار الفكر العربي .

١٠ - د. إبراهيم إمام : الإعلام والاتصال بالجماهير - الطبعة الثالثة - الأنجلو .

١١ - د. أحمد النكلاوي : المدخل السيسولوجي للإعلام - نهضة الشرق .

١٢ - د. جيهان رشتي : الأسس العلمية لنظريات الإعلام - دار الفكر .

١٣ - د. سامية جابر : الاتصال الجماهيري والمجتمع الحديث - دار المعرفة الجامعية - الاسكندرية .

١٤ - د. سمير حسين : الإعلام والاتصال بالجماهير والرأي العام - الطبعة الأولى - ١٩٨٤ م . عالم الكتب .

١٥ - د. عبد الحميد : علم النفس الاجتماعي والاعلامي . دار الإصلاح - محمد السيد للطباعة والنشر - الدمام .

١٦ - د. عبد اللطيف حمزة : الإعلام والدعاية . الطبعة الثانية - ١٩٧٨ م . دار الفكر العربي .

١٧ - د. عمر الخطيب : الإعلام التنموي - الطبعة الأولى - ١٤٠٣ هـ . دار العلوم - الرياض .

١٨ - د. عواطف عبد الرحمن : قضايا التبعية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث - طبعة ١٤٠٤ هـ . عالم المعرفة . الكويت .

١٩ ـ د. غازي زين عوض الله : التلفزيون التجاري في الولايات المتحدة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ ـ تهامة .

٢٠ ـ د. فتحي الباب عبد الحليم سيد والدكتور إبراهيم ميخائيل حفظ الله : (الناس والتلفزيون ـ طبعة ١٩٦٣ ـ مكتبة الأنجلو) .

٢١ ـ د. فرج الكامل : تأثير وسائل الاتصال ـ الطبعة الأولى ١٩٨٥ م . دار الفكر العربي .

٢٢ ـ د. فوزية فهيم : التلفزيون فن ـ سلسلة إقرأ العدد (٤٦٥) في يوليو ١٩٨١ م . دار المعارف .

٢٣ ـ د. محمد عبده يماني : أقمار الفضاء ـ غزو جديد ١٤٠٤ هـ . تلفزيون الخليج .

٢٤ ـ د. محمد كمال الدين إمام : النظرة الإسلامية للإعلام ـ الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ ـ دار البحوث بالكويت .

٢٥ ـ د. محيي الدين عبد الحليم : الدراما التلفزيونية ١٤٠٤ هـ . دار الفكر .

٢٦ ـ يحيى بسيوني والدكتور عادل الصيرفي : التلفزيون الإسلامي ـ الطبعة الأولى عام ١٤٠٥ هـ ـ عالم الكتب ـ الرياض .

ب ـ أبحاث ودراسات :

٢٧ ـ اتحاد الإذاعة والتلفزيون المصري : بحث تقيم برامج الإذاعة والتلفزيون عام ١٩٨٠ م ـ صدر في يناير عام ١٩٨١ م .

٢٨ ـ اتحاد الإذاعة والتلفزيون المصري : بحث تقيم برامج الإذاعة والتلفزيون عام ١٩٨٣ م ـ صدر في أكتوبر عام ١٩٨٣ م .

٢٩ ـ اتحاد الإذاعة والتلفزيون المصري بالاشتراك مع مركز بحوث الرأي العام بجامعة القاهرة . بحث ميداني عن اتجاهات الرأي العام . فبراير ١٩٨٥ .

٣٠ ـ أحمد تفاسكا : واقع وسائل الإعلام الجماهيرية في المغرب ـ بحث منشور في مجلة الدراسات الإعلامية بدمشق ـ العدد (٣٠)، (٣١) سبتمبر ٨٣ م .

٣١ ـ أحمد شوقي الفنجري : التمثيلية ودورها في خدمة الإسلام ـ بحث مقدم لندوة الأدب الإسلامي المنعقدة بكلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٤٠٥ هـ .

٣٢ ـ إدارة البحوث والترجمة : تقرير أولي حول استطلاع رأي عينة من المواطنين في بعض البرامج ـ دورة أكتوبر ـ ديسمبر ١٩٨٣ م . وزارة الإعلام الكويتية ١٤٠٤ هـ .

٣٣ ـ د. إسحاق القطب : اتجاهات الشباب نحو المطالعة في المجتمع الكويتي المعاصر ـ وزارة الإعلام الكويتي ١٤٠٣ هـ .

٣٤ ـ السيد ليليان بن يوسف : البرامج الموجهة للأطفال في الإذاعة والتلفزة التونسية ـ بحث منشور بدورية البحوث ـ بغداد العدد الثاني إبريل عام ١٩٧٩ م .

٣٥ ـ أنور شتا : الإخراج التلفزيوني وفن كتابة السيناريو ـ بحث منشور بمجلة الفن الإذاعي العدد (٩٦) يناير ١٩٨٣ م .

٣٦ ـ د. حامد ربيع : أبحاث في نظرية الاتصال وعملية التفاعل السلوكي ـ محاضرات ألقيت على طلبة كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ومعهد الإعلام الجامعي بالقاهرة عام ١٩٧٣ م مكتبة القاهرة الحديثة .

٣٧ ـ حسن عماد عبد المنعم : تدفّق الأفلام الأجنبية في السينما والتلفزيون في جمهورية مصر العربية ـ رسالة ماجستير من كلية الإعلام ـ جامعة القاهرة عام ١٩٧٩ م ـ جامعة القاهرة عام ١٩٧٩ م ـ نشر ملخصها في دورية الإعلام العربي ـ السنة الثالثة ـ العدد الأول رمضان عام ١٤٠٣ هـ .

٣٨ ـ د. خليل صابات : نحو منهج لدراسة الأثر الاجتماعي للإذاعة والتلفزيون ـ بحث منشور في مجلة الفنون الإذاعية ـ العدد الثاني ـ يناير ١٩٧٣ م ـ بغداد .

٣٩ ـ سعد عبد الرحمن : بحث التلفزيون والمشاهد عام ١٩٧٢ م وزارة الإعلام الكويتية ـ الطبعة الثانية عام ١٩٨٠ م .

٤٠ ـ د. سعد عبد الرحمن : بحث حول التلفزيون وطفل المدرسة المتوسطة ـ وزارة الإعلام الكويتية عام ١٣٩٤ م .

٤١ ـ سنا سلطان الحلو : الزاد السينمائي عبر الشاشة الصغيرة والضرورات الاجتماعية ـ بحث منشور في مجلة الفن الإذاعي المصرية ـ العدد ١٠٣ أكتوبر عام ١٩٨٤ م .

٤٢ ـ عبد المنعم علي سعد : السينماء وظاهرة الانحراف عند الشباب ـ رسالة ماجستير عام ١٩٧٢ م من قسم الاجتماع . كلية الآداب ـ جامعة القاهرة .

٤٣ ـ عدلي محمد رضا : تدفّق البرامج من الخارج في تلفزيون جمهورية مصر العربية ـ رسالة ماجستير ـ مقدمة لكلية الإعلام بالقاهرة عام ١٩٧٩ م نشر ملخّصها في دورية الإعلام العربي السنة الثالثة المدد الأول عام ١٤٠٣ هـ .

٤٤ ـ د. عدنان الدوري : أثر برامج العنف والجريمة على الناشئة ـ طبعة ١٩٧٧ م . وزارة الإعلام الكويتية .

٤٥ ـ **فاروق شوشه** : الإذاعة والثقافة ـ بحث منشور في مجلة الفن الإذاعي ـ العدد (١٠١) إبريل ١٩٨٤ م .

٤٦ ـ **قسم الدراسات والأبحاث بالتلفزيون الأردني** : اتجاهات الرأي في التلفزيون الأردني . بحث منشور في دورية الإذاعات العربية ـ العدد (٦٠) أكتوبر ١٩٧٤ م .

٤٧ ـ **قسم العلاقات العامة بتلفزيون السودان** : قياس اتجاهات وميول الأطفال الذين يشاهدون التلفزيون في العاصمة المثلثة ـ دراسة ميدانية نشر ملخصها في دورية الإعلام العربي السنة الثالثة ـ العدد الأول ـ رمضان ١٤٠٣ هـ .

٤٨ ـ **مجموعة باحثين بوزارة الإعلام الكويتية** : التلفزيون وطالب المرحلة الثانوية ـ وزارة الإعلام الكويتية ـ رجب ١٤٠٥ هـ .

٤٩ ـ **محمد محمود متولي** : الإعلام في العصر الحديث ـ رسالة دكتوراه مقدمة لكلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة ـ جامعة الأزهر ـ ربيع الثاني عام ١٤٠١ هـ .

٥٠ ـ **موسى عيد راغب ورفاقه** : تقرير حول استطلاع رأي المشاهدين في برامج الدورة التلفزيونية الصباحية عام ١٩٧٤ م . وزارة الإعلام الكويتية .

٥١ ـ **ناهد رمزي** : التلفزيون والصغار ـ المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية عام ١٩٧٥ م . نشر مستخلص للبحث في دورية الإعلام العربي ـ السنة الثالثة ـ العدد الأول ـ رمضان عام ١٤٠٣ هـ .

٥٢ ـ **يحيى حداد وموسى عيد راغب** : دراسة استطلاعية حول آراء بعض فئات المواطنين في إنشاء قناة ثانية للتلفزيون ـ وزارة الاعلام الكويتية عام ١٩٧٨ م.

٥٣ ـ **د. يوسف بن رمضان** : التلفزيون ـ انعكاساته الثقافية في تونس ـ بحث

منشور في مجلة البحوث العدد الأول ـ شباط عام ١٩٧٩ م ـ بغداد .

ثالثاً : مراجع عامة :

أ ـ كتب :

٥٤ ـ ابن خلدون : المقدمة ط ٤ . دار إحياء التراث .

٥٥ ـ ابن منظور : لسان العرب . دار لسان العرب .

٥٦ ـ أبو الحسن الندوي : الإسلام في عالم متغير ١٤٠٠ هـ ـ دار مكتبة الحياة .

٥٧ ـ د. أحمد أبو زيد : البناء الاجتماعي ـ الطبعة السابعة ـ اللجنة المصرية العامة للكتّاب .

٥٨ ـ د. أحمد الخشّاب : التغيّر الاجتماعي ـ المصرية العامة للتأليف والنشر .

٥٩ ـ د. أحمد الخشّاب : الضبط الاجتماعي ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة القاهرة الحديثة .

٥٨ ـ د. أحمد الخشّاب :

٦٠ ـ الفيروز أبادي : القاموس المحيط .

٦١ ـ د. جلال مدبولي : الاجتماع الثقافي ط ١ عام ١٩٧٩ م دار الثقافة للطباعة والنشر ـ القاهرة .

٦٢ ـ جودت سعيد : حتى يغيروا ما بأنفسهم ط ٣ عام ١٣٩٧ هـ .

٦٣ ـ د. رشدي عبده حنين : بحوث ودراسات في المراهقة ط ١ عام ١٩٨٣ . دار المطبوعات الجديدة ـ القاهرة .

٦٤ ـ رشدي فكار : نظرات إسلامية للإنسان والمجتمع ط ١ مكتبة وهبة .

٦٥ ـ د. سامية محمد جابر : الاتصال الجماهيري والمجتمع الحديث ـ دار المعرفة الجامعية ـ الإسكندرية .

٦٦ ـ د. سامية محمد جابر : الضوابط الاجتماعية والقيم عام ١٩٨٠ م ـ دار المعرفة الجامعية ـ الإسكندرية .

٦٧ ـ سميرة محمد كامل : التنمية الاجتماعية ـ المكتب الجامعي الحديث ـ الإسكندرية .

٦٨ ـ د. صبحي المحمصاني : فلسفة التشريع في الإسلام ط ٤ . دار العلم للملايين .

٦٩ ـ د. ضياء زاهر : القيم في العلمية التربوية ط ١٩٨٤ . مؤسسة الخليج العربي .

٧٠ ـ د. عبد الحميد محمود سعد : دراسات في علم الاجتماع الثقافي ـ مكتبة نهضة الشرق .

٧١ ـ د. عبد الرحمن عيسوي : الآثار النفسية والاجتماعية للتلفزيون العربي ط ٧٩ م .

٧٢ ـ عبد الله الخريجي : التغيّر الاجتماعي والثقافي ـ رامتان ـ جدة .

٧٣ ـ د. عبد الله الخريجي : علم الاجتماع المعاصر ط ١ عام ١٣٩٧ هـ .

٧٤ ـ د. عبد المنعم محمد : دراسات في التنمية الريفية ـ دار المعارف .

٧٥ ـ عفيف طبارة : روح الدين الإسلامي طبعة ٢٣ دار العلم للملايين .

٧٦ ـ د. عقيل الشمي : معالم في التربية ط ١ ـ مكتبة المنار الإسلامية .

٧٧ ـ د. فوزية دياب : القيم والعادات الاجتماعية ط عام ١٩٨٠ م . دار النهضة العربية .

٧٨ ـ د. محسن عبد الحميد : منهج التغيّر الاجتماعي في الإسلام ـ ط ١ مؤسسة الرسالة .

٧٩ ـ د. محمد أحمد البيومي : علم اجتماع القيم عام ١٩٨١ ـ دار المعرفة الجامعية ـ الإسكندرية .

٨٠ ـ د. محمد الجوهري وآخرون : التغيّر الاجتماعي ـ الطبعة الأولى عام ١٩٨٢ م ـ دار المعارف بمصر .

٨١ ـ د. محمد الجوهري : علم الاجتماع وقضايا التنمية في العالم الثالث ط ٣ عام ١٩٨٢ م . دار المعارف بمصر .

٨٢ ـ محمد سعيد فرح : البناء الاجتماعي والشخصية ط عام ١٩٨٠ م . الهيئة المصرية للكتّاب .

٨٣ ـ محمد شديد : قيم الحياة في القرآن الكريم . الشعب .

٨٤ ـ د. محمد عاطف غيث : التغيّر الاجتماعي والتخطيط عام ١٩٦٦ م . دار المعارف .

٨٥ ـ د. محمد عودة : أساليب الاتصال والتغيّر الاجتماعي . دار النهضة العربية .

٨٦ ـ د. محمد فؤاد حجازي : البناء الاجتماعي ط ١ مكتبة وهبة .

٨٧ ـ د. محمد فؤاد حجازي : التغيّر الثقافي ط ٢ . مكتبة وهبة .

٨٨ ـ محمد قطب : التطوّر والثبات في حياة البشرية ـ الطبعة الخامسة عام ١٤٠٣ هـ . دار الشروق.

٨٩ ـ محمد قطب : دراسات في النفس الإنسانية ـ دار القيم .

٩٠ ـ د. محمد لبيب النجيحي : التربية وبناء المجتمع العربي ـ الأنجلو .

٩١ ـ د. محمود حجازي : التغيّر الاجتماعي ط ٢ . عام ١٣٩٩ هـ . مكتبة وهبه .

٩٢ ـ د. مصطفى فهمي : التوافق الاجتماعي والشخصية ط ١ . مكتبة الخانجي ـ القاهرة.

٩٣ ـ مقداد يالجن : الاتجاه الأخلاقي في الإسلام ط ١ . عام ١٣٩٢ هـ ـ مكتبة الخانجي ـ مصر .

٩٤ ـ د. مهي سهيل المقدم : مقومات التنمية الاجتماعية وتحدّياتها ـ معهد الإنماء العربي .

٩٥ ـ د. نجية الخضري : علم النفس والإخصائي الاجتماعي . مكتبة عين شمس .

٩٦ ـ ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية ـ الطبعة الأولى ـ تهامة .

ب ـ أبحاث :

٩٧ ـ أنور الجندي : المفهوم الإسلامي المتميّز للأدب ـ بحث مقدم لندوة الأدب الإسلامي المنعقدة بكلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٤٠٥ هـ .

٩٨ ـ د. جعفر شيخ إدريس : الدعوة الإسلامية والغزو الفكري : بحث منشور بمجلة ـ هذه سبيلي ـ العدد الخامس ١٤٠٣ هـ .

٩٩ ـ د. عبد الله التركي : الأدب الإسلامي : المنهج والوظيفة ـ بحث قدّم في حفل افتتاح ندوة الأدب الإسلامي التي عقدت في كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في ١٤٠٥/٧/١٦ هـ .

١٠٠ ـ د. علي علي مصطفى : نظرية الأدب الإسلامي ـ بحث مقدم لندوة الأدب الإسلامي المنعقدة في كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض .

رابعاً : كتب وأبحاث مترجمة :

١٠١ ـ ادوارد واكين : مقدمة إلى وسائل الاتصال ـ ترجمة وديع فلسطين ـ الأهرام ـ القاهرة ونشر الأصل الانجليزي بواسطة شركة الكتاب الأمريكي ١٩٧٨ م .

١٠٢ ـ الكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول ـ ترجمة شفيق أسعد فريد ـ ط ٢ مؤسسة المعارف ـ بيروت .

١٠٣ ـ تشارلز دبرايت : المنظور الاجتماعي للاتصال الجماهيري ـ ترجمة محمد فتحي ـ طبعة ١٩٨٣ م الهيئة المصرية للكتاب .

١٠٤ ـ د. رمانكيكان : تدفّق المعلومات ـ ترجمة فائق فهيم ط ٢ ١٤٠٢ هـ ـ دار العلوم بالرياض .

١٠٥ ـ روجيه جارودي : مشروع الأمل ط ١ مارس ١٩٧٧ ـ دار الآداب ـ بيروت .

١٠٦ ـ شون ماكبرايد : أصوات متعددة وعالم واحد ط ١٩٨١ م ـ اليونسكو ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر .

١٠٧ ـ صامويل بريسكا : الحاجات البشرية ووسائل الإعلام ـ ترجمة عادل خضير ـ بحث منشور في مجلة الفنون الإذاعية ـ بغداد ـ العدد الثاني ـ يناير ٧٣ م .

١٠٨ ـ هيلد هيلموايت : التلفزيون والطفل ـ ترجمة سعيد عبد الحليم ـ مؤسسة سجل العرب .

١٠٩ ـ معهد بحوث الرأي التابع لهيئة الإذاعة اليابانية : مشاهدة التلفزيون في اليابان ـ بحث منشور في دورية الإذاعات العربية العدد (٦٠) ـ أكتوبر عام ١٩٧٤ .

